أحلام ليبِّل السعيدة

پاول مار

ترجمة: د. خليل الشيخ

أحلام ليبّل السعيدة

النص: پاول مار

الترجمة: د. خليل الشيخ






أحلام ليپّل
السعيدة

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

أحلام ليبل السعيدة
باول مار

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

PZ33.M33.Li12 2009
Maar, Paul
[Lippels Traum]
أحلام ليبل السعيدة/ تأليف باول مار؛ ترجمة خليل الشيخ. - ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
232 ص؛ مص: 23 x 15.5 سم.
ترجمة كتاب: Lippels Traum
تدمك: 8-546-01-9948-978
1 - القصص الألمانية - أدب الأطفال. أ- الشيخ، خليل
ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Paul Maar, Lippels Traum

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب. 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+ . فاكس: 462 6314 2 971+

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
www.fask.uni-mainz.de

Johannes Gutenberg-Universität Mainz, Fachbereich Translations-, Sprach-und Kulturwissenschaft, An der Hochschule 2, 76726 Germersheim, Postfach 11 50, 76711 Germersheim Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429



«عندما يتكرّر الحُلم في كلّ ليلة، فإنّه يشغلنا تماماً مثلما تشغلنا مسائل حياتنا اليومية. وعندما يكون صاحب مهنةٍ ما واثقاً من مقدرته على أن يحلم أثناء النوم مدة اثنتي عشرة ساعة، فإنّه سيغدو ملكاً، أو سعيداً كالملك الذي يحلم اثنتي عشرة ساعة أثناء نومه، بأنّه قد غدا واحداً من أصحاب المهن».

كتب هذه العبارات بليز باسكال Blaise Pascal .

كان باسكال فيلسوفاً ورياضيّاً، عاش في القرن السابع عشر في فرنسا (وكان أوّل من فكّر باختراع الآلة الحاسبة، على سبيل المثال).

اعتاد باسكال أنْ يدوّن آراءه وأفكاره وخواطره فوق قُصاصات صغيرة من الورق، كي لا ينساها. وقد عُثر، بعد وفاته، في المنزل الذي كان يعيش فيه، على كميّة ضخمة من تلك القصاصات المقسّمة طولاً وعرضاً. وكان من الصعب أنْ تتمّ عملية قراءتها وفكّ رموزها.

أما ملاحظاته فقد كانت مقروءة تماماً، وقد نُشرت في كتاب سُمّي «أفكار».

عندما قرأتُ الملاحظة الموجودة في أعلى الصفحة، أخذتُ أتساءل، ما الذي يمكن أن يحدث مع إنسان يتكرر الحلم نفسه معه أثناء نومه؟ وهل يستطيع يا ترى أن يفرّق عندئذ بين الحلم والواقع؟

من هنا جاءت ولادة هذا الكتاب.



ليپّل

يا اللّـه ما أعجبَ أحوالَ هذا الطقس!

فها نحن في شهر حزيران، كما يقول التقويم السنوي. لكنَّ هذا الطقسَ يتصرَّفُ بمكرٍ وخداع، وكأنّنا ما زلنا في مطلع شهر نيسان.

يغادرُ ليپّل منزله ليشتريَ، على سبيل المثالِ، اللبنَ لعائلته وله، وتكون الشمسُ مُشرقةً. فما إن يبتعدَ عن منزلهِ ما يقربُ من ثلاث مئة خطوةٍ حتى يبدأ المطرُ الغزيرُ بالهطول. يستمر هذا المطرُ مدةَ أربع دقائقَ (وهي المدةُ الزمنيةُ التي يحتاجُها ليپّل حتى يعودَ إلى منزله، فيقرعَ الجرسَ، ويندفعَ إلى الداخل، ويرتديَ معطفه المطريَّ، ويعود).

وما إن يبتعدَ ليپّل عن منزله ما يقربُ من ثلاثِ مئةِ خطوةٍ، حتى تشرقَ الشمسُ، ونظراً لأنه لم يعد يملكُ الرغبةَ في العودةِ ثانيةً إلى المنزل، فقد صار يتوجَّبُ عليه أن يتسوَّقَ وهو يرتدي معطفَه المطريَّ تحت أشعةِ الشمس. وعندما لا يعودُ إلى منزلهِ سريعاً عند رؤيتهِ لقطراتِ المطرِ الأولى، لأنه يقولُ لنفسه: «سيتوقفُ هطولُ المطرِ حالاً»، فإنَّ نزولَ الأمطارِ يستمرُّ مدةَ ما بعدَ الظهر، يعود بعدها ليپّل إلى منزلهِ مبتلاً كممحاةِ السَّبّورة. وقد قال له والدُه مراراً:

- لستُ أعرف، على وجهِ التحديد، ما الذي بينك وبين الطقس، مع أنّه عالمٌ غنيٌّ وجميلٌ ومتنوّع!

كان والدُه حَسَنَ الحديثِ، وكان يُمضي سحابةَ يومهِ في المنزل، ليكتبَ مقالةً للصحيفةِ التي يعملُ فيها.



لهذا صارت حياةُ ليپَل أكثرَ صعوبة. فهو يذهبُ في الصباحِ إلى المدرسة، ويذهبُ بعد الظهر، عندما يعودُ من مدرستِه، إمّا إلى التسوّق وإما إلى المكتبةِ العامة ليستعيرَ كتباً منها (كانت معظمُ الكتبِ التي يستعيرها عن الشرق).

لكن علينا أن نوضحَ للقارئ، في ما أعتقدُ، طبيعةَ هذا الاسم: ليپَل.

إنّ اسمَ عائلةِ هذا الفتى هو «ماتّنهايم» وهذا الأمرُ يسري على أبيهِ وعلى أمهِ وعلى ليپَل بطبيعةِ الحال.

أما اسمُه الأوّلُ فمسألةٌ فيها قدرٌ من الصعوبة.

فقد سمّاهُ والداهُ، في الواقع، فيليب.

وفيليب ليس اسماً رديئاً. فقد اختارهُ له والداه، بعد بحثٍ طويل، وبعد أن اقتنعا بالاسم، وإن كان من غيرِ المفهوم لماذا لم يناديا باسم فيليب هذا على الإطلاق. لكنّ الأمورَ جرت هكذا. فقد سمّياهُ ليپَل مؤمنَيْن بأنّه اختصارٌ طبيعيٌ لاسم فيليب.

وهذا ما ظلّ الفتى يؤمنُ به، حتى بلوغهِ سنّ السادسةِ ودخولهِ إلى المدرسةِ، هناكَ فوجئَ الصبيُ بأنّ اسمَه: فيليپ ماتّنهايم.

ويوم صار قادراً على القراءةِ والكتابةِ، وصار زملاؤُه قادرينَ على ذلك أيضاً، واجهَ ليپَل مشكلةً أخرى. فعندما كانَ يكتبُ اسمَه، كان الآخرون يقرأونه «پيليپ»، لأنّ كثيرينَ من هؤلاء لم يكونوا يعرفونَ أنّ الحرفَيْنِ اللاتينيَّيْنِ Ph، يُلفظانِ في العادةِ كحرفِ الفاء.

وهذا ما كان يحدثُ في بدايةِ حصةِ الرسم على سبيلِ المثال، عندما يجري توزيعُ أوراقِ الرسم على التلاميذ.

كان معلمُ الرسمِ ويُدعى السيّد غولتنبوت يندفعُ إلى داخل غرفةِ الصفّ، ويتّجهُ إلى السّبورة، ويستخرجُ أوراقَ الرسم ويضعُها على المقعدِ الأول (حيث تجلس إلڤيرا تلميذتُه المفضّلة) ويخاطبُها بقوله:

- وزّعي الأوراقَ يا إلڤيرا من فضلِك!

ثم يجلسُ على كرسيّهِ ويبدأُ بقراءةِ الجريدة.

كانت إلڤيرا تواجهُ بعضَ الصعوباتِ في قراءةِ الأسماءِ الموجودةِ في أعلى الورقة. فكانت تنادي «سابينا»، فتتقدّمُ سابينا نحو الأمامِ وتأخذُ ورقةَ الرسمِ الخاصةَ بها، ثم تنادي على «روبرت» فيتقدّمُ روبرت نحو الأمامِ ويأخذُ ورقةَ الرسمِ الخاصةَ به.

ثم يأتي «أندرياس» الذي يتقدّمُ هو الآخرُ نحو الأمامِ ويأخذُ ورقتَه. كان الأمرُ يمضي على هذا النحو، حتى تصلَ إلڤيرا إلى



المجموعةِ التي تضمُّ اسمَ فيليب. فعندما كانت إلْفيرا تنادي: «پيليپ»، كان الصمتُ يسودُ قليلاً، فتكرِّرُ إلْفيرا النداءَ ثانيةً: «پيليپ». غير أنّ أحداً لا يتقدَّمُ نحوَها ليتناولَ الورقةَ.

عندها يلحظُ المعلِّمُ السّيد غولتنپوت أنّ أمراً غيرَ عاديٍّ يحدثُ في غرفةِ الصَّفِّ، فيطوي الجريدةَ، ويستخرجُ قطعةَ اللُّبانِ من فمِه، ويضعُها في ورقةٍ فضيّةٍ ويدسُّها في جيبِه.

فقد كان هذا المعلِّمُ قارئاً مُواظِباً للجريدة، مثلما كان أحدَ المغرمين بمضغِ اللُّبان.

كان المعلِّم غولتنپوت يدخلُ إلى غرفةِ الصَّفِّ، واللُّبانُ في فمِه. وعندما تبدأ الحصةُ يستخرجُ قطعةَ اللُّبانِ من فمِه، ويلفُّها بعنايةٍ

ويضعُها في ورقةٍ فضيّةٍ، ليستخدمَها مجدّداً عندما ينتهي الدرس. وكان تلاميذُ الصفوفِ المتقدّمةِ يزعمونَ أنه يمضغُ قطعةَ اللُّبانِ ذاتَها منذ خمسِ سنوات، لكنّ هذا الزعمَ غيرُ صحيح. فقد حدّثت إلْفيرا تلاميذَ صفِّها أنّها شاهدت هذا المعلّمَ، وهو يشتري اللُّبانَ من إحدى الماكيناتِ قبلَ ما لا يزيدُ على ثلاثةِ أسابيع.

ولم تكنِ الحصةُ الدراسيةُ تبدأ عند المعلم غولتنپوت عند سماعه لصوتِ الجرس، بل عندما يتمُّ الفراغُ من توزيعِ أوراقِ الرسم. لذلك كان يشرعُ بقراءةِ الجريدة، ومضغِ اللُّبانِ، قبل أن يتساءلَ عن السببِ الذي أدّى فجأةً إلى توقفِ توزيعِ تلك الأوراق.

كان ليپّل آخرَ من يعلم. لم يدُرْ بباله أنّ اسمَهُ هو السببُ وراءَ هذا التوقف. ولم يعبِّر بأكثرَ من الاكتفاء بالتعجبِ عندما رأى ورقةَ فعلَ صاحبُها مثلما فعل، إذ ألصقَ خلفَها صورةَ لِنَمِرٍ وهو يهاجمُ إحدى سياراتِ الإطفاء.

وعندما صرخَ المعلمُ بصوتٍ مملوءٍ بالتأنيب:

ـ فيليپ ماتّنهايم. هل عُدتَ لتحلمَ ثانيةً؟ ألا تريدُ أن تأخذَ ورقتك؟ أم أنك تنتظرُ حتى يأتيَ من يوصلُها لك؟

أُصيبَ ليپّل بالذُّعر، وهرولَ إلى الأمام، وأخذَ ورقتَه المخصّصةَ للرسم.

وهكذا كان مقدَّراً على ليپّل أن يستمعَ إلى اسمِه الذي يجري نُطقُه بصيغٍ مختلفة: فهو يُدعى ليپّل عند والدَيه وبعضِ أصدقائه وخاله. أما غالبيةُ تلاميذِ صفِّه فينادونَه فيليپ. وعند بعضِ تلاميذِ الصفِّ الرابعِ الذين لا يعرفونَ أنّ الحرفَين Ph يلفُظان فاءً، فإنّهُ يُدعى پيليپ.

أما هو فيُفضِّلُ أن يُدعى ليپّل وهو ما سيحدثُ في هذه الرواية.

مخبأ القراءة

هناكَ ثلاثةُ أشياءٍ يحبُّها ليپِل على وجهِ الخصوص:

فهو يُحبُّ جمعَ الصورِ ويحبُّ الفواكهَ المحفوظةَ ويحبُّ قراءةَ الكتبِ.

إنّه يُحبّ، في الواقعِ، أشياءَ كثيرةً، لكنّها كلُّها تتمحورُ حول تلكَ الأشياءِ الثلاثةِ. لذلك يُمكننا أن نؤكدَ أهميةَ الأشياءِ الثلاثةِ التي سبقتِ الإشارةُ إليها.

ونظراً لأنه يعشقُ الصُّورَ، فقد صارَ يُحبُّ الحليبَ واللّبَنَ والكريما الحلوةَ والحامضةَ، ويحبُّ التسوُّق. وهذه مسائلُ تحتاجُ إلى شيءٍ من الإيضاحِ.

لقد بدأتِ الحكايةُ عندما عثرَ ليپِل في المخزنِ الموجودِ فوقَ السطحِ على ثلاثةِ كتبٍ قديمةٍ هي: «معجزةُ البحرِ العميق» و«مع ناصبِ الشِّراك» و«الشرق».

كانت تلك الكتبُ تحوي صوراً ملوّنةً، كبيرةً، وفي أسفلِ كلٍ منها شرحٌ بسيط. وكانت بعضُ الصورِ غيرَ موجودةٍ أحياناً، ويوجدُ بدلاً منها مستطيلٌ كبيرٌ وقد كُتب تحتَه:

«الشيخ أحمد يثأر بعُنف من القتلة».

وكان على ليپِل أن يرسمَ الكيفيةَ التي تمَّ فيها هذا الثأر. وقد خلَصَ ليپِل إلى نتيجةٍ مفادُها، أنّ الشيخَ أحمد قد أجبرَ هؤلاءِ القتلةَ على تناولِ حساءِ البندورة! لأنّ تناوُلَ هذا الحساءِ الكريه، يمثّلُ في نظرِ ليپِل أقصى العقوباتِ التي يمكنُ له أن يتخيّلَها.

وقد وضّح له أبوهُ أنّ هذهِ الصُّورَ تمّ تجميعُها ووُضعت في ألبومٍ

خاصٍ بها. وكان على الراغبينَ في الحصولِ عليها شراءُ نوعٍ معيّنٍ من الشوكولاته.

وبعد زمنٍ قصيرٍ اكتشفَ ليپِل أنّ هذه المجموعةَ من الصورِ ما تزالُ موجودةً. فعلى عُبواتِ الحليبِ، ثمةَ عددٌ من النقاطِ التي يجري جمعُها وتُسمّى «پيني» ويمكنُ للمرءِ أن يحصلَ على صورةٍ مثيرةٍ عندما يتمكنُ من جمعِ مئة نقطة.

وقد استطاعت كلمةُ «مثيرة» أن تملأَ وجدانَ ليپِل بالخيالِ، فاستطاعَ أن يجمعَ ما يقربُ من الثمانينَ نقطةً (ثلاثٍ وسبعينَ نقطةً على وجهِ التحديد).

ولم تكن تلكَ النقاطُ موجودةً على عُبواتِ الحليبِ وحدَها، بل كانت موجودةً فوقَ عُلبِ اللبنِ والكريما الحلوةِ والحامضةِ.

منذ ذلك الوقتِ صار ليپِل يعشقُ التسوّقَ ويكرّسُ نفسَه له، حتى في أثناءِ ذلك الطقسِ المراوغِ الذي يسودُ المدينة. وهكذا استطاعَ أن يظلَّ حريصاً على شراءِ عُبواتِ الحليبِ أو الكريما الحامضةِ عند كل عمليةِ تسوُّق.



أما الفواكهُ المحفوظةُ فتأتي في المرتبةِ الثانيةِ بين الأشياءِ التي يفضّلُها. وقد جاء حبُّه لها مُرافقاً لصداقتِه للسيدة يشكي، وحبِّه لها.

والسيدةُ يشكي هذه سيدةٌ عجوزٌ سمينةٌ، ذاتُ نظاراتٍ سميكةٍ، وهي أرملةٌ يفصلُ بين بيتِها الواقعِ في الشارعِ المقابلِ، ومنزلِ والديه، منزلان.

تعرّف ليپّل إلى هذه المرأةِ، عندما أخطأ موزّعُ البريدِ، فوضعَ رسالةً لها في صندوقِ بريدِ والديه. فقام ليپّل بإيصالِ الرسالةِ إليها.

كان بابُ منزلِها مفتوحاً، فدخلَ ليپّل إلى المنزلِ، فوجدَ السيدةَ يشكي تتناولُ الحلوى بعد أن فرغت من تناولِ طعامِ الغداءِ. وكانتِ الحلوى هي الكرزُ المعلّبُ الحامضُ، ممزوجةً بقليلٍ من الكريما.

وقد طلبَ منها ليپّل أن تأذنَ له بأخذِ النقاطِ عن علبةِ الكريما، عندها دعتْهُ السيدة يشكي إلى تناولِ صحنٍ صغيرٍ من الحلوى، فأُعجِبَ ليپّل بالكرزِ إعجاباً لا حدودَ له، حتى تساءلتِ السيدةُ يشكي بشيءٍ من الدهشة:

- هل طعمُ الكرزِ عندي أطيبُ من الكرزِ في منزلِكم؟

- ليسَ في منزلِنا كرزٌ على الإطلاقِ. ردَّ ليپّل.

- ماذا؟ ألا تقومُ والدتُكَ بتحضيرِ الكرزِ؟ سألتهُ السيدة يشكي مجدداً.

- كلا. على الإطلاقِ! ردَّ ليپّل وهو يُخرجُ نواةَ إحدى حبّاتِ الكرزِ من فمِه، فلعلَّها لا تعرفُ كيف يتمُّ تحضيرُ ذلك.

ونظراً لأنَّ ليپّل قد لاحظ أنّه يمكنُ أن يتشكلَ لدى السيّدةِ يشكي انطباعٌ سلبيٌّ عن أمّه، أضافَ بسرعةٍ قائلاً:



- لكنها تستطيعُ أن تُفرّغَ التدفئةَ المركزيةَ الموجودةَ في المنزلِ من الهواءِ.

- وهذا أمرٌ ذو أهمية. ردّتِ السيّدةُ يشكي، وهما يتناولانِ الحلوى التي تقدّمُ في العادةِ بعد الفراغِ من وجبةِ الطعام.

منذ ذلك الوقتِ صار ليپّل يزورُ السيدة يشكي بين الحين والآخر. وكانت تفرحُ عندما تراه، فتعطيه علبةً من الفواكهِ المحفوظةِ أو بعضَ النقاطِ التي جمعتها، فقد صارت تجمعُ النقاطَ وتعطيها له.

ولعلَّ من الضروري أن نوضحَ أنَّ ليپّل لم يواظب على زيارتِها من أجلِ الفواكهِ أو من أجلِ جمعِ مزيدٍ من النقاطِ، بل لأنه ارتاحَ لها، وأحبَّ الحديثَ معها، مثلما أحبّتهُ هي، وأحبّتِ الحديثَ معه.

أما الكتبُ التي تقعُ في المرتبةِ الثالثةِ بين الأشياءِ التي يحبُّها، فقصّتُها على النحو التالي:

نظراً لأنّ ليپّل يحبُّ الكتبَ، فقد كان يقرؤها باستمتاعٍ. وكان يحبُّ القراءةَ أثناء السفرِ بالقطارِ، ويظلُّ يقرأ دون توقّف.

ونظراً لعشقِه للقراءةِ، صار يبقى وحيداً في أوقاتِ المساءِ، لأنّ المادةَ المقروءةَ تزدادُ، كلما انفردَ الإنسانُ بنفسه.

ونظراً لحبّه الاختلاء بنفسه، فقد أحبَّ ليپَل الحُجرةَ الخشبيّةَ الواقعةَ تحت الدرجِ في الطابقِ الأرضي، لأنها كانتِ المخبأَ الذي اعتادَ أن يلجأ إليه.

كانت عائلةُ ماتّنهايم تعيشُ في منزلٍ مستقلٍّ، كان يسكنُهُ جدُّ ليپَل وجدّته، قبل أن يقرّرا الهجرة إلى أستراليا. وكانت غرفةُ ليپَل تقعُ في الطابقِ الأولِ مقابلَ الدرجِ تماماً. وكانَ لبابِ غرفتهِ لوحٌ زجاجيٌّ حليبيُّ اللون، يستطيعُ والداهُ أن يعرفا، عندما ينظرانِ إلى غرفتهِ، إذا ما كانَ النورُ في غرفتهِ مضاءً أو غيرَ مضاءٍ، دون أن يتكبّدا مشقّةَ صعودِ الدَرجِ.

وعندما كان ليپَل يرغبُ، بعدَ الذهابِ إلى سريره، أن يقرأ ساعةً أو أكثرَ بقليل، كانت أمهُ تدخلُ إلى غرفتهِ، بعد حوالي خمسَ عشرةَ دقيقةً، وتخاطبُه بقولها:

ـ ليپَل، ليپَل! أما يزالُ الضوءُ مشتعلاً في غرفتك؟ عليكَ أن تنامَ في الحال! إن لديك مدرسةً في الصباحِ الباكرِ.

ثم تداعبُ شعرَه، وتنتظرُ حتى يضعَ كتابَه أسفلَ السريرِ، وتطفئُ النورَ، وتعودُ إلى الطابقِ الأرضي.

وقد حاولَ ليپَل أن يقرأ وهو راقدٌ تحتَ السريرِ، مستعيناً بالمصباحِ اليدويّ، لكنَّ ذلكَ لم يكن مُريحاً ولا ممكناً. فقد كان عليه أن يحملَ المصباحَ في يدٍ، والكتابَ في اليدِ الأخرى، وعندما ينتهي من قراءةِ إحدى الصفحاتِ، يعجزُ أن يقلِبَها لأنّ يديهِ مشغولتان.

لهذا فقد توصّلَ ليپَل في نهايةِ الأمرِ إلى ضرورةِ الذهابِ إلى المخبأ.

كانَ المخبأُ خزانةَ حائطٍ منحرفةَ الشكلِ، قام والدُه بتركيبها تحت

الدرجِ المؤدّي إلى السقفِ العُلوي. وكانتِ الخزانةُ تُستخدمُ مخزناً لكلِّ ما يعيقُ الحركةَ داخلَ المنزل، فكانت فيها العلبُ التي تحوي الزيتَ الخاصَّ بالدّهانِ، والعُبواتُ التي تحتوي الخيارَ المخلّلَ، والكرتوناتُ الفارغةُ، وصناديقُ شرابِ الليمون. وكانَ في داخلِ المخبأ إضاءة. وعندما كان ليپَل ينهضُ من سريره بحجّةِ الذهابِ إلى الحمّام (وهو يتأبّطُ كتابَه)، فإنه لم يكن يعودُ من الحمامِ إلى غرفةِ نومِه، بل يتسلّلُ إلى جهةِ اليسارِ، فيفتحُ بهدوءٍ بابَ الملجأ، ويضيءُ النورَ، ثمّ يجلسُ فوق قاربِه الجلديِّ الملفوفِ بانتظارِ فصلِ الصيفِ، ويغلقُ بابَ الملجأ من الداخلِ ويشرعُ بالقراءة.

وعند المساءِ يستمعُ إلى صوتِ والدِه قادماً من غرفةِ المعيشةِ وهو يخاطبُ أمّهُ بصوتٍ غيرِ مرتفع:

ـ النورُ مطفأٌ في غرفةِ ليپَل، يبدو أنه أخلدَ إلى النومِ. ثم يعودُ بعدها إلى غرفةِ المعيشة.



منذ ذلك الوقتِ وليبّل يُمضي أوقاتاً مُريحةً في هذا المخبأ. فقد كان يقرأ، ويشربُ في تلك الأثناءِ بعضَ زجاجاتِ عصيرِ الليمون (كانت الصناديقُ إلى جانبِ القاربِ الجلديّ، لذلك لم يجدْ عناءً في خدمته لنفسه).

وكان ليبّل يتمكّنُ من الذهابِ إلى سريره، قبل أن يتفقّد والداهُ غرفتَهُ للاطمئنان عليه، قبل أن يخلدا إلى النوم.

كان هذا المكانُ مَخْبأً لم يجرِ اكتشافه إلى اليوم، وإن كان أبوهُ قد أخذ يَعجبُ، لأنّه صار عليه أن يشتريَ صندوقَ ليمونٍ جديداً كل خمسةِ أيامٍ ويردّد في هذه الأثناء:

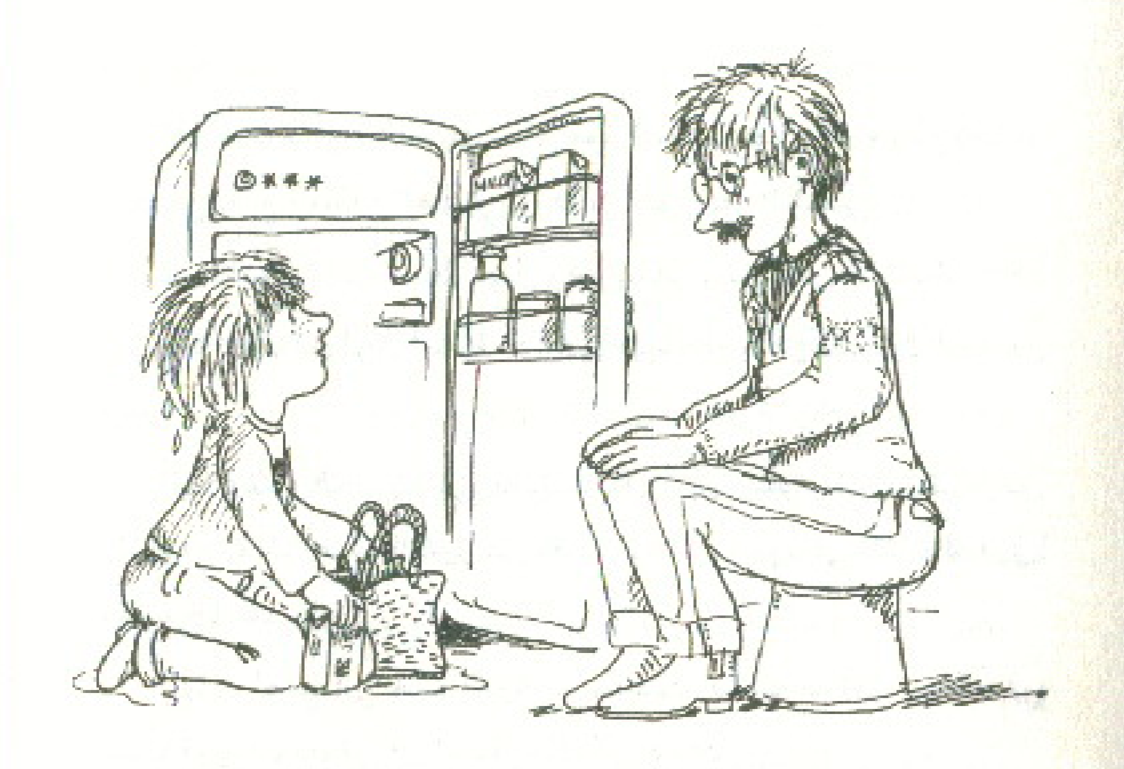
ثمةَ شيءٌ غيرُ مفهومٍ يحدثُ هاهُنا.

خطط السفر

في هذه اللحظةِ الزمنيّةِ تحديداً ـ التي كان الطقسُ فيها غيرَ مستقرٍّ، والتي تمكّنَ ليبّل في أثنائها أن يجمعَ ما يقربُ من الثمانينَ نقطةً (ثلاثٍ وسبعينَ نقطةً تحديداً)، وأن يكتشفَ المخبأ الموجودَ تحت الدرج ـ قرّر والداهُ أن يسافرا لمدة أسبوعٍ وأن يتركاهُ وحدَه، من أجلِ أن يذهبا وحيدَين إلى ڤيينّا، ويستمتعا بالرحلةِ إلى هناك، أو هذا ما كان يظهرُ له عندما كان يتحدّثُ مع والديه.

وكان والداهُ بالمقابلِ يحلفانِ بكل غالٍ ومقدسٍ، أنهما لا يفكّرانِ على هذا النحوِ، وأنّهما يشعرانِ بالحُزنِ لأنهما لا يستطيعانِ اصطحابَه.

وكان ليبّل يتصرّفُ وكأنه لا يصدّقُ كلمةً واحدةً مما يُقال. فإذا كانا غيرَ قادرَيْنِ على اصطحابِهِ إلى ڤيينا فلا أقلَّ أن يشعُرا بشيءٍ من تأنيبِ الضمير.



ثم سارتِ الأمورُ على النحوِ الآتي:

عاد ليبّل ذاتَ ظهيرةٍ من التسوّقِ وقد ابتلّت ملابسُه من المطر. وعندما شرعَ يضعُ عُبواتِ الحليبِ الثلاثَ داخلَ الثلاجةِ، كي يُفسحَ المجالَ لعُلبِ اللبنِ الثلاث، وعلبةِ الكريما الحامضةِ، دخل والدُهُ إلى المطبخِ بوجهٍ رزينٍ وخاطبَه قائلاً:

ـ تعالَ يا ليبّل. فهناك أمرٌ ينبغي أن أحدّثك بشأنه.

ـ هل تريدُ أن تتحدّثَ معي عن الحليب؟ سأل ليبّل. ثمّ أضاف: إنه ليسَ حامضاً، لكنه كثيفٌ نسبياً. وإذا نظرنا إلى العبوتينِ فإننا...

ـ عنْ أيّ حليبٍ تتحدّث؟ تساءل والدُه حائراً.

ـ حسناً. فهل تريدُ الحديثَ عن الخزانةِ الموجودةِ في غرفةِ المعيشة؟

قال ليپل.

ـ كلا. فأنا لا أريدُ الحديثَ معك حول الحليب. قال والدُه وهو يساعدُ ليپل في خلعِ معطفهِ المطريّ، ويعلّقُه على ظهرِ الكرسي.

ـ عن الليمونِ إذن؟ سأل ليپل وهو يشعرُ بشيءٍ من الارتياب.

ـ ليس عن الليمونِ أيضاً، بل عن ڤيينّا. أريد أن نتحدّثَ معاً عن ڤيينّا.

ـ أنا أفضّلُ الحديثَ عن بغداد، قال ليپل وهو يشعرُ بشيءٍ من الارتياح، فأنا أعرفُ الكثيرَ عن بغداد، وهذا موجودٌ في كتابِ الشرق. فالشيخ أحمد...

ـ ليپل.. إصغِ إليَّ هذه المرّة لو سمحت. هناكَ مؤتمرٌ سيُعقدُ في ڤيينّا قريباً. وينبغي أن تُسافرَ أمُّك إلى هناك.

ـ ما هو المؤتمر؟ تساءلَ ليپل.

ـ هناك يتحدثُ الناسُ عن أشياءَ مهمّةٍ، على الأقلّ في نظرِ والدتِك.

ـ هل سيكونُ الحديثُ عن الكنائسِ القديمةِ واللوحاتِ الزيتيةِ وما شابه ذلك؟

ـ تماماً.

ـ وهل ستتحدّثُ أمّي هي الأخرى؟

ـ أجل، ستتحدّث.

ـ وكم سيستمرُّ هذا المؤتمر؟

ـ أسبوعاً.

ـ حسناً. إذن ستكونُ وحدنا معاً طيلةَ الأسبوع. قال ليپل ثم أضاف: وهذا يعني أن استهلاكنا من الحليبِ سيكون أقلَّ من المعتاد.

ـ كلاّ يا ليپل. أتعلم...

ـ عفواً؟

ـ لقد قرّرتُ أن أسافرَ مع أمكَ إلى ڤيينّا. ردّ أبوه، ثم تنفّسَ الصُعداء.

ـ وماذا عنّي؟ تساءل ليپل وهو يشعرُ بالذُهول. ألن أرافقكما؟

ـ هذا غيرُ ممكنٍ للأسف. إنّ لديكَ دواماً مدرسياً.

ـ لكنّكما لا تستطيعانِ أن تتركاني هُنا أسبوعاً كاملاً وحيداً. ردّ ليپل غاضباً.

ـ هل تمزح؟ أجابَ أبوه. سيكونُ هنا شخصٌ وظيفتُه أن يعتنيَ بك ويرعاك.

ـ من هو هذا الشخص؟

ـ ما زلنا في طورِ البحثِ عنه، لكنّني أعدكَ أننا لن نسافرَ إلاّ إذا عثرنا على شخصٍ لطيفٍ يرعاك.

ـ لكنّكما لن تدعاني لمدةِ أسبوعٍ عند شخصٍ غريب. أجاب ليپل محتجّاً.

شعر الأبُ بشيءٍ من الحسرة، لكنّه قال:

ـ ألاّ تستطيعُ أن تستوعبَ ما قلتُه لك؟ إنني أرغبُ في أن أكونَ إلى جانبِ والدتك أثناءَ إلقائها لمحاضرتها.

ـ وأنا أحبُ أن أكونَ معها كذلك. ردُّ ليپل.

ـ هل تعلم، أنّني لم أزُرْ ڤيينّا من قبل؟

ـ وأنا كذلك لم أزُرها.

ـ صحيح. لكنّكَ ما تزالُ في العاشرة، وأنا في الثامنةِ والثلاثين. قال الأبُ ثم أضاف: فكّر بالأمرِ جيّداً. فلعلّكَ تعتادُ الأمر عندما تفكّر فيه.

- إطلاقاً. قال ليپّل وخرج من المطبخ.

وبعد بضعةِ أيام كرّرت أمُه المحاولةَ ذاتها.

- ليپّل. إنك ابني الكبير، وأنت فتىً ناضجٌ أليس كذلك؟

- إنكِ تقولينَ ذلك لأنك تريدينَ أن تتحدثي معي عن ڤيينا. ردّ ليپّل.

وكان ذلك صحيحاً.

- لقد قُمنا اليوم بالحجوزاتِ الخاصةِ بالسفر.

- أنا وأنت؟ إلى أين؟ سألها ليپّل.

- كلا! نحن: أي أنا وأبوك، قالت الأم. وسنسافرُ إلى المؤتمر في ڤيينّا، الذي سبقَ لأبيك أن حدّثك عنه.

- وماذا عنّي؟ سأل ليپّل وهو يشعرُ بالقلق. هل ستتركاني هنا وحيداً أعاني من الجوع؟

- سيأتي شخصٌ ما، ليطبخ لك ويرعاك في أثناء غيابنا عن المنزل. قالت الأم. وفوق ذلك فإنّك لن تجوع، ففي الثلاجةِ الكثيرُ من عُلبِ اللَبنِ الذي تأكلُ منه أربعَ علبٍ يومياً، وهذا يكفي ليُبقيك حيّاً.

- ومن الذي سيأتي إلى هنا لرعايتي؟

- في الجريدة التي يعملُ فيها أبوك، هناك سكرتيرة. ولهذه السكرتيرةِ شقيقةٌ، ولهذه الشقيقةِ صديقةٌ عاطلةٌ عن العمل، ستتولّى رعايتك وستأتي إلى هنا وتسكنُ معك.

- ببساطةٍ وبدونِ مقابل!

- كلا. سندفعُ لها بطبيعةِ الحال - ردّتِ الأم - سندعوها يومَ الأحدِ القادم لتناولِ القهوةِ معَنا، حتى تتعرّفَ إليها.

- ما اسمُها؟

- السيّدة يعقوب. قالت الأم. هل أنت موافقٌ على أن تجيءَ يومَ الأحد القادم؟

- لا أدري. ردّ ليپّل حائراً.

إنّ عليك أن تشتريَ يومَ السبتِ كميةً أكبرَ من المعتادِ من الكريما، قالت الأم وهي تضحك. فالكريما تكادُ تكفينا نحنُ الثلاثة. فإذا صرنا أربعة...

- حسناً، دعيها تأتي - ردَّ ليپّل - فسأقومُ برؤيتها.

وكان ليپّل في تلكَ الأثناءِ يتمنّى أن يعرفَ ما الذي ستقولُه السيّدة يشكي عن هذا كلّه. لكنّه كان متردداً بخصوصِ توجيهِ الأسئلةِ لها على نحوٍ مباشر، وقد ظلَّ يفكّرُ طيلةَ الوقتِ كيفَ يحكي لها عن الأمر. وأخيراً تمكّنَ ليپّل من العثورِ على حلٍّ، فهرولَ في الحالِ صوبَ المنزلِ الذي تسكنُ فيه السيّدةُ يشكي.

- يا سيّدة يشكي - قال ليپّل ذلك وهو يخاطبُها من على بوابةِ المنزل - سيّدة يشكي. هل أستطيعُ أن أسألكِ سؤالاً؟



- تسألني؟ تساءلتِ السيدة يشكي وهي تشعر بالدهشة. بالطبعِ تستطيعُ أن تسألني. اخلعْ معطفك المطريَّ المبلولَ، واجلس هناك بكل هدوء! عن أيِّ شيءٍ تريدُ أن تسألني؟

- سأسألك عن أحدِ الأطفال. ثم أضافَ سريعاً: لكنَّ هذا الطفلَ ليس طفلاً حقيقياً. إنّه طفلٌ متخيَّل.

- يبدو أن المسألةَ صعبة. قالت السيدة يشكي ثم أضافت: هل تريدُ أن تسألني عن لُغزٍ معيَّن؟

- ليس تماماً. قال ليهَل.

- إذن هيّا اسأل. قالتِ السيدة يشكي وهي تضغطُ، كالمعتادِ، على نظّارتِها، عندما تشعرُ بالتوتر.

سأل ليهَل:

- إذا كان لدى الأبِ والأمِّ طفلٌ، ويريدان أن يتركاهُ وحيداً. فهل يُحبّانه؟

- سيتركانه وحيداً؟

- أجل.

- آه. سيتركانِه في إحدى الغابات. أليس كذلك؟

- كلاً، كلاً. سيتركانه في المنزل.

- هكذا. لقد ظننتُ أنك تتحدّثُ عن قصةِ هانسل وغريتل. إنَّ الأمرَ يبدو أكثرَ تعقيداً مما ظننت. سيتركانه في المنزل إذن. هل سيتركانه في المنزلِ إلى الأبد؟

- كلا. لمدةِ أُسبوع.

- إلى أين سيذهبان؟

- إلى فيينّا لحضورِ أحدِ المؤتمرات.

- وهل سيتركانهِ دون أن يكونَ معه أحد؟

- لا. ستكونُ معه السيدة يعقوب.

- ومن تكونُ السَيدة يعقوب هذه؟

- إنّها شقيقةُ إحداهنّ، يعرفها أبي، أعني والدَ ذلكَ الطفل.

- إذا كانَ الأمرُ كما حدّثتني، أنا على ثقةٍ بأنَّ الأبَ والأمَّ يحبّانِ ابنهما. أجابتِ السيدة يشكي عن اقتناعٍ ثمّ أضافت: سيمرُّ الأسبوعُ سريعاً، وبإمكانِ هذا الفتى أن يزورَ صديقته كلَّ يوم.

- ليس عندَهُ صديقة. ردَّ ليهَل وهو يفكّرُ كيف استطاعت السيدة يشكي أن تعرفَ أن هذا الطفلَ شابٌ صغير.

- كنتُ أظنُّ أنه يعرفُ سيدةً عجوزاً تقطُنُ بجوارِهم.

- هذا صحيحٌ تماماً. قال ليهَل سعيداً. ثم عاد إلى المنزلِ منشرحَ الصدر.

السيّدة يعقوب تقدّم نفسها

ثمّ جاءَ عصرُ يومِ الأحدِ، وجاءتِ السيدة يعقوب معه. وعندما سلّمت أمسكت بيديْ ليهَل واحتفظتْ طويلاً بهما، حتى ظلَّ ليهَل مضطراً للوقوفِ أمامَها وهي تخاطبُه بقولها:

- هذا هو إذن فيليب الصغير. أنا واثقةٌ أنَّ العلاقةَ بيننا ستكونُ على ما يرام، وأن التعاملَ سيكونُ مريحاً. أنا سعيدةٌ جداً لأنني سأمضي الأسبوعَ المقبلَ في هذا المنزل. ثم تركتْ يديْ فيليب، وجَلَستْ، وشرعت تتأملُ الطاولةَ المعدّةَ لشُربِ القهوة. بعدها اتجهت صوبَ الأمِّ وقالت:

- يا للروعة! تَرى هل هي من صناعتِك أم أنّكِ قمتِ بشرائها؟ (وهنا كان حديثُها يدور عن قالب الحلوى).

- لا هذا ولا ذاك. أجابت والدةُ ليهَل، وهي تجلس إلى المائدة.

- لقد قام أبي بوضعِ القالبِ في الفرنِ وإنضاجه وأنا ساعدتُه في ذلك. قال ليهَل موضحاً ذلك بفخرٍ، فأردفت السيدة يعقوب بعد هذا قائلة:

- هذا رائع تماماً! (وكانت تنطقُ كلمة تماماً وكأنَّ على المرءِ أن يكتبها تماآاماً). جلس ليهَل قُبالتها، أيْ على الطرفِ الآخرِ من الطاولةِ، كي يتمكّنَ من مشاهدتِها.

كانت تبدو شبيهةً ببعضِ العرّافاتِ في التلفزيون؛ فقد كانت ترتدي بلوزةً خضراء، وتضعُ على عُنقِها منديلاً أخضرَ اللونِ، مُثبَّتاً بمشبك. وكان الحجَرُ الموجودُ في المشبكِ أخضرَ اللونِ كذلك، تماماً كلونِ الأقراطِ في أذنيها. أما شعرُها الأشقرُ فكان مُسرَّحاً بعناية. وقد بقيتْ جامدةً لا تكادُ تتحركُ، ولم يتحرك إلاّ جذعُها العُلوي. وعندما كانت تبتسمُ كانت أسنانُها تتراجعُ إلى الوراءِ، على نحوٍ غريبٍ، في فمِها، ولعلَّ ذلك يرجعُ إلى أنَّ أسنانَها العُلويةَ مائلةٌ بعضَ الشيءِ إلى الأمامِ. وهذا ما يفسِّرُ قلّةَ ابتسامِها.

لقد قدَّر ليهَل أنّها في سنِّ والدته. وقد تبيَّنَ له أثناءَ شُربِ القهوةِ، أنَّ لديها إضافةً إلى «تماآاماً»، تعبيراً آخرَ وهو «لا شكراً».

فقد قالت: «لا شكراً» عندما عرضَ عليها أبوهُ قطعةً من الحلوى، وقالتها عندما ناولَتها أمُّه وعاءَ السكّرِ، وكرّرتها مرّةً ثالثةً عندما نبَّهها ليهَل لوجودِ الكريما.

وفي النهايةِ استطاعَ أبوهُ أن يقنعَها بتناولِ قطعةٍ صغيرةٍ تماآاماً من قالبِ الحلوى. لكنّها لم تتناول الكريما، كما لاحظ ليهَل وهو يشعرُ بالأسى.

بعد أن شربوا القهوةَ، طافَ أبوهُ وأمّهُ ومعهما السيدة يعقوب بأرجاءِ المنزلِ وأوضحا لها ما يحويهِ المطبخُ من أدواتٍ وأجهزة.

كانتِ السيدة يعقوب تكرِّر «آه، نعم» من حينٍ لآخر، مثلما تقولُ كلمةَ «رائع» بين الفينةِ والأخرى. لكنَّ ملامحَ وجهِها كانت تشيرُ إلى أنّها لم تستوعبِ الكثيرَ مما يُقال.

كان والدُ ليهَل مغرماً بأدواتِ المطبخِ الفريدةِ، ويعاني من الضعفِ نحوها. وقد قالت له زوجتُه مازحةً ذاتَ مرّةٍ، إنّهُ سيبدِّدُ مالَه وهو يشتري أدواتِ الخلطِ الإيطاليةِ، وأجهزةَ العصيرِ الأمريكيةِ، وماكيناتِ تقطيعِ أدواتِ السلطةِ الكهربائية. ولو لم تكن تعملْ، لكانتْ أعلنت إفلاسَها منذ زمنٍ طويل.

وفي خاتمةِ المطافِ غادرتِ السيدة يعقوب المنزلَ، فشرعَ والدا ليهَل ينظرانِ إلى بعضِهما بارتباكٍ، ورانَ الصمتُ فترةً من الوقت.

- لا أدري، لا أدري... قالت والدةُ ليهَل قاطعةً الصمتَ المخيِّم.

- ما الذي لا تعرفينه؟ سألها ليهَل.

- إذا كانت هي المرأةَ المناسبةَ لرعايتِك أم لا. إنها امرأةٌ كثيرةُ التصنُّعِ. إنّها شبيهةٌ بعضَ الشيء... (وكانت تفتّشُ في تلك الأثناءِ عن التعبيرِ المناسب).

- بالخالاتِ في الأفلامِ الكوميدية. علّق ليهَل.

- إنّها غيرُ صادقةٍ بعضَ الشيء. أضاف الأبُ على الفور.

- صحيح، هذا ما يمكن قولُه. قالت الأم.

- ومن الواضح أنّه لا خبرةَ لديها في ما يتعلقُ برعايةِ الأطفال. قال الأبُ، ثم أضاف: وأخشى أننا لا نستطيعُ أن نقبلَ بها. إننا لا نستطيعُ ذلك يا ليهَل.

- هذا مؤكَّد. لكنّ من الصعبِ أن نعثرَ على امرأةٍ أخرى في هذا الوقتِ القصير. أضافتِ الأمُّ، وعلى وجهِها تبدو، في هذه الأثناءِ، معالمُ القلق.

- إذن فلن أُسافرَ معك. قال الأبُ بحزم، ثم أضاف: ومن يدري فلعلّنا نستطيعُ أن نسافرَ إلى ڤيينّا مرةً ثانية. وقد نتمكنُ نحن الثلاثةُ من قضاءِ إجازةٍ طويلةٍ هناك.

- كلا! لستُ محتاجاً إلى ذلك. ردَّ ليپَل.

تأمّلتِ الأمُّ ابنَها مشدوهةً.

- يمكنكما أن تسافرا مطمئنَّين. فأنا قادرٌ على التعاملِ معها. كما أنكما لن تغيبا إلاّ أسبوعاً واحداً. فضلاً عن أنني قادرٌ على زيارةِ السيدة يشكي، صديقتي. سافِرا معاً إلى ڤيينّا. فأنا لستُ طفلاً صغيراً على كلِّ حال. قال ليپَل ذلك بارتياح.

وداع

كان موعدُ سفرِ والدَيْ ليپَل في الساعةِ العاشرةِ، حيثُ يكونُ عادةً في المدرسة.

وقد استيقظَ الجميعُ في هذا اليوم مبكّرينَ عن الوقتِ الذي اعتادوا الاستيقاظَ فيه، كي يتمكّنَ أبوهُ وأمُّهُ من توديعه.

وقد حرصَ أبوهُ وأمهُ أثناءَ هذا الوداعِ على تزويدِ ليپَل بمجموعةٍ من التحذيراتِ والنصائح، وهو يأكلُ اللبنَ الذي اعتادَ أن يتناولَه في الصباح. وقد دسَّ ليپَل غطاءَ علبةِ اللبنِ في جيبِ بنطالِه، لأنه رأى أنّ من غيرِ المناسبِ أن ينشغلَ بجمعِ النقاطِ أثناءَ لحظاتِ الوداع.

وكانت غالبيةُ النصائحِ التي تلقّاها تتعلّقُ بضرورةِ تنظيفه

لأسنانِه، والاغتسال، ونظافةِ الملابسِ وما شابهَ ذلك. لكنّ ليپَل كان يؤمنُ أنّ عليهِ أن لا يُثقلَ ذاكرتَهُ بمثلِ هذه النصائحِ، فسرعانَ ما نسيَها.

لكنّ ليپَل أقرَّ أنّ هناك ثلاثةَ أمورٍ تستحقُّ الاهتمامَ في نظره:

النقودُ الموجودةُ في الصندوقِ الخشبيِّ الصغيرِ الموضوعِ فوقَ الخزانةِ للحالاتِ الطارئة، حصولُه على مصروفِه اليومي، واتصالُه بالفندقِ الذي يُقيمُ فيه أبوهُ وأمهُ في ڤيينّا في الحالاتِ الضرورية، حيثُ كُتِبَ رقمُ هاتفِ الفندقِ على قُصاصةٍ ورقيّةٍ وُضعَتْ بالقربِ من الهاتف.

أما السيدة يعقوب فستجيءُ إلى المنزلِ أثناءَ وجودِه في المدرسة، وستكونُ موجودةً بعد رجوعهِ منها، ولعلّها تكونُ قد أعدّت وجبةَ الغداء. هكذا كان الاتفاق.

في الختامِ عانقَهُ أبوهُ وأمهُ، وغادرهما ذاهباً إلى المدرسة.

الاثنين

الجُدُد

اعتاد ليبِّل أن يذهبَ إلى المدرسةِ وحيداً، ولم يكن ذلكَ سبباً للشعورِ بالانزعاج. فلم يكنْ أحدٌ من زملائِه يسكنُ في الشارعِ الذي يُقيمُ فيه. لكنّه تمنّى لو أنّ أحداً يُرافقُه، في هذا اليوم، أثناءَ الذهابِ إلى المدرسةِ ليتبادلَ معهُ الأحاديث.

لقد جعلتهُ لحظاتُ الوداعِ حزيناً، فسارَ ببطءٍ على امتدادِ الشارعِ الموصلِ إلى المدرسةِ، وكانَ يشعرُ بالإحباطِ والوَحْدة. لكنّه سرعانَ ما نسيَ تلك المشاعرَ المؤلمةَ عندما دخلَ إلى غرفةِ الصف.

ففي هذا اليومِ جاءتِ مربّيةُ الصَّفِّ السيدة كلوبي متأخِّرةً عن موعدِ الدرسِ ما يقربُ من عشرِ دقائق. ولم تجئْ وحدَها بل كانت تصطحبُ فتًى أسودَ الشعرِ وإلى جانبه فتاة. وكانَ ذلكَ في منتصفِ السنةِ الدراسية.

بقيَ الفتى والفتاةُ واقفين إلى جانبِ المعلمة، وهما يحدّقانِ في الأرضِ، بارتباك. نظرتِ السيدة كلوبي نحو التلاميذِ وانتظرتْ حتى هدأ الجميعُ وقالت:

ـ معي زميلانِ جديدانِ لكما. إنّهما شقيقٌ وشقيقتُه، وسينضمّانِ منذ هذهِ اللحظةِ إلى هذا الصفّ. ثم التفتتْ نحوَهما وقالت لهما: هل من الممكنِ أن يذكرَ كلُّ منكما اسمَه؟

اقتربتِ الفتاةُ من أخيها وهمست له شيئاً في أُذنِه، لكنَّ الفتى هزَّ رأسه وبقي ينظرُ نحو الأسفل.

كانَ الصفُّ ينتظرُ بشوقٍ، لكنَّ شيئاً لم يحدث. فقد بقي الفتى والفتاة صامتَين.

ـ حسناً. أستطيع أن أقرأ اسمَ كلِّ واحدٍ منكما. قالتِ المعلّمةُ بسرعة. ثم أضافت: وتستطيعان تصويبَ ما أقولُ إن أخطأتُ في القراءة. ثم وضَعتْ يدَها على كتفِ الفتى وقالت:

ـ هذا أرسلان. فحنى الفتى رأسَه. وهذه هي حميدة. فحنتِ الفتاةُ رأسَها كذلك، واستمرت تنظرُ إلى الأرض. بعدها قالتِ المعلّمةُ، وهي تفتشُ في هذه الأثناءِ عن المكانِ المناسب:

ـ والآن يتوجَّبُ علينا أن نجدَ لهما مكاناً ليجلسا فيه... فيليب أنت تجلسُ وحيداً على المقعد. تحرّكْ نحو اليمينِ، حتى يجلسَ أرسلان إلى جانبك. أما حميدة فستجلسُ إلى جانبِ أخيها حتى تترجمَ له ما يتعذّرُ عليه استيعابُه.

وبينما كان القادمانِ يجلسانِ إلى جانبِ ليبِّل، استأذنت إلفيرا وتساءلت بفضول:

ـ سيّدة كلوبي، هل الطالبان أجنبيّان؟



- إنّهما تركيّان. فقد ولد أرسلان في تركيا، أما حميدة فهي مثلُكم من مواليدِ ألمانيا.

- وهل هما توأمان؟ تساءلَ أولّي.

- كيف يمكن أن يكونا توأمين، إذا كان واحدٌ منهما قد ولدَ في تركيا والثاني في ألمانيا؟ إنّ أرسلان أكبرُ من شقيقتِه بعام.

- لماذا هما إذن في صفٍّ مدرسيٍّ واحد؟

- إنّ مستوى لغةِ أرسلان الألمانية هو دون مستوى لغةِ شقيقته حميدة.

- ولكن لماذا لا يتحدثُ الألمانيةَ على نحوٍ جيّد، إذا كان يكبُرها بعام؟ أرادت باربرا أن تعرف.

- لأنه لم يَمْضِ على وصوله إلى ألمانيا قادماً من تركيا إلاّ عامٌ واحد. وضّحتِ المعلّمةُ وقد كادَ صبرُها ينفد، ثم أضافت: إذا كان لديكم أسئلةٌ أخرى، فاسألوهما. ولكنْ ليسَ الآنَ بل في أثناءِ الاستراحة.

ثم بدأت تشرحُ الدرسَ وتوقّفَ الجميعُ عن طرحِ الأسئلة.

أخذَ ليپّل يتأملُ جيرانه، ثم سألَ أرسلانَ هامساً:

- ألا تفهمُ اللغةَ الألمانيةَ على الإطلاق؟ فاكتفى أرسلان بهزِّ رأسه. لم يستطع ليپّل أن يدركَ مدلولَ هذه الحركةِ، فأعادَ السؤالَ بصيغةٍ مختلفة:

- هل تفهمُ الألمانية؟

فحنى أرسلان رأسَه.

- ولكن لماذا تلتزمُ الصمتَ ولا تقولُ شيئاً على الإطلاق؟ سأله ليپّل مجدداً. عندها شرعَ أرسلان ينقّبُ في حقيبته المدرسيةِ وكأنه لم يستمع إلى السؤال.

- لماذا جئتُم إلى الصف في منتصفِ السنةِ الدراسية؟ تساءل ليپّل هامساً.

عند هذا السؤالِ أجابت حميدة:

- لقد انتقلَ أبي إلى هُنا بسبب العمل، وكان علينا أن نأتي معه. فلقد قدمنا من مدينة سندل فنجن(*).

- سندل فنجن؟ تساءل ليپّل.

- إنها قريبةٌ من مدينةِ بوب لنجن(*).

وعندما لاحظت حميدة أنّ حديثَها عن المدينتينِ لم يترك تأثيراً في نفس ليپّل أضافت:

- إنّ الحياةَ جميلةٌ هناك.

- أجل. ردّ ليپّل وأطرق أرضاً، مع أنه لم يكن يعرفُ أين تقع المدينتان.

بعدها انحنت حميدة نحو الأمام لتتمكّنَ من رؤيةِ ليپّل، لأن أرسلان كان يجلسُ بينهما. ثم سألته:



(*) تقع المدينتان في الجنوب الغربي لمدينة شتوتغارت وتبعدان عنها قرابة عشرين كيلومترا.

- ما اسمُك؟

- اسمي ليپَل. ردّ هامساً.

وكانت حميدةُ أولَ إنســانٍ لا يقولُ بعد سؤالِه عن اسمه: ما هذا الاسم؟ وهل تُدعى كذلك حقّاً؟ بل اكتفت بتكرارِ الاسم وحنت رأسَها، ووجدتِ الأمرَ عاديّاً.

بعد ذلك اتجهَ ليپَل إلى جارِه الذي يجلسُ إلى جوارِه وكرّر سؤالَه له:

- لماذا لا تتكلّم؟

فتصدّتْ حميدةُ مجدّداً للإجابةِ وأوضحت:

- إنّ أرسلانَ غاضبٌ، لأنّه غادرَ مدينة سندل فنجن. وهو لا يريد الانتقال إلى صفٍّ مدرسيٍّ جديد، بل إنه لا يريد أن يأتيَ في الأصل إلى... وهنا همسَ أرسلان لشقيقتِه باللغةِ التركية، وكانت نبرةُ حديثِه تنطوي على شيءٍ من التأنيب، فتوقّفتْ حميدةُ عن الكلام، ولم تتحدّثْ مع ليپَل مدّةَ ما قبل الظُّهرِ على الإطلاق.

بدأ ليپَل يفكّر، ورأى أنّ أرسلانَ قد لا يستطيعُ احتمالَه، فابتعد عنهما قليلاً وهو يشعرُ بشيءٍ من الاستياء، ولم يتحدّثْ مع الاثنين بعد ذلك.

وعندما انتهى الدرسُ قرابةَ الساعةِ الثانيةَ عشرة، مدّ أرسلانُ يدَه في جيبِه وأخرج منها ثلاثَ حباتٍ من السكاكر، فأعطى لحميدة حبةً، وأبقى حبّةً في يده، وناول الثالثةَ لجاره ليپَل.

- هل الحبّةُ لي؟ تساءل ليپَل وهو يشعر بالمفاجأة.

أطرق أرسلان، وأخذ يتأملُ بدقّةٍ كيف فتح ليپَل الورقةَ ووضع الحبّةَ في فمه.

- شكراً، إنّ طعمَها لذيذ. قال ليپَل وهو يمصّ الحبّة. أطرق أرسلانُ مجدداً ثم غادرَ غرفة الصف برفقةِ شقيقته.

تأمل ليپَل ورقة الملبّس. كانت تبدو عادية للوهلةِ الأولى: ورقةٌ حمراءُ وعليها نقاطٌ خُضر. لكنّ الخطّ كان مختلفاً، وهو لا يستطيعُ أن يقرأه. إنها كتابةٌ باللغةِ التركية، دون أدنى شك. بعدها طوى ليپَل الورقةَ بعنايةٍ ودسّها في جيبه. فهو لن يحصلَ على مثل هذه الحبّةِ كلَّ يوم، ولا على ورقةِ الملبس القادمةِ مباشرةً من تركيا.

طعام الغداء مع السيدة يعقوب

فوجِئَ ليپَل بعد عودتِه من المدرسةِ إلى المنزل، بسماعِ صوتٍ يتحدّث من غرفةِ المعيشة. فهل تراجعَ والداه عن فكرةِ السفر؟

اندفعَ نحو بابِ الغرفةِ وفتحه، فشاهدَ السيدة يعقوب تتحدثُ بالهاتفِ وهي جالسةٌ على إحدى الكنبات.

كانت السّيدةُ تصفُ غرفةَ المعيشةِ في منزلِ عائلة ماتّنهايم:

- أربعُ كنباتٍ، وأريكةٌ جلديةٌ قديمةٌ، لا تتناسب على الإطلاق مع الأثاث.. ورقُ الجدران؟ ليس لديهم ورقُ جدرانٍ على الإطلاق. صحيح، ليس هنا إلاّ جدرانٌ بيض، عليها لوحاتٌ مجنونةٌ تمـاااماً. ليس لديهم أشياءُ عصريةٌ، وليس عندهم ستائر. تخيّلي يا أمّي: لا يوجد ستائرُ على الإطلاق في المنزل... هذا مؤكّدٌ تمـاااماً.

- لكنّ الستائرَ تجعلُ الغرفةَ مظلمةً. أجاب ليپَل من على الباب (وهو ما اعتادت أمّه أن تقوله).

ركضتِ السّيدة يعقوب فزعةً نحو الباب.

- آه، هل عدتَ يا فيليب؟ سألتْ وهي تفتعلُ الابتسام، بينما كانت تضعُ يدَها فوق سمّاعةِ الهاتف.

ـ اذهب إلى المطبخ وارفع الغطاءَ عن الطنجرة. قالتْ له بصيغةِ الأمر، ثم أضافت: سـأتي حـالاً، فالطعامُ جاهز.

ذهب ليبّل إلى المطبخ، بينما ظلّتِ السيدة يعقوب تواصلُ مكالمتَها الهاتفية.

ـ إنّ عليّ أن أتوقفَ الآن توقفاً تاااماً يا أمّي، فقد عادَ الفتى إلى المنزل.

سمع ليبّل كلامَها عن بُعد، لكنّ والدةَ السيدة يعقوب، لم تكن، على ما يظهر، ميّالةً لإنهاءِ المكالمة، فقد ظلّتِ السيّدة يعقوب تضع سمّاعةَ الهاتف على أذنها وتردّ: نعم يا أمّي، كلاّ يا أمي.

وضع ليبّل صحنَيْنِ على المائدة، ووضع أدواتِ الطعام إلى جانب كل صحنٍ، وجلس على كرسيّه ينتظر.

كان صدى إجاباتِ السيدة يعقوب يتردّدُ من بعيد، فقد ظلّت تكرّر: «نعم يا أمّي، كلاّ يا أمّي».

لم يكن ليبّل يعرف نوعيةَ الصحونِ التي ينبغي أن توضعَ على المائدة، لأنّ السيدة يعقوب لم تخبره عن نوعيةِ الطعام الذي أعدّته.

لهذا نهض واتّجهَ نحو الفرنِ الكهربائيّ، ليستطلعَ ما الذي قامت السيدة يعقوب بطهوه.

كانت الطنجرةُ الأولى مليئةً بالمعكرونةِ العريضةِ في ماءٍ يغلي.

ـ لا بأس. همس ليبّل.

لكنّه عندما تأمّل الطنجرةَ الثانية، أُصيبَ بالذُّعر، فقام على الفور بإغلاقها: لقد كانت مليئةً بحساءِ البندورة!

حساءُ البندورة، ذلك الطعامُ الذي لم يخترعِ العقلُ الإنسانيُّ طعاماً أكثرَ منه قُبحاً ورداءةً وبشاعةً وابتذالاً!

استدار ليبّل وهو مملوءٌ بالغضب، وقام من على كرسيّه في المطبخ واتجه صوب المرحاض. بقي ليبّل واقفاً خلفَ البابِ معتقداً أن السيّدة يعقوب ستناديه من وراء البابِ المُقفل (كما تفعل والدتُه)، وسيرفضُ الخروجَ، كي يدلّلَ على ما يعانيهِ من ألم.

بقي هناك حوالي ربع ساعة، دون أن يناديهُ أحدٌ، فخرج بعد أن شعرَ بالملل، وقبل الخروجِ ضغطَ على أداة تنظيفِ المرحاض، وغسل يديهِ وعاد إلى المطبخ.

كانت السيدة يعقوب جالسةً إلى مائدةِ الطعام. وكانت قد أزاحت صحنَها وبدأت تأكلُ شيئاً شاحبَ الحُمرة من إحدى العُلب.

كانتِ المعكرونةُ موضوعةً في أحدِ الصحونِ على الطاولة وإلى جانبِها صحنٌ مليءٌ بالسلطة، وصحنٌ آخرُ مليءٌ بحساءِ البندورة.

ـ ها قد عُدتَ أخيراً. قالت السيدة يعقوب على سبيل التحيّة، ثمّ

أضافت: شهيّةً طيّبة. هل غسلتَ يديك بالصابون؟ لكنّ ليپّل ردّ بصوتٍ مملوءٍ بالتأنيب:

- أهذا هو حساءُ البندورة؟ ثم أضاف: ألم يُخبرك أبي أننا جميعاً لا نُحبُّ هذا الحساء؟

- بلى. لقد أخبرَني. ردّتِ السيدة يعقوب. لكنّ هذا ليسَ حساءَ البندورة، إنها صلصةُ البندورة.

- إنّهما طعامٌ واحدٌ في نهايةِ المطاف. ردّ ليپّل غاضباً.

- لو أنّهما طعامٌ واحدٌ كما تدّعي، لما كان لهما تسميتان مختلفتان. ردّتِ السيدة يعقوب وهي تملأ صحنَها بالمعكرونةِ ثم أوضحت: إنّ الأولى حساءٌ والثانيةَ صلصة. أليس كذلك؟ ثم تقدّمت نحو صحن ليپّل ومعها ملعقةٌ كبيرةٌ مملوءةٌ بحساءِ البندورة، وهي تريد أن تسكبَها فوق صحنِ ليپّل المملوءِ بالمعكرونة. فصاح ليپّل:

- لا، لا تفعلي! وأزاح صحنَه بعيداً.

- فيليپ! هذا سلوكٌ غيرُ مؤدبٍ تماااماً. فقد كنتُ على وشكِ أن أسكبَ الصلصةَ فوق مفرشِ الطاولة. أعطني صحنَك!

- كلاّ. لا أستطيع. قال ليپّل وهو مملوءٌ بخيبة الأمل، ثم أضاف: لا أستطيعُ تناولَ هذا الطعامِ على الإطلاق.

- إذن، فقد كان طهوي للطعامِ بلا معنى. ردّتِ السيدة يعقوب وهي تشعر بالإهانة، ثم أضافت: يا لها من بداية! أنت ترفض أنْ تأكل، وسيتّهمُني والداك بأنني تركتُكَ تتضوّرُ جوعاً.

- أستطيع أن آكل طبقَ المعكرونةِ، مع كميّةٍ كبيرةٍ من السلطة. اقترح ليپّل.

وهنا نظرتْ إليه السيدة يعقوب وهي لا تشعر بالرضى عن هذا



الاقتراح. لهذا ملأ ليپّل طبقَهُ بالمعكرونةِ البيضاءِ وأضاف إليه كومةً من السلطة وبدأ يأكل.

لكنّ ليپّل لم يستطعِ ابتلاعَ اللقمةِ الأولى، وبقيتِ السلطةُ الخضراءُ في فمه، لأنّ السيدة يعقوب قد اضافتِ الكثيرَ من السكّرِ إلى نكهةِ السلطة، فكان طعمُها واضحَ الحلاوة.

وقد مضغَ ليپّل اللقمةَ الأولى من السلطةِ طويلاً، ثم أقدمَ بعد صعوبةٍ على ابتلاعِها بشجاعة.

- هل تسمحينَ، هل تسمحينَ لي بأنْ أغسلَ صحنَ السلطة؟ سأل ليپّل بحذر.

- تغسلُ السلطة؟ ردّتِ السيدة يعقوب، وهي تفكّرُ مليّاً إنْ كانتْ قد سمعتْ ما قيل لها على نحوٍ دقيق. هل تريدُ أن تقولَ إنني امرأةٌ غيرُ نظيفة؟

- كلاّ، كلاّ. ردّ ليپّل بسرعة، وأوضح قائلاً: إنّ طعمَها غريبٌ، وأنا غيرُ معتادٍ على هذا الطعم! إنّ مذاقَها حلوٌ تماماً.

ـ هذا يرجعُ إلى السكّر. أوضحت السيِّدة يعقوب ثم سألته: ألا تصنعون نكهةَ السلطةِ من الخل والسكر؟

ـ لا، إطلاقاً. إنّ مذاقَ السلطةِ عندنا حامضٌ دائماً. أكّد لها ليبِّل.

ـ حسناً، ستكون السلطةُ في المرةِ القادمةِ حامضةَ المذاق. لكنّني لن أسمحَ لك أن تقومَ بغسلها، فهذا جنون. ثمّ إنك تبدو لي ولداً مدلّلاً، عصيّاً على الإصلاح. لا! لن نستطيعَ التفاهمَ إنْ بقيت على هذه الشاكلة. فأنا لا أستطيعُ أن أطهوَ صنفينِ من الطعامِ أو ثلاثةَ أصناف، لأنّ هذا الشابَّ الصغيرَ لا يستطيعُ أن يأكلَها! فإذا كانتِ الصلصةُ لا تناسبك والسلطةُ لا تعجبك، فعليك أن تأكلَ المعكرونة. أم ترى يتوجّبُ عليك أن تغسلَها هي الأخرى، لأنكم تأكلونها دون ملح؟

لم يُحرِ ليبِّل جواباً، ولم تنتظرِ السيدة يعقوب منه أن يُجيب. لكنّه اكتفى بأن أزاح بالملعقةِ السلطةَ المكوّمةَ فوق المعكرونةِ، ونقلها إلى طرفِ الطبقِ وبدأ يأكل المعكرونة. وكانت السيدة يعقوب قد شارفت على تناول ما في علبتها الصغيرة من طعام.

ـ ماذا تأكلينَ يا ترى؟ إنّ هذا ليس صلصةَ البندورة. قال ليبِّل وهو ينتقي المعكرونة من طبقه باستياء.

ـ إنني آكل اللبن: اللبن مع التوت، واللبن مع التفاح. وقد مزجتهما معاً، إذا أردت أن تعرف ماذا آكل على وجه الدقة. ثم أضافت: إنّ عليَّ الانتباهَ إلى قوامي، على العكس منك. فالمعكرونة تسبّب السُّمنة.

ـ هل أخذتِ اللبنَ من ثلاجتِنا؟ أراد ليبِّل أن يستفسر.

ـ بالطبع. لماذا؟ هل من غيرِ المسموحِ أن آخذَ اللبنَ من الثلاجة؟ تساءلت السيدة يعقوب.

ـ وماذا فعلتِ بأغطيةِ العُلَب؟ تساءل ليبِّل وهو في قمّةِ التوتر.

ـ أيّةَ أغطيةٍ تعني؟ سألت السيدة يعقوب.

ـ أغطيةُ عُلبِ اللّبن. إنني بأمسّ الحاجة للنقاط. صاح ليبِّل.

ـ أيّةُ نقاط؟

ـ نقاط التجميع التي توجد فوق الغطاء. أين هي الأغطية؟

ـ آه. أنت تعني سدّاداتِ عُلبِ اللبن؟ إنّها في سلة المهملات. أنا آسفة فأنا لا أعلم أنّ فوقها نقاطاً.

ترك ليبِّل طعامه، وهُرع صوب سلّةِ المهملات وأخذ يفتّشُ بين النفاياتِ عن الأغطيةِ التي توجدُ فوقها نقاطُ التجميع.

ـ ماذا تفعل هناك؟ يا للقذارة! هل أنت مجنون؟ صاحت السيدة يعقوب، وقد هُرعت نحوه، محاولةً إبعادَه عن سلّة المهملات.

كان ليبِّل قد عثر في تلك الأثناء على الغطاءين، وكانا ملتصقينِ بالعبوة التي كانت تحوي المعكرونة، فقام ليبِّل بانتزاعهما ودسِّهما في جيبه على الفور، قبل أن تتمكّنَ السيدة يعقوب من الحصول عليهما.

ـ فيليب، ارمِ النفاياتِ في الحال! صاحتِ السيدة يعقوب بتوتّر.

ـ إنّها ليستْ قُمامة. حاول ليبِّل أن يوضّح لها. إنّها في الواقع...

ـ لا تعترض! أفرغ ما في جيوبك حالاً! قف مكانك! ولا تتحرك والقذارةُ في جيبك!

مدّ ليبِّل يده في جيبه واستخرج ما كان فيها من أشياء، كان يحتفظ بها: غطاءُ علبةِ اللّبن التي تناولها في الصباح، وما عليها من نقاط، وورقةُ الملبّس التي كان أرسلان قد أعطاها له، وغطاءَ العلبتين اللتين استخرجهما من القمامة. وبدلاً من أن تدعه يقوم

بفصل الغطاءين قامت السيدة يعقوب بانتزاع كلّ ما في راحةِ يده، ثم مزّقتهُ وكوّرتهُ ورمت به في سلّة المهملات.

ـ والآن اغسل يديك وأنت مكانك، هل تسمعني؟ يا إلهي، إنّ هذا أمرٌ مقزّز! أين الصابون في المطبخ؟ وكان وجهها قد احمرّ جرّاء الإثارة والتوتر.

ـ يا لها من وقاحة! صاح ليبّل في الوقت نفسه. لقد رميتِ في سلة القمامة بكل شيء؛ فقد كان في جيبي ورقةُ الملبسِ التركية، ونقاط العلبةِ التي تناولتُها في الصباح. لم يكن كلُّ شيءٍ قذراً. لقد أضعتِ عليّ ثلاث نقاط. ثلاث نقاط!

ـ هيّا اغسل يديك، واغسل أصابعك. قالت السيدة يعقوب وهي تدفع ليبّل إلى حوضِ الجلي الخاصّ بالمطبخ، وتفتح صُنبورَ الماء بأصابعها، وتغسل يديها. بعد ذلك أمسكت، وهي تشعر بالغثيان، بيدي ليبّل، وكانت حذرةً تماااماً، حتى لا تنتقلَ البكتيريا إليها، فوضعتهما أسفلَ صُنبورِ المياه، ولم تهدأ إلاّ بعد أن جرى الماء فوقهما.

ـ أيُّ جراءٍ قذرةٍ هم هؤلاء الأطفال! قالت السيّدة يعقوب وهي ترتجف غضباً، وكانت في تلك الأثناء تقوم بتنشيف يديّ ليبّل بفوطةِ التنشيفِ الخاصةِ بالجَلي. ثم قالت:

ـ والآن يمكنك أن تجلسَ وتتناولَ طعامَك! ثم أضافتْ بقدرٍ من التسامح: يمكنك أن تضعَ بعضَ الزبدةِ أسفلَ المعكرونة، حتى لا تظلَّ جافّةً.

ـ لا. شكراً. لم أعُدْ أشعرُ بالجوع. ردّ ليبّل الذي تركَ السيّدة يعقوب وحدَها في المطبخ وصعد إلى غرفته واستلقى فوق السرير.

وضع ليبّل يديه تحت رأسه، وأخذ يحدّقُ في سقف الغرفة:

ـ لقد أضاعت ثلاثَ نقاطٍ ورمت بها في سلّةِ المهملات.

كان يشعرُ بالغضبِ الكبير، فقرّر أن يذهبَ عند العصرِ إلى السيّدةِ يشكي، ويحكيَ لها كلّ شيء. فلا شكّ أنّها ستتفهَّمُ مشاعرَه، فهي الأخرى تجمع النقاط، وتعرف طولَ المدةِ التي يحتاجُها المرءُ ليتمكّنَ من جمع مئةِ نقطة.

لُقْيةٌ على غير توقُّع

استطاعت فكرةُ الذهابِ إلى السيّدة يشكي أنْ تهدّئَ من روع ليبّل، فتراجع غضبُه قليلاً، وأخذ يشعرُ بالأسفِ لأنّه لم يتناولْ طبقَ المعكرونة.

اضطجع ليبّل على جانبه، فسمعَ صوتَ حفيفٍ تحت غطاءِ السرير، رفعَ الغطاءَ فوجد على أعلى المخدّةِ قُصاصةَ ورقٍ كُتب عليها:

«مرحبا يا ليبّل. مساء الخير».

كان ذلك خطُّ والده دون أدنى ريب. إنّها رسالةٌ من أبيه! كان من المؤكد أنّه سيعثرُ عليها في المساء، عندما يذهبُ إلى سريرِه لينام.

أمّا وقد عثرَ عليها الآن، فلا بأس، إذا ما قام بقراءتها. فاستمر يقرأ وهو يشعر بالإثارة:

«ترى كيف مضى اليومُ الأوّلُ بدوننا؟ من المؤكّد أنّه ليس رديئاً، مثلما كنتَ قد تخيّلت».

ـ أتعرفُ ما حلّ بي؟ همسَ ليبّل وواصل القراءةَ، فقد كانت القصاصةُ تحتوي على جملة أخرى:

«إنني أُراهنُ أنك تتأملُ المزهريةَ في هذه اللحظة!».

لا تحيّةَ ولا وداع. غريب! عن أيّ مزهريةٍ يتحدّث أبي؟ ولم يكن

غيرُ مزهريةٍ واحدةٍ في غرفة ليپّل، موضوعةً على حافةِ النافذة.

قفزَ ليپّل من على السرير، وتناول المزهريةَ من على حافةِ النافذةِ وقلَبها، فسقطت من داخلِها قُصاصةٌ ملفوفةٌ، فقام ليپّل على الفورِ بفتحِها، كي يتمكّنَ من قراءةِ ما في داخلِها:

«تُرى هل ربحتُ الرهان؟ أمّا وجبة «تصبح على خير» فستعثر عليها في جيب روبِ الحمّام الخاص بك. بعدها قم بتنظيفِ أسنانك! بالمناسبة هل لاحظت لماذا صارت غرفتُك أكثرَ ظلاماً من ذي قبل؟؟ تصبح على خير. أبوك».

فتش ليپّل في جيب روب الحمّام، فعثر على قطعةٍ صلبةٍ، مربعةِ الأبعادِ من الشوكولاته، فقام باستخراجها. كانت شوكولاته بالحليب مملوءةً بالبندق، وهي الشوكولاته التي يفضّلُها!

أخرج الشوكولاته من الورق الفضيِّ الملفوفةِ به، ووَضع في فمه مربعاً من تلك القطعة. ثم تمدّد على السرير من جديد، دون أن يشعر هذه المرّة بالغضبِ، بل على العكسِ من ذلك شعر بشيء من الارتياح.

ترى ما الذي كان يعنيه والدُه بأنّ غرفتَهُ صارت أكثر ظلاماً من ذي قبل؟

لقد كانتِ الغرفةُ مملوءةً بالإضاءةِ تماماً، كما هو الحالُ في فترةِ ما بعدَ الظهر.

لكنّ الرسالةَ هذه مكتوبةٌ لكي تُقرأ عند المساء. عندها ستكون الغرفةُ مظلمةً، ويكون المصباحُ الكهربائيُّ قد أُضيئ.

قفز ليپّل مجدداً من على السرير، وهزَّ غطاءَ المصباح. كان المصباحُ الكهربائيُّ معلّقاً على نحوٍ يشبه غطاءَ العلبةِ المفتوحة.



كان في داخلِ العلبةِ شيءٌ أسودُ مُربعُ الشكلِ، يمكن للمرءِ أن يراهُ بوضوحٍ عندما يُضيءُ المصباح.

صعد ليپّل فوق طاولةِ الكتابةِ وأمسكَ بغطاءِ المصباحِ من الأعلى، فشارف على أن يُمسكَ بذلك الشيءِ الذي قام أحدُهم بإخفائه هنا. كان ذلك الشيءُ كتاباً أو كتابَ جَيْبٍ كما يُسمَى، وعنوانُه: «حكايات من ألف ليلة وليلة». وكانت صورةُ الغلافِ تعِدُ بحكاياتٍ مملوءةٍ بالمتعةِ والإثارة: فعلى الغلافِ صورةٌ لرجالٍ في أزياءٍ شرقيةٍ أثناء رحلةِ صيد.

استلقى ليپّل للمرّةِ الثالثةِ فوق السرير، ووضع في فمه باستمتاعٍ قطعةً كبيرةً من الشوكولاته، وشرعَ بتقليبِ الكتاب. سقطت قصاصةُ ورقٍ من داخلِه، وكانت بخطِ والدِه هذه المرّة:

«عزيزي ليبّل. هذا الكتابُ من أجلِ أن تقرأ فيه. وقد بحثتُ طويلاً حتى تمكّنتُ من العثورِ على شيءٍ شرقي، آملةً أن ينال إعجابك. لكن عليك أن تعدَني بقوّة، أنك ستطفئُ النورَ في غرفتك بعد نصفِ ساعة. مُوافق؟».

- طبعاً. سأتقيّدُ بذلك. قال ليبّل وهو يضحكُ بسعادة، ثم أردف قائلاً: أعدُ بقوّةٍ أنني سأطفئُ النورَ خلالَ نصفِ ساعة. فالمصباحُ الكهربائيُّ ما يزالُ إلى الآنَ مضاءً، وسأقومُ بعد نصفِ ساعةٍ لإطفائه، ثم أستلقي وأقرأ حتى المساء.

«جميلٌ أن تتقيّدَ بذلك. أتمنّى لك نوماً سعيداً. ولك من أمّك ألفَ قبلةٍ وقبلة». هكذا كانت خاتمة الورقة.

أعاد ليبّل القصاصةَ إلى داخلِ الكتاب، وتناولَ قطعةً أخرى من الشوكولاته ودسّها في فمه، وشرع يُقلّبُ الكتاب.

لاحظ أنّ الكتابَ مليءٌ بالحكايات، وأنّ شهرزاد هي التي تحكيها. كما لاحظ أنها تنتهي جميعاً بجملة «ثم أدرك شهرزادَ الصباح فسكتتْ عن الكلام المباح». وهذا يسري على جميع الحكايات.

أما عناوينُ الحكاياتِ فمثيرةٌ وواعدةٌ بقصصٍ ممتعة:

«حكاية ملكة الأفاعي» أو «حكاية البحّارِ سندباد» أو حكاية «مكر النساء» أو عن «الملك وابنه»...

قرّر ليبّل أن يبدأ بحكاية ملكةِ الأفاعي، فدسّ قطعةً من الشوكولاته في فمه، واستلقى فوق السرير، واضعاً رأسَه فوق المخدّة. وهذا يعني أنّه سيبدأ بالقراءة، لكنّ بابَ غرفته مفتوحٌ، ويمكنُ للسيدة يعقوب أن تراه.

- يا للمصيبة! قال غاضباً ثم شرع يخاطبُ نفسه: الآن صرتُ أعرف لماذا لا تشعرُ بالجوع. فأنت لا تستطيعُ أن تتذوّقَ حساءَ البندورة،

أما السلطةُ فكانت حلوةَ المذاق، في حين كانت المعكرونةُ مالحةً جداً. الشوكولاته وحدها هي الرائعةُ المذاق. لهذا لم تحتج إلى طعام الغداءِ بطبيعةِ الحال، وتستطيعُ أن تظلّ واقفاً في المطبخ لساعاتٍ طويلةٍ وأنت تطبخ.. بعد ذلك جلس ليبّل على السرير ووضعَ الكتابَ جانباً. كان يبدو منزعجاً، ويشعرُ كأنّ أحداً ضبطه مُتلبّساً. لقد كانت الشوكولاته مخصّصةً للمساء. فكيف سيفسّرُ هذا الذي حدث؟

- ولكنْ لماذا تدعُ النورَ مشتعلاً في وضحِ النهار. إنّ النور في أرجاء المكان. فلماذا هذا الهدرُ للطاقة؟ قالت السيدة يعقوب ذلك وهي تُطفئُ النور.

- لقد كان يتوجّبُ عليّ أن أطفئَ النور، هذا صحيح. قال ليبّل ذلك وهو يعتذرُ ثم أضاف: لقد وعدتُ أن أطفئَ النورَ خلال نصفِ ساعة.

- وعدْت. تساءلتِ السيدة يعقوب ثم أضافت: وعدتَ من؟

- لقد وعدتُ والدتي.

- ماذا وعدتَها؟

- وعدتُها أن أطفئَ النورَ خلال نصفِ ساعة. ردّ ليبّل محاولاً إيضاحَ الأمر.

- أتريدُ أنْ تهزأ بي؟ قالت السيدة يعقوب غاضبة: أيّها الشابُّ العزيز، لقد جئتُ إلى هنا بكثيرٍ من النوايا الحسنة، مع أنّ والديك لم يدفعا لي مبلغاً كبيراً. لكنّني لن أسمحَ لطفلٍ مدلّلٍ أن يضحكَ عليّ. أعطني الكتابَ في الحال، واجلس على طاولتك. فقد وعدتُ والديك أن أهتمّ بواجباتك المدرسية، وكان ذلك وعداً حقيقياً، وليس وعداً مُخترعاً. أتفهمني؟

- أنا لم أخترع وعدي، كنتُ أعني... أكّد ليبّل.



ـ توقّف عن الحديث، وأعطني الكتابَ وقُم! قاطعته السيدة يعقوب.

ـ هل تسمحين ـ هل تسمحين لي بأن أحتفظَ بالكتاب؟ لن أقرأ فيه. سأضعُه تحت المخدَّةِ، وعندئذٍ سيختفي. كان ليبِّل يتحدثُ بسرعة، وبعد ذلك قام بتخبئةِ الكتابِ تحت غطاءِ السرير.

ـ مُوافقة. أجابتِ السيدة يعقوب بحنان. ما هي واجباتُك لهذا اليوم؟

ـ الرياضيات واللغة الألمانية.

ـ إذن، هيّا ابدأ بتحضير الواجبات!

قفز ليبِّل عن السرير، وجلس إلى مكتبه، وتناولَ حقيبتَهُ المدرسية عن الأرضِ وبدأ يفتشُ عن دفتر الرياضيات.

بقيت السيدة يعقوب إلى جانبه وهو يفتحُ الدفترَ على مَضضٍ، ويتناولُ القلمَ من الحافظةِ ويشرعُ بالحساب.

ـ سأراجعُ النتائجَ في ما بعد. قالت السيدة يعقوب بعد فترةٍ وغادرتِ الغرفة.

حلّ ليبِّل مسألتَينِ حسابيّتينِ دونَ رغبة. بعدها تسلَّلَ نحو البابِ وأرهفَ السمعَ، فلم يسمع للسيدة يعقوب أيةَ حركة. فتح البابَ بحذرٍ، فسمع صوتَها في الطابق السفليّ وهي تُجري مكالمةً هاتفية.

استخرجَ ليبِّل كتابَه من تحتِ المخدّةِ، وجلسَ إلى مكتبهِ الدراسي. وعندما تأمّلَ الأمرَ بدقّةٍ، تبيّنَ له أن حكايةَ مكرِ النساءِ أكثرُ مناسبةً لمقتضى الحال من ملكةِ الأفاعي. صحيحٌ أنّه لا يعرفُ مدلولَ كلمةِ



مكر، لكنّ هذا المدلولَ ليس إيجابياً في كل الأحوال. عثر على الحكايةِ في الليلةِ الثامنةِ والسبعينَ وخمسِ مئةٍ وبدأ يقرأ:

«كان يعيشُ في قديمِ الزمانِ وفي سالفِ العصرِ والأوانِ، ملكٌ كان له على رعيَّتهِ عظيمُ السلطانِ، وكان كثيرَ الجنودِ، يقفُ الحرسُ بين يديهِ كالسُّدود. وكانت له الهيبةُ والجلالُ، مع حسنِ الفعالِ وكثرةِ المالِ. لكنّ الملكَ أمضى من حياتهِ السنينَ الطوالَ، دون أن يرزقَهُ اللّهُ بنجلٍ من الأنجالِ. وهنا...» في هذه اللحظةِ فُتح البابُ، ودخلتِ السيِّدة يعقوب بسرعة. دسّ ليبِّل الكتابَ بسرعةِ البرقِ في حقيبتهِ المدرسيةِ، لكنها كانت قد شاهدته.

وضعتْ يديها على خصرِها، وانحنتْ عدة مرّاتٍ (وكانت تريدُ عبرَ هذه الحركاتِ أن تُعبِّرَ أنّ هذا الذي تخيّلتهُ يحدثُ بدقّة). ثم قالت:

ـ أنت لم تحافظ على الثقةِ التي منحتُكَ إيّاها. ثم مدّت ذراعَها وقالت باختصار: هاتِ الكتاب.

فأعطاها الكتابَ بتردُّد.

ـ لن تقرأ اليومَ حرفاً واحداً في هذا الكتاب. كُن واثقاً من ذلك!

قالت ذلك بوجهٍ عابسٍ وهي تضعُ الكتابَ تحت إبطِها.

ـ ألن تسمحي لي أن أقرأ فيه مساءً، بعد أن أُنهي واجباتي المدرسية؟ سألها ليپّل.

ـ لن أسمحَ لك بالقراءةِ فيه مساءً. ردّتْ بحزمٍ وهي تغادرُ الغرفة.

المخبأ المُكتشَف

عند العشاء، كان هناك رقائقُ من الخبزِ المدهون.

وقد تناول ليپّل قطعتَينِ من الخبزِ المدهونِ باللبنةِ وقطعتين من الخبزِ بالنقانق، كيْ يُظهرَ نواياهُ الحسنةَ ولطفَه للسيدة يعقوب (لأنه لم يكن يأكل سوى قطعتَينِ في العادة).

بدتِ السيّدة يعقوب سعيدةً بهذا وعلّقت بصوتٍ مليءٍ بالارتياح:

ـ لعلّه يمكنُنا أن نتفاهم، حتى لو بدا التفاهمُ بيننا عصرَ هذا اليوم غيرَ ممكن.

وكان ليپّل يقومُ في تلك الأثناء بتنشيفِ ما تمّ تنظيفُه من أواني المطبخ. فأردفت السيدة يعقوب قائلة:

ـ ويبدو أنّ طعامَ العشاءِ قد نالَ إعجابَك. فهو ليس بحلوٍ ولا بمالح.

ـ أجل، أجل. أكّد ليپّل. ونظراً لأنّه كان يرى أن الفرصةَ مؤاتيةٌ، تساءلَ وهو يوجّهُ حديثَه إلى السيدة يعقوب:

ـ هل تسمحينَ لي بأن أقرأَ قليلاً في الكتاب؟ نصفَ ساعةٍ فقط. فضحكت السيدة يعقوب وقالت:

ـ آه. لهذا السبب تبدو على استعدادٍ للمساعدةِ والتعاون. لكنني كما قلتُ لكَ لن أسمحَ لك بالقراءةِ اليوم. أما عندما تقومُ غداً بحلِّ واجباتكَ البيتية، فسأسمحُ لك عندها بالقراءة.

ـ وهل يتوجَّبُ عليَّ الذهابُ إلى السريرِ الآن، فنحن في السابعةِ مساءً. تساءل ليپّل.

ـ تستطيعُ أن تشاهدَ التلفزيون قليلاً، وتذهبَ في الثامنةِ إلى سريرك. أجابتِ السيدة يعقوب.

جلسا في غرفةِ المعيشةِ وشاهدا برامجَ ما قبلَ فترةِ السهرةِ في التلفزيون. وقد عَرض برنامج «بلادنا» في حلقته التلفزيونية تلك، صورة لڤندل شتاين [وهي قرية تقع في جنوب ألمانيا، وفي ولاية باڤاريا تحديداً].

كانت السيدة يعقوب، على النقيض من ليپّل، تبدو مملوءة بالإعجاب.

إنّ ليپّل لا يكرهُ الجبالَ، لكنّه يفضلُ تسلُّقَها على مشاهدتِها في برنامجٍ تلفزيوني مسلسل، لذا كان يجلس وهو يشعر بالملل. فجأةً اكتشفَ أنّ السيدة يعقوب قد خبأت كتابَه فوق الخزانةِ الموجودةِ في غرفةِ المعيشة.

كان المللُ يطاردُه، وهو يفكّر كيف يمكنُه أن يظفرَ بالكتاب من جديد. وكان يتوجَّبُ عليه، قبلَ كل شيء، أن يتمكنَ من إخراجِ السيدة يعقوب من الغرفة. ولكن كيف؟

وبينما كان ليپل يفكّرُ بالأمرِ، وجد المسألةَ قد حُلّتْ تلقائياً. فقد سألته السيدة يعقوب وقد نهضت:

- ألا يوجدُ في المنزلِ فستقٌ أو بعضُ أنواعِ الكعكِ المملّح؟

- بلى، إنّها في الجانبِ العُلويِّ الأيمنِ من خزانةِ المطبخ.

ردّ ليپل بسرعةٍ وهو يحبسُ أنفاسه خوفاً من أن تكلّفَهُ بالذهابِ إلى المطبخِ وإحضارِ تلك الأشياء. لكنها ذهبت بنفسها، وما إن خرجت حتى وقف ليپل على أطرافِ أصابعه وتناول الكتابَ وخبّأَهُ تحت كنزته.

وعندما رجعتِ السيدة يعقوب إلى الغرفةِ، وجدتْ ليپل جالساً فوق الكنبةِ، وهو في غايةِ الهدوءِ، لكنّ قلبَه كان ينبضُ بصوتٍ عالٍ، حتى خشيَ ليپل أن تلحظَ السيدة يعقوب ذلك. لكنّها لم تلحظ شيئاً.

بقي ليپل جالساً، من بابِ الحذرِ، حتى الساعةِ الثامنةِ، وأبدى شيئاً من الاعتراضِ عندما طلبت منه السيّدة يعقوب أن يذهبَ إلى سريره لينام، فقد كان حريصاً على أن لا يُثيرَ الرِّيبةَ، لأنّ الأطفالَ الذين يذهبون إلى أسرّتِهم طواعيةً، دون إبداءِ اعتراضٍ، يُثيرون الرِّيبةَ.

فقالتِ السيدة يعقوب بحَزْم:

- الاعتراضاتُ غيرُ مسموحة، عليكَ أن تذهبَ الآنَ إلى الحمّام، ثمّ بعد ذلك إلى سريرك! وسأجيءُ لأراكَ بعد ربعِ ساعةٍ، لأطمئنَّ أنك في سريرك. وهكذا غادر ليپل الغرفةَ ببطءٍ، وهو يتصنّعُ التذمّرَ، إلى الطابقِ العُلويّ، مع أنّه كان يودُّ لو يصعدُ الدرجَ بسرعةٍ خاطفة.

وعندما صعدتِ السيدة يعقوب بعد خمسَ عشرةَ دقيقةً إلى غرفة ليپل، وجدته قدِ استحمَّ، ونظّفَ أسنانَه واستلقى في سريره، ثمّ

خاطبها بصوتٍ مملوءٍ بالرغبةِ في النوم: «تصبحين على خير».

- تصبح على خير. إلى اللقاء غداً صباحاً. ردّتِ السيدة يعقوب، وهي تطفئُ النورَ في الغرفةِ وتغلقُ بابَها.

انتظر ليپل ما يقربُ من خمسَ عشرةَ دقيقةً، بعدها قفزَ عن سريره، وتأبّط كتابه وذهب، حافيَ القدمَينِ، إلى المخبأ الذي اعتادَ القراءةَ فيه. فتح الباب، وتسلّلَ بحذرٍ، ثم أغلقَ البابَ وراءَهُ بالمفتاح، وأشعل المصباحَ الكهربائي، وجلس، مستمتعاً، فوق القاربِ الجلدي. وبعد أن رشفَ رشفةً كبيرةً من عصيرِ الليمون، أسند ظهرَه إلى الحائطِ وشرع يقرأ.

أعاد ليپل قراءةَ الأسطرِ الأولى من الحكايةِ، التي تحكي عن الملك الذي ظل يتمنّى أن يرزقه اللّهُ بولدٍ ليكونَ ولياً لعهده. وقد دعا هذا الملكُ اللّهَ تعالى، وتوسّل إليه كي يمنحه هذا الولدَ. فاستجابَ اللّهُ لدعائه ورزقَهُ صبياً جميلاً شبيهاً بالبدرِ في أوانِ اكتماله.

هنا توقّفَ ليپل عن القراءةِ، وأصاخَ السّمعَ، فقد خُيّلَ إليه أنّه سمعَ حركةً في الخارج، لكنّه أخطأ بالتأكيد، فالسيّدة يعقوب تستطيع أن تنظرَ من الأسفلِ إلى غرفته، لتتأكد إنْ كان النورُ فيها مضاءً أو غيرَ مضاء. فاستمر يقرأ:

«وقد كبر هذا الصبيُّ، حتى بلغَ سنَّ الخامسة. وقد كان في حاشيةِ الملك رجلٌ حكيمٌ، يُعدُّ من كبارِ العُلماء، ويدعى سندباد. فقام الملكُ وأعطاه الصبيَّ.

وعندما بلغ ذلك الصبيُّ سنَّ العاشرة، كان هذا الرجلُ الحكيمُ قد أحسن تعليمَه وتهذيبَه، فلم يوجد شبيهٌ لذلك الأميرِ في العلمِ والتربيةِ والفهم.

وجرياً على ما فعلهُ جدُه مع والده، أحضرَ الملكُ كوكبةً من أحسنِ فرسانِ العربِ، ليعلّموا ابنَهُ الفروسيةَ. وفي أحدِ الأيامِ نظر سندبادُ الحكيمُ في الأبراجِ الخاصةِ بالأمير ليقرأ طالعَهُ، فلاحظ أنّ ثمةَ مصيبةً قادمةً تسير نحوه، وهي ستحلُّ به إذا تفوَّهَ في الأيامِ السبعةِ القادمةِ بكلمةٍ واحدةٍ، فهُرِعَ إلى الأمير وحلَّفَهُ أن يصمتَ طيلةَ الأيامِ السبعةِ القادمةِ حتى ينجوَ بحياته. فوافقَ الأميرُ وصامَ عنِ الكلامِ.

وقد ترامى إلى مسامعِ الملكِ أنّ ابنَهُ يرفض الكلامَ، ولا يقبلُ أن يفوهَ بكلمةٍ، فأرسلَ يستدعيه. ولما جاءه سأله عن دلالةِ هذا الصمت. لكنّ الأميرَ بقي صامتاً ولم يتفوّه ببنتِ شفةٍ.

شعر الملكُ بالحيرةِ وأمر بإدخالِ ولدهِ إلى المقصورةِ الخاصةِ، وطلب أن يُعامَلَ بوصفهِ مريضاً.

في هذه اللحظةِ جرى هزُّ بابِ المخبأ، حيث يجلسُ ليپَل، وكانت السيّدة يعقوب تقف خلف الباب:

ـ آأنت هنا! ما الذي تفعلُه ها هُنا يا تُرى؟ لقد فتّشتُ عنك في أرجاء المنزلِ كافةً، وظننتُ أنك... (في هذه اللحظة اكتشفت أن الكتابَ بين يدي ليپَل). هذه، هذه، في الواقع، هي الذُروة! (قالت ذلك وهي تنتفض). الآن أدركتُ كلَّ شيء بوضوح. لقد أخذتَ الكتابَ واختبأتَ ها هنا. يا لها من وقاحة! لقد جعلت الرعبَ يدبُّ في أعماقي! ولو كنتَ ابناً لي، كنتُ.. (وهنا رفعتْ السيدة يعقوب كفَّها عالياً وكأنَّها تهمُّ بصفعه. أما ليپَل فكان في غاية الفرحِ لأنه ليس ولدها).

ـ هيّا ناولني الكتاب، وتوجّه، في الحال، إلى سريرك. أمرته السيدة يعقوب.

ناولها ليپَل الكتاب، وتسلّل من جانبها عائداً إلى غرفته، حيث استلقى فوق سريره، فتبعتهُ إلى هناك، لا لتقول له: «تصبح على خير»، بل لتخبره بصوتٍ مليء بالتهجُّم:

ـ لن ترى هذا الكتابَ ثانيةً، حتى يعودَ والداكَ من السّفر، بعدها يستطيعان أن يفعلا ما يشاءان، لكنّك لن تراهُ وأنا هنا، لن تراه مطلقاً.

ثمّ أغلقتِ البابَ وتركته وحيداً.

فاستلقى ليپَل فوق السرير وهو يشعرُ بالألم.

كان الغضبُ قد بلغ مبلغَه لدى السيّدة يعقوب، فقررت ألاّ تتراجعَ عن قرارها. فالكتابُ لن يعودَ إلى ليپَل لا غداً ولا بعد غد. كانتِ السيدة يعقوب مقتنعةً بصوابِ ما أقدمتْ عليه.

وكان ليپَل في تلك اللحظاتِ يتحرّق ليعرفَ كيف سارت حكايةُ ذلكَ الأميرِ الصامت!

فهل كانَ في مقدورِ الأميرِ أن يُمضيَ أسبوعاً كاملاً وهو يلتزمُ الصمت؟

هنا قرّر ليپَل أنْ يستمرَّ يحلُم حتى يعرفَ تفصيلات الحكايةِ. وهو أمرٌ غيرُ ممكن إلاّ إذا ظلّ منشغلاً بالحكاية طيلةَ النهار حتى لحظةِ الذهابِ إلى النوم من غيرِ أن ينشغلَ بأشياء أخرى. لكنّ هذا الأمرَ غيرُ سهل. فلا بدَّ أن ينشغلَ فِكْرُ ليپَل بأشياء كثيرةٍ في هذه الأثناء: بالسيدة يعقوب، وبوالديه، وبالقادمَيْن الجديدين إلى غرفة الصف.

لكنّ ليپَل أغفى وسرعان ما نام.

شيء عن الحلم والحالمين

ويحسُنُ قبل أن نتحدثَ عن الحلمِ الذي رآه ليهَل في هذه الليلةِ أن نبدأ الحديثَ عن الأحلامِ عموماً.

فهناك من يزعمون، جدّياً، أنّهم لا يحلمونَ على الإطلاق، ومنهم والدُ ليهَل مثلاً. فقد ظل يكرّر دائماً:

«لقد نمتُ الليلةَ بعُمق، دون أحلام».

أما أنّه نامَ بعمق، فذلك أمرٌ ممكنٌ، أما أنْ يكون قد نام دونما أحلامٍ فهذا ما لا يحدث. فكل إنسانٍ لا بدّ أن يحلمَ أثناء النوم.

غير أنّ الناسَ مختلفون في هذا الأمرِ، فبعضُهم ينسى ما حلم به على الفور، ويظنون في الصباحِ أنّهم لم يحلموا في الليلِ على الإطلاق.

وهناك أناسٌ يستطيعون أن يتذكروا عند استيقاظهم من النوم جميعَ التفصيلاتِ التي رأوها في أحلامهم. وكان ليهَل واحداً من هذا الصنفِ من البشر، فهو كثيرُ الأحلام إلى الحدّ الذي لا يستطيعُ معه أن يفرّقَ في كثيرٍ من الأحيانِ بين الحلمِ والواقع.

وهو لا يُعاني من الصعوباتِ مع بعض الذكريات:

فعندما يتذكر ليهَل بوضوح سرباً من الفيَلةِ الخُضرِ الصغيرة، أو دجاجةً لها عجلةٌ أماميةُ الدفع، أو مُراقبةَ سيْرٍ ذات رأسين، يعي في الحال أنّ هذه الذكرياتِ تعود إلى ذلك النوعِ من الأحلام المجنونة.

لكنّ الأمرَ كان يبدو أكثرَ صعوبةً بخصوص الذكرياتِ المتعلّقةِ بالأشياءِ العاديّةِ، كالناسِ الذين سبقَ له أنْ عرفَهُم، أو التجاربِ التي سبق له أن مرَّ بها. هنا تختلطُ عليه الأمورُ فلا يدري إن كانت ذكرياتٍ حقيقيةً أو ذكرياتٍ تنتمي إلى عالمِ الحلم.

فقد جلس، ذاتَ مرةٍ، طويلاً في أحدِ أحلامِه كي يقومَ بأداءِ الواجباتِ المنزليةِ، ثم جاء اليومُ التالي فذهب إلى المدرسةِ وهو يظنُّ أنه قام بحلّ التمارينِ المطلوبةِ بدقّةٍ، ليُفاجأ بأنه حلّها في الحلمِ لا في الواقع.

وقدِ اضطُرَّ ذاتَ مرةٍ أن يسألَ أمه:

ـ هل جاءتنا في الأسبوعِ الماضي رسالةٌ من جدّي وجدّتي من أستراليا أو أنني قد حلمتُ بذلك؟

ويستطيعُ بعضُ الناسِ الذين لا يكفّون عن الحلم، ويتعاملون مع أحلامهم بجدّيةٍ أن يسيطروا على تلكَ الأحلام. وقد استطاع ليهَل ذلك في بعض الأحيان. ففي أثناء أحدِ الأحلامِ المرعبةِ قال ذاتَ مرةٍ:

ـ هذا الأمرُ هو فوق قدرتي على الاحتمال، ولذلك فلا أستطيعُ الاستمرار. واستيقظ بعدها من نومه.

أما الأحلامُ الجميلةُ فإنه تمكّن، أحياناً، من إطالتِها بعضَ الشيء. وفي بعضِ الأحيانِ (وهي أحيانٌ نادرةٌ على كل حال) استطاع ليهَل أن يختار طبيعةَ الحلم، ونجح في هذا الأمر.

ولهذا فليسَ مستغرباً أن يكملَ ليهَل الحكاية، التي عرف بداياتِها،

في عالم الأحلام. وكان موقعُه يتبدّلُ في الحلم، فتارةً يكون مُشاهِداً (وكأنه في فيلم سينمائي) وتارةً يكون جزءاً من الحكاية، كما الحالُ في الأحلامِ القادمة.



الحلم الأوّل



كان القصرُ الشرقيُّ باذخاً كما سبقَ أنْ تخيّلَهُ ليهَل وهو يقرأ الحكاية. وكانتِ السجاجيدُ الثمينةُ معلّقةً على جدرانه. أما السقفُ المُقبَّبُ للقصر، فيرتفعُ على أعمدةٍ بيض، مزركشةٍ بعيّناتٍ ذهبية. وكانتِ النافورةُ الموجودةُ في منتصفِ القاعةِ والتي يندفعُ ماؤها الصافي من حوضٍ رُخاميٍّ صقيلٍ، تضيءُ المكان. أما العرشُ الذي اعتاد الملكُ أن يجلس فوقَه، فكان إلى محاذاةِ سجّادةٍ استثنائيّةِ الجمال.

وكانت تقف إلى جانب الملكِ امرأةٌ مغطّاةٌ بعباءةٍ خضراء، وكانت أسنانُها العُلوية تبرزُ إلى الأمام عندما تتحدّث. لم تكن تلك المرأةُ هي الملكة. فقد أدرك ليهَل عندما تأمّلها، أنّها خالةُ الأمير وأرملةُ شقيقِ الملك.

كانت الخالةُ تطمعُ منذ سنواتٍ طويلةٍ أن يكون ابنُها خليفةً للملك، وأن يرثَ ثروتَهُ ومُلكَهُ، لهذا أصابها الحزنُ عندما وُلدَ للملكِ صبيٌّ، وكرهت ذلك المولودَ الجديدَ من أعماقِ قلبها. وعندما أُصيبَ هذا الأميرُ بالخَرَس، رأت خالتُه أنّ الفرصةَ مؤاتيةٌ كي تنفّثَ أحقادَها. لهذا قامت بسرقةِ كتابِ الملكِ المفضّلِ وأخفته تحت وسادةِ الأمير.

وعندما انتهى الملكُ من تدبيرِ شؤونِ الحكمِ في عصرِ أحدِ الأيام، وأراد أن يرتاحَ قليلاً في ديوانه، ويتناولَ قطعةً من الشوكولاته ذاتِ الورقِ الذهبيِّ المفضّلةِ لديه، ليستمتعَ بمذاقها اللذيذ، ذهب كي يحضرَ الكتابَ الذي اعتادَ أن يقرأ فيه، فوجدَ الكتابَ قدِ اختفى.

ومع أنّ سبعةَ عشرَ خادماً، وحرّاسَ القصرِ، وأربعةً من الجواري، والملكةَ وبناتِ الملكِ الخمس، بحثوا عن الكتاب في أرجاءِ القصرِ، وفتشوا غرفَه جميعَها، وبحثوا تحت المقاعدِ والسجاجيد، إلاّ أن الجميعَ فشلوا في العثورِ على الكتاب.

وهنا طلبتْ خالةُ الأميرِ الإذنَ بالكلام، فقالت وهي تتصنّعُ التواضُع:

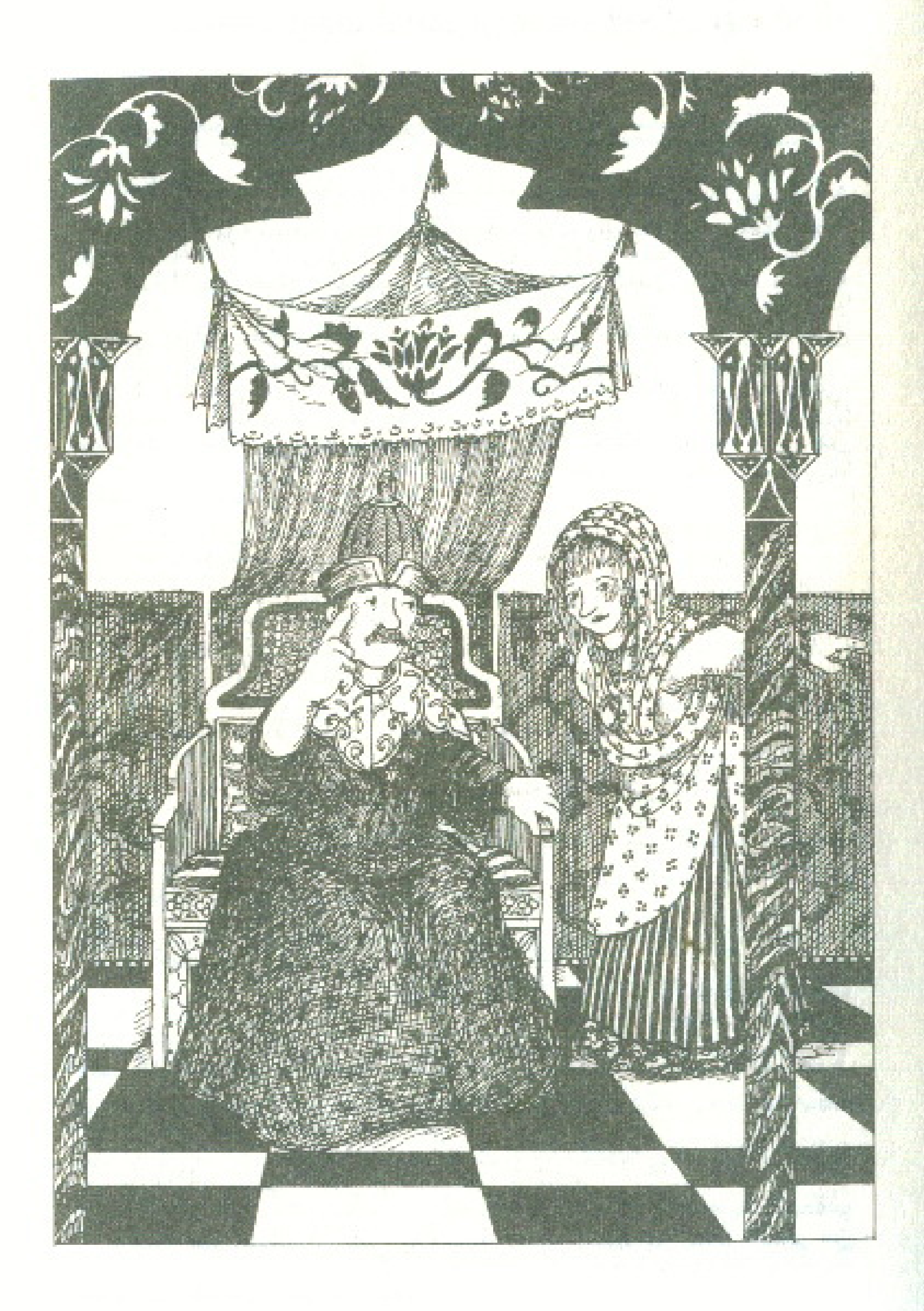
ـ يا شقيقَ زوجي العزيز، ويا أيُّها الملكُ العظيم. أنا أعرفُ أين يوجدُ الكتابُ، لكنني لا أجرؤ أن أبيّنَه على مسامعِ جلالتكم. فإنني أخشى غضبكم عندما أُميط اللثامَ عن السارقِ الملكي للكتاب.

فصحّحها الملكُ بقوله:

ـ يا زوجةَ أخي، إنّكِ تريدين أن تقولي: عندما تُميطين اللثامَ عن سارقِ كتابِ الملك (صحّحَ الملكُ كلامَها على هذا النحو، نظراً لحرصه على الدقّة).

ـ لا يا صاحبَ الجلالة، ردّت زوجةُ أخيه، أرجو أن تغفرَ لفمي الوقحِ ما سيتفوّه به، لأنني سأوذي مسامعَ جلالتكم بكلامي الذي سأقوله: إنني أعني «السارقَ الملكي»، أو ليس ولدُكم الأميرُ «أسلم» من أصحابِ الدمِ الملكيّ؟ لحظتَها صاح الملكُ غاضباً:

ـ ما هذا الكلامُ الفارغ؟ الأمير أسلم. هل تريدين أن تلوّثي سمعةَ ولدي؟ توقّفي عن هذا الهُراء!



ـ إنني مهتمَّةٌ بإظهارِ الحقيقةِ يا صاحبَ الجلالة. ردّتِ الخالةُ بسرعة.

ـ هل تريدينَ القولَ إنّ ولدي الوحيدَ قد سرق كتابَ أبيه المفضّل؟ أجاب الملك.

ـ هذا ما أعنيه تماماً. ردّتِ الخالةُ باقتضاب، وانحنت أمامَ الملكِ بقوّة.

ـ هذا اتهامٌ خطير. أوضح الملكُ ساخطاً (وكانت زوجتُه وبناتُه الخمسُ يؤكّدن كلام الملكِ بإحناءِ رؤوسهن). ثم أضاف: وإذا تبيّنَ أنّكِ كاذبةٌ في هذا الادّعاءِ فستكون عقوبتُكِ النفيَ من مملكتي. (وكانت زوجتُه وبناتُه الخمسُ يؤكّدنَ هذا الحكمَ بإحناءِ رؤوسهنَّ بأقصى ما يمتلكنَ من عزيمة).

ـ وماذا لو كنتُ صادقةً في ما أقول؟ سألتِ الخالةُ بسرعة.

ـ عندئذٍ.. عندئذٍ فسيتمُّ نفيُ الأمير. ردُّ الملك.

ـ إذا كان الأمرُ كذلك، يا صاحبَ الجلالة. فأرجو أن تُفتّش عن الكتابِ تحت مخدّةِ الأمير. أوضحتِ الخالةُ بثقة.

تحرّكَ الملكُ مع حاشيتِه صوبَ مقصورةِ الأميرِ للتأكّدِ من صحّةِ الاتهام، وكم كان سُخطُ الملكِ عظيماً، عندما رأى كتابَه المفضّلَ تحت مخدّةِ الأمير. عندها صاح الملكُ ثانية:

ـ يا لهولِ ما أرى، ولدي لصٌّ، يسرقُ أباه!

كان الأميرُ واقفاً لا يعرف على وجهِ التحديدِ طبيعةَ ما يجري. ولمّا كان من غيرِ المسموحِ له أن يتحدّثَ ليُدافعَ عن نفسه، فقد حدّقَ في الأرضِ، وبدا مملوءاً باليأس.

عدّ الملكُ صمتَ الأميرِ بُرهاناً على إدانته.

وكان على الملكِ أنْ يفيَ بما سبقَ له أن تعهّدَ به أمامَ الكثيرِ من الشُّهود، فخاطبَ الحرّاسَ بقوله:

ـ اقبضوا على الأميرِ أسلم، وارموا به خارجَ حدودِ المملكة. إنّه منفيٌّ، ولا يجوزُ له العودةُ إلى هنا مستقبلاً، على الإطلاق.

عندها رمتْ حميدة، أكثرُ شقيقاتِ الأميرِ أسلم حُبّاً له، بنفسها عند قدمَي أبيها الملك، وطلبتِ الرحمةَ لأخيها.

ـ إذا كُنتِ تطلبينَ الرحمةَ لهذا اللصّ، فاذهبي معه! لقد قرّرتُ نفيَ ابنتي حميدة أيضاً. صاح الملكُ وقد بدأ غَضبُه يعلو.

ـ لكنّ هذا القرارَ غيرُ عادل. فأنت لا تستطيعُ ببساطة أن... صاح ليبِّل الذي كان الملكُ يستمع إلى كلامه، وقد نزل عليه كوقعِ الصاعقة. لكنّ الملكَ ما لبثَ أن صاح:

ـ من هذا الغريب؟ وكيف دخل إلى هنا؟ ما اسمُه؟ وماذا يريد؟

كانت أسئلةُ الملكِ تتلاحق، لهذا لم يُجبْ ليبِّل عليها.

أما الخالةُ التي استشعرت خطورةَ ما يمثّلُه ليبِّل، فقد استغلّتِ الفرصةَ وصاحت:

ـ إنّه شريكُ الأميرِ وصديقُه!

ـ هل هذا صحيح؟ سأل الملك. إذن يُنفى هو الآخر. اربطوا هؤلاء الثلاثةَ معاً، وأبعدوهم عن البلاد!

وقبل أن يعترضَ ليبِّل، أمسكَ به حرسُ القصر، مثلما أمسكوا بالأميرِ والأميرة، وأخرجوهم من القصر.

وقد اختار قائدُ حرسِ القصرِ رجلَينِ كي يُرافقاهُ في مهمّتِه التي كُلِّفَ بها، وهي نفيُ هؤلاء الثلاثة. فتم إحضارُ ستّةِ خيولٍ وحمارَينِ قويّين. وكان على الثلاثةِ أن يركبوا الخيولَ الثلاثة، وأن تُربطَ أيديهم بعُقدةِ السَّرج، وأن يغادروا القصرَ على هذه الشاكلة، ويمرّوا بالشارعِ الرئيسي للمدينةِ، وصولاً إلى الصحراء.

وما إن سار الجميعُ مسيرةَ ساعةٍ، حتى رأوا خلفهم فارساً يعدو مسرعاً. فأمر القائدُ الركبَ أن يتوقّف، وأمسك الفرسانُ برماحهم وهم على أهبةِ الاستعدادِ للقتال، وانتظروا بفارغِ الصبرِ كي يعرفوا هذا الفارسَ المجهولَ الذي يُلاحقهم والذي اقتربَ منهم بسرعةٍ فائقة.

وعندما اقترب هذا الفارسُ منهم، تبيّنَ لهم أنّ هذا الذي يلاحقهم، ليس فارساً بل امرأةٌ تضع الخِمارَ على وجهها. فصاح بها قائدُ الحرس:

ـ من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

رفعتِ المرأةُ النّقابَ عن وجهها، فأُصيبَ القائدُ بالهَلَع؛ فقد كانتِ المرأةُ خالةَ الأولاد. عندها انحنى لها القائدُ وقال:

ـ عفواً يا سيدتي، فأنا لم أعرفك.

ـ دع عنكَ هذا الولاءَ الكاذبَ، فأنا راغبةٌ في التحدّثِ معك، على انفراد. ردّتِ المرأةُ بصرامة.

ابتعد الحارسان في الحال، مسافةَ رميةِ حجرٍ، وأخذا معهما حصانَي الأميرِ أسلم والأميرةِ حميدة بعيداً، في حين تولّى القائدُ بنفسِه حراسةَ ليبَل، فأبقاه على مقربةٍ منه وأمسكَ بزمامِ فرسه، بعدما بدا له أنّ هذا الغريبَ هو الأكثرُ خطورةً؛ فقد كان مجهولاً، لا يَعرفُه أحدٌ في القصر، وهو يرتدي فوق ذلك زيّاً غريباً (كان ليبَل يرتدي معطفَه المطريَّ فوق الثيابِ الخاصةِ بالنوم).

وهكذا ظلّ ليبَل على مقربةٍ من القائدِ، وكان في مقدورِه أن يستمعَ إلى حديثِ الخالة.

مدّتِ المرأةُ يدَها إلى داخلِ السَّرجِ، وأخرجت صُرّةً جلديةً ورمتها نحو القائد، قائلةً:

ـ إنّها مملوءةٌ بالذهب. تقاسَمْها مع الفارسَينِ الآخرَيْن. فردّ القائد:

ـ أطال اللّهُ بقاءَكِ، وجزاكِ خيراً. كيف أستطيع أن أردّ هذا الجميل؟ وبماذا تأمُرينني يا سيدتي؟

ـ عليك أن تبذلَ جهدكَ حتى لا يرجعَ هؤلاء الأسرى. همستِ المرأة.

ـ هذا ما سأفعلُه يا سيّدتي، فسأقومُ بطردِهما إلى ما وراءِ الحدودِ، وسأضعُ الحرّاسَ هناكَ كي يراقبوا الحدودَ ويحولوا بينهم وبين الرجوع.

ـ أنت لم تستوعب ما قلتُه لك، قالتِ المرأةُ قَلِقَةً. إنّ عليك أن تهتمّ بأنْ لا يعودَ هؤلاء على الإطلاق. أتفهمني، على الإطلاق، دون أن يكون هناك حرسٌ على الحدود.

شَحُبَ لونُ القائد وقال:

ـ هل تقصدينَ أنّ ثلاثتَهم ينبغي أن.... (ولم يستطع قائدُ الحرسِ أن يتلفّظ بالكلمة المرعبة).

ـ تماماً هذا ما أريدُه. ردّتِ المرأةُ ثم أضافت: وعندما يتمُّ الأمرُ قُم بإخباري، وعندها ستنال صُرّةً أخرى كهذه. ولكنْ حَذارِ أن تُفشيَ هذا السرَّ لأحدٍ، إذا كُنتَ ترغبُ في البقاءِ على قيدِ الحياة!

ثم أدارتِ المرأةُ فرسَها واتّجهت صوبَ القصرِ وأخذت تعدو.

نظر القائدُ إلى ليبَل مستطلعاً، وكان يفكّرُ في معرفةِ ما استطاعَ ليبَل أن يستمعَ إليه من ذلك الحديث.

لكنّ ليبَل كان واقفاً يتأمّلُ عُرْفَ فرسِه ويتظاهرُ بالملل، فقد كان من الأفضلِ أن لا يحسَّ القائدُ بأن ليبَل يعرفُ الخطرَ الذي سيتعرّضُ له الأميرُ والأميرةُ عمّا قليل.

سارتِ القافلةُ ساعةً إثرَ ساعةٍ حتى وصلوا إلى إحدى الواحات، فأصرَّ الحرسُ على أن يستريحوا في ظلالِ إحدى شجراتِ النخيل.

فك القائدُ قيودَ الثلاثةِ حتى يستطيعوا النزولَ عن خيولهم، وشُرْبَ الماءِ من العَيْنِ، ثم نادى الحارسَيْنِ وأخذ يتحدثُ معهما بصوتٍ خفيضٍ وبلهجةٍ قاسية. فاستطاع ليهَل أن يتحدَث بحرّيةٍ مع زميليه السجينين:

- إننا إزاءَ خطرٍ كبيرٍ داهم. همس ليهَل ثم أضاف: إن الحرسَ سيقتلوننا، وقائدُهم يتحدثُ معهم حولَ هذا الأمر.

هزّ الأميرُ أسلم رأسَهُ رافضاً.

أما شقيقتُه الأميرةُ حميدة فقد قالت:

- لا بُدّ أنّكَ قد أخطأتَ التوقُّع! ففي بعضِ الأحيانِ يبدو أبي قاسياً عندما يغضبُ، لكنه يتراجعُ عن ذلك عندما يخفُّ غضبُه. إنّني أعرفُه عن قربٍ، فلا يمكنُ أن يكونَ قد أمرَ بقتلِنا، بل إنّني أميلُ إلى أنه سيأمرُ بإعادتِنا بعد وقتٍ قصير. وقد كان قلبي ينبضُ فرحاً، عندما رأيتُ خالتي قد جاءت، فقدِ اعتقدتُ أنه أرسلَها لتُعيدَنا، لكنّني أخطأتُ. لذلك فإنني أشعرُ بالحزنِ، وأعتقد أنّها قد أقنعتِ الحرسَ بأن يُطلقوا سراحَنا، لكنهم لم يجرُؤوا على ذلك.

- إنّ خالتَكم تكرهُ أسلم. إنّها تتمنّى موتَه. قال ليهَل ذلك بإصرارٍ، وهو يسردُ على مسامعِهم ما لاحظه وما سمعَه.

أصغى أسلم وحميدة وهما يشعرانِ بالذُّعر:

- إذنْ علينا أن نهربَ، علينا أن نهربَ قبل فواتِ الأوان! علّقت حميدة عندما حكى ليهَل تلكَ الوقائعَ، وحنى أسلمُ رأسَه موافقاً.

- وكيف نهرب؟ إنّ الحراسَ أكثرُ مهارةً منّا في ركوبِ الخيل. فكيف سنتخلّصُ من ملاحقتِهم لنا؟ تساءل ليهَل.

بدأ الثلاثةُ يفكّرون لكنهم لم يجدوا حلاً مناسباً. فجأة أمسكَ الأميرُ أسلم بذراعِ ليهَل، وأشار إلى الصحراءِ بفزع.

لم يستوعبْ ليهَل مقصودَ أسلم. كانت غيمةٌ سوداءُ صغيرةٌ تلوحُ في الأفقِ لحظتَها، فهل يشيرُ إليها يا ترى؟

- هل تشيرُ إلى الغيمة؟ سأله ليهَل.

فحنى الأميرُ رأسَهُ موافقاً.

- هل سيكون رعدٌ عما قريب؟

فهزّ أسلمُ رأسَهُ نافياً ذلك.

- ماذا إذن؟ تساءل ليهَل.

انحنى أسلم على الأرضِ وأخذ بيدِه حفنةً من الرمالِ، ووضعها أمامَ عينَيْ ليهَل، وهو يشيرُ إلى الرمالِ بقلق.

- ماذا أفعلُ بهذه الرمال؟ سأله ليهَل.

فوضّحت حميدة:

- إنّ عاصفةً رمليةً ستهبُّ علينا بعد قليل.

وافق أسلم وحنى رأسَه، ثم أشار إلى نفسه وإلى شقيقته وإلى ليهَل، ثم أشار إلى الخُيول. فوضّحت حميدة:

- إنّ أسلم على حق. فإذا كانت لنا فرصةٌ للنجاة، فستكون أثناءَ هبوبِ العاصفةِ الرملية. ثم التفتَتْ نحو ليهَل وسألته:

- هل سبَق لك أن رأيتَ عاصفةً رمليةً من قبل؟

- كلاً. وإن كان في الكتابِ الخاصِّ بالشرق صورةٌ... ردّ ليهَل.

- لا وقتَ لدينا. لقد عاد الحرس. قطعتْ حميدة حديثَ ليهَل. إنّ العاصفةَ الرمليةَ مُرعبة، وستعيشُها عما قريب. إنك بحاجةٍ إلى قطعةٍ من القُماشِ تضعُها على أنفكَ وأُذنيك. أمعكَ غيرُ هذا الرداء؟ أليست لديكَ عمامة؟

هزّ ليهَل رأسَه نافياً.

- إذن خذ هذا المنديل. قالت حميدة وناولتْه منديلَها المزركش بالورودِ ثم أضافت: علينا أن نهربَ عندما تهبُّ العاصفةُ الرملية، لأنهم لن يستطيعوا الإمساكَ بنا حتى لو قاموا بمطاردتنا، لأنهم لن يتمكنوا من رؤيتنا في أثناء هبوبِ العاصفة. وعلينا أن نبقى معاً، وأن لا نفقدَ بعضَنا، وإلاّ ضِعنا إلى الأبد! هدوء، فقد عاد الحرس! ثم أرادت أن تعرفَ شيئاً فالتفتت نحوَهُ وسألته:

- ما اسمك؟

- ليپَل. فأطرقت حميدة وكأنّ هذا الاسم من أكثرِ الأسماءِ شيوعاً في العالم.

كان الحرسُ قد لاحظوا الغيمةَ أيضاً، التي كان حجمُها يتزايدُ بسرعةٍ، وكانت تبدو وكأنها عاصفةٌ تتحرّكُ في الأفق.

- هيّا ابحثوا عن النجاة، واختبئوا خلفَ أيِّ سورٍ، وتلفّعوا جيداً بما عندَكم من ملابس، غطّوا عيونَكم وأفواهَكم وأنوفَكم. العاصفةُ في طريقها إلينا وستصلُ خلال لحظات!

قبع الحرسُ والأسرى وراء سورٍ طينيٍّ متداعٍ.

بعدها بدأت ملايينُ الذرّاتِ الرمليةِ بالتطايرِ بقوّةٍ مرعبةٍ نحو جسدِ ليپَل. فأغلقت فُتحتَي أنفِه، وملأت عينَيه، واخترقت معطفَه المطري. فأخذه ليپَل عن رأسه وغطّى به أنفه، وصار يبحثُ عن الهواء كي يتنفّس.

هزّ أسلم ذراعَ ليپَل بقوّة، فنظر ليپَل صوبَ الحرس. كانوا قد تلفّعوا بمعاطفِهم الصوفيةِ، وأحكموا الأغطيةَ فوق رؤوسِهم، وجلسوا دونما حراكٍ، وكأنهم صخورٌ تتحركُ الرِّمالُ من حولها.

هنا أمسكَ الأسرى الثلاثةُ بأيدي بعضِهم، وجاهدوا كي يتمكّنوا من الوصولِ إلى خُيولِهم التي كانت تقفُ وهي مملوءةٌ بالفزعِ، تمدُّ

أعناقَها وتصهلُ عالياً. فكّوا الخيولَ السّتةَ من مرابطِها، وأمسكوا بزمامِ ثلاثةٍ منها وأرخوا العنانَ للثلاثةِ الأخرى، فانطلقت خيولُ الحراسِ تسابقُ الريحَ، واختفت داخلَ غيمةٍ سوداءَ محمّلةٍ بالرمالِ والترابِ، بعدها امتطى الأولادُ خيولَهم وولّوا هاربين. ولم يكنِ الحُرّاسُ، حتى تلك اللحظةِ، قد تنبّهوا لما يحدثُ، فقد علا دويُّ العاصفةِ، على وقعِ سنابكِ الخيل.

كان أسلمُ في الطليعةِ، تليه حميدةُ، ثم ليپَل، فقد أراد ليپَل أن يبقى على مقربةٍ منهما. لكنَّ العاصفةَ أمسكت بمعطفِه المطريِّ، ونشرته كأنه شراعُ سفينة، وكادت تُسقِطُه أرضاً عن ظهر الحصان. حاول ليپَل أن يخلعَ معطفَه، ولم يتمكّن من ذلك إلاّ بعدَ جهدٍ طويل، فحملتِ الريحُ معطفَه وطارت به بعيداً، فأُصيبَ الحصانُ الخائفُ بمزيدٍ من الرُّعبِ، فشبَّ على قدميه، وقذف ليپَل من على ظهره، وطرحَهُ أرضاً، ثم انطلق يعدو في الصحراء.

صاح ليپَل بصوتٍ عالٍ:

- أسلم، انتظرني!

لكنّ ضجيجَ العاصفةِ الرمليةِ كان من القوّةِ بحيثُ لم يتمكّن ليپَل نفسُه من سماعِ صوتِه وهو يصرخ.

تكوّر ليپَل في الرمالِ إلى جانبِ أحدِ الكثبانِ الرملية. لكن العاصفة لم تهدأ بل ازدادت قوّةً، فصار ليپَل يدفعُ الرمالَ عن نفسه بيديه، ولم يعُد قادراً على التنفّس، وصار موقناً أنه سيختنقُ بين لحظةٍ وأخرى.

ثم جاءت ريحٌ عاتيةٌ، أطارت المنديلَ من يدِه، فصار قادراً على التنفُّسِ على نحوٍ مفاجئ. وعندها استيقظ من نومه.

كانتِ السيدة يعقوب تقفُ إلى جانبِ سريره وهي ترتدي معطفَها الصباحيَّ الأخضرَ اللونِ، وتمسكُ المخدَّةَ بيدها.

- صباحُ الخير يا فيليب! إنَّ عليكَ أن تنهض. قالت السيدة يعقوب ثم تساءلت: تُرى هل تنامُ دائماً والمخدَّةُ على وجهك؟ وهل تستطيعُ أن تتنفس؟

- هل انتهتِ العاصفة؟ تساءل ليپَل حائراً.

- العاصفة! كرَّرت السيدة يعقوب. آه، أنت تعني هَزيمَ الرعدِ ليلاً. هل سمعتَه؟ وهل صحوتَ جرّاء ذلك الصوت؟ إنَّ هذا الطقسَ متقلِّبٌ تماآاماً. فتارةً تشرق الشمسُ وتارةً أخرى يهطلُ المطرُ، وأخيراً هذه العاصفةُ الرعديّة! لكنّها انتهت أخيراً. بعدها أزاحتِ السيدة يعقوب الستائرَ ثم قالت:

- إنَّ الشمسَ مشرقةٌ وهذا هو الوقتُ المناسبُ للاستيقاظِ من النوم.

- صحيح، ردَّ ليپَل، لقد أشرقتِ الشمسُ ثانية. فقالت السيّدة يعقوب:

- سأنزلُ إلى المطبخِ لإعدادِ طعام الإفطار. وعليكَ أن تذهبَ إلى الحمّام، وإيّاكَ أن تعاودَ النوم! ثمّ غادرَتِ الغرفة.

تمتم ليپَل وقد جلسَ في سريره:

- الشمس، ليس ثمةَ رمالٌ. لقد نَجوت.

كان عليه أن ينظِّمَ أفكاره. فقد كان نائماً في منزله وفي سريره، إذن لقد كان كلُّ ما شاهده مجرّدَ حلم. ولكن ماذا عن الاثنينِ الآخرَين؟ هل صحيا وتبيَّنَ لهما أنّ ما عاشاه كان مجردَ حلم؟ أم ما زالا في قلبِ العاصفةِ الصحراوية؟!

الثلاثاء

الإفطار مع السيدة يعقوب

عندما نزل ليبّل إلى الطابقِ السفلي، وجد السيدة يعقوب جالسةً على مائدةِ الإفطار وهي تتناولُ اللّبن. فبادرته بقولها:

ـ ستسألني عن النقاطِ التي تقومُ بتجميعها. لقد نسيتُ الأمر. أنا آسفة. وعندما تذكّرتُه، كان غطاءُ العُلبةِ قد تمزّق. لكنّ ثمّةَ نقطةً ما تزال فوق عُلبتِكَ تستطيعُ أن تَقُصَّها، أم تُراكَ غيرَ راغبٍ في تناول اللّبنِ صباحاً؟

ردّ ليبّل:

ـ بلى، أنا أُحبُّ تناولَ اللّبنِ في الصباح. لكنّه صار يحسبُ وهو يتذمّر: إذا استمرّ الأمرُ على هذه الشاكلةِ، فإنّني أحتاجُ إلى أسبوعٍ كي أتمكّنَ من جمعِ النقاطِ المئة.

ـ لكنّك لا تكتفي باللبنِ وحده؟ سألته ثم أردفت قائلة: إنّ الفتى في مثلِ سنّك يحتاجُ إلى طعامٍ مُغذٍ. هل أُعِدُّ لك قطعةً من الخبز؟

ـ لا، شكراً، أجاب ليبّل، فأنا لا أتناولُ في الصباحِ سوى اللّبن.

ـ لكنّني سأعِدُّ لك قطعةً من الخبزِ مع ذلك، قالتِ السيدة يعقوب بنبرةٍ حاسمة، وسأدهنُها بالزبدة، وهذا ما يعطيكَ المزيدَ من الطاقة.

ـ لكنّني لا آكلُ الخبزَ في الصباحِ، فأنا لا أستطيعُ أن أبتلعَ أشياءَ صلبةً في الصباحِ الباكر.

ـ لا بأس، خذ إذن هذه القطعةَ من الخُبزِ معكَ، ويمكنكَ أن تأكلَها في فترةِ الاستراحة. قالت السيدة يعقوب وهي تلفُّ قطعةَ الخبزِ بمنديلٍ ورقي.

ـ إنّني أفضّلُ أن أتناولَ قطعةً من شوكولاته ـ الكرْكي أثناء الاستراحة. ردّ ليبّل.

ـ وما شوكولاته ـ الكَراكي هذه؟

ـ إنّها لوحٌ من الشوكولاته الهشّةِ، المكوّنةِ من ثلاثِ طبقاتٍ والمغطّاةِ بالكراميل أو هذا ما يقولونَه عنها في الدعايات.

ـ وهل تسمحُ لك أمُّكَ بذلك؟ سألت السيدة يعقوب.

ـ إنّها لم تمنعني من تناولها قط. أكّد ليبّل.

وهنا لم يقل ليبّل الحقيقةَ كلَّها، فإنّ أمَّهُ لم تأذن له بأكلِ هذا النوعِ من الشوكولاته؛ لأنها، ببساطةٍ، لم تعرف بالأمر. وكان رأيُها أن على ليبّل أن يشتريَ بمصروفه اليوميّ قطعةً من الخبزِ الطريِّ المعجونِ ببذورِ الخشخاش، أو قطعةَ خبزٍ شبيهةً بالكرواسان.

ـ لا عجب أنك مُسرفٌ في النحافة، إذا كان والداكَ لا يعطيانكَ الغذاءَ الضروري. ردّت السيّدة يعقوب وأضافت تقول: أما أنا فسأعطيكَ الغذاءَ الضروريَّ المناسبَ لك.

واستمرا يتناولان اللبن. بعد ذلك تساءل ليبّل حذراً:

ـ ماذا سيكونُ غداؤنا لهذا اليوم؟

ـ ستعرفُ ذلك في الوقتِ المناسبِ تماماً. ردّت السيّدة يعقوب.

انحنى ليبّل انحناءةً عريضةً، ووضع يديهِ على صدرهِ وقال بلهجةٍ تشبهُ ما قرأهُ في الحكاياتِ الشرقية:

ـ عفواً يا سيدتي، إذا أثقلتُ على مسامعكم الكريمةِ بأسئلتي التافهةِ عن وجبةِ الغداء.

ـ ماذا عن أُذني؟ سألت السيدة يعقوب وهي تستشعرُ الإهانة. أتريد

أن تسخر مني؟ هذه هي النهايةُ القصوى. إنني أُريد أن أتحدث معك عما حدث مساءَ أمس. أرجو أن لا تَظُنَّ، أنّني نسيتُ ما حدثَ ببساطةٍ، لقد أُصبتُ بالرُّعبِ، حتى ظننتُ أنكَ قد هربتَ أو اختُطِفت!

ـ أنا لم أقصد أن أُخيفَكِ، لكنّني أردتُ أن أقرأ قليلاً. ردّ ليپَل وهو يحاولُ الاعتذار.

ـ أن تقرأ قليلاً! لهذا اختبأتَ في الخزانةِ، ماذا تقول؟ إيّاك أن تعتقدَ أنَك ستحصلُ ثانيةً على الكتاب!

ونظراً لأنّ ليپَل لم يقُم بالردّ، وبقي صامتاً يتناولُ ما في علبتِه من لبنٍ، تناولت السيدة يعقوب الجريدةَ وهي تشعرُ بالإهانةِ وبدأت بتقليبِ صفحاتِها.

وكان ليپَل، الذي يجلسُ قبالتَها، يحاولُ أن يفكَّ العناوينَ الكبرى للصحيفةِ، فقرأ بصوتٍ عالٍ:

ـ لا فرصةَ لنزعِ التوتر.

ـ من جهتي، أنا لستُ مسؤولةً عن ذلك. ردّتِ السيدة يعقوب من وراء جريدتها.

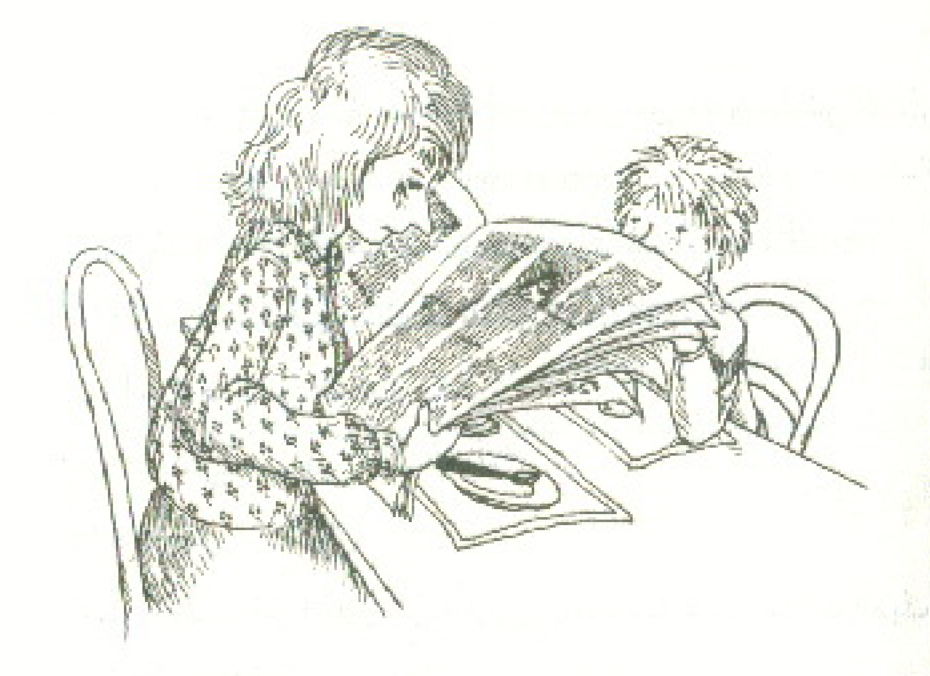
ـ هذا صحيح. قال ليپَل.

ـ أخيراً، اعترفتَ بذلك. قالت السيدة يعقوب.

ـ أجل، «إن القوى العظمى هي التي تتحمل المسؤولية». هذا ما هو مكتوبٌ هنا. وضّح ليپَل.

نظرتِ السيدة يعقوب إلى حافةِ الجريدة، ثم نظرت إليه حائرةً وقالت:

ـ آه، أنت تقرأ في الصحيفة. ثم أكمل ليپَل العنوان الآخر:



ـ السكّة الحديدية الفيدرالية الألمانية تشكو: عدد المسافرين غير القانونيين يتنامى بقوّة. ثم تساءل ليپَل: ما معنى المسافرين غير القانونيين؟

ـإنهم الذين يسافرونَ دون أن يدفعوا ثمنَ التذاكرِ الخاصّةِ بالسّفر. وضّحت السيدة يعقوب.

ـ حسناً، إن هؤلاء ليسوا مسافرينَ غيرَ قانونيين. ردّ ليپَل.

ـ كيف؟

ـ لأنّ المسافرين غيرَ القانونيينَ يسمنون وهم يريدون لهم أن ينحفوا. أليس كذلك؟

احمرَّ وجهُ السيدة يعقوب وصاحت وهي تُلقي بالصحيفة جانباً:

ـ لن أسمحَ لك بأن تعرضَ المزيدَ من وقاحاتِكَ أمامي!

ـ لقد أردتُ أن أقولَ نكتة. قال ليپَل.

وقد كان والدُه يرى على نحوٍ مؤكّدٍ في هذا التلاعبِ اللفظيّ أمراً يبعث على الضحك.

- أتريدُ أن تجعلني مادةً لدُعاباتك؟ ينبغي أن تعلمَ بأنني بذلتُ معك قُصارى جُهدي ولم يبقَ من صبري بقيّة.

وعندما لاحظتْ أنّ كلامها لم يترك تأثيراً عند ليپّل، سألته:

- ماذا لو قُمتُ بتسخينِ صَلْصةِ البندورة هذا اليوم؟

- عندها سأذهبُ إلى السيدة يشكي!

- السيّدة يشكي. من هي هذه المرأة؟

- إنّها صديقتي. ردّ ليپّل.

- آه، صديقتك! سأبوحُ لك بسرّ. إنك إنْ فعلتَ هذا، فسأتصلُ بوالدَيك هاتفياً وأحكي لهما كلَّ ما حدث.

كان بودّ ليپّل أن يقول:

- هيا افعلي ذلك بهدوء، فأنا من يودُّ أن يهاتفهم، على كل حال.

لكنّه أدركَ أن كلامه هذا يزيدُ في غضبِ السيّدة، وهو لا يسعى في الواقع، إلى إغضابها، لكنّه لا يدري كيف تطوّرتِ الأمورُ على هذه الشاكلة، فردَّ بلهجةٍ مُسالمة:

- سأتغدّى هُنا. عفواً، أنا لم أقصد أن أقولَ ذلك.

- آه. يبدو أنّ التهديد بإخبار والديك كان مُفيداً. قالت السيدة يعقوب، وأضافت: هيّا اذهب حتى لا تصلَ إلى المدرسةِ متأخراً.

وعندما وصلَ إلى الممرّ نادته قائلة:

- ماذا عن قطعةِ الخبزِ الخاصةِ بالاستراحة، ألا تُريد أن تأخذها؟

دسّ ليپّل قطعةَ الخُبزِ في إحدى فُتحاتِ حقيبتِه المدرسية، وأسرع في الذهاب، لكنّ السيّدة يعقوب لم تدعهُ يذهبُ ونادتهُ مجدّداً:

- خذ معطفكَ المطريَّ معك. فالجوُّ ماطر.

- لكنّ الشمسَ مشرقة!

- لذلك ينبغي أن تأخذَهُ معك. فعلينا أنْ نتوقعَ المَطرَ عند شروقِ الشمسِ والشمسَ عند نزولِ المطر.

- لكنّ معطفي المطريَّ اختفى. أكّد ليپّل. لقد طار هناك!

- هل هذ نكتةٌ جديدة؟ تساءلتِ السيدة يعقوب غاضبة، إنّه معلّقٌ هنا، أم أنّ هذا ليس معطفك؟

- آه. هذا هو. ثم حمل معطفَه المطريَّ ووضعه فوق ذراعِه وركض إلى المدرسة.

في المدرسة

كاد يصلُ متأخراً إلى المدرسة.

فقد تسلّلَ، من أمام مربيةِ الصفِّ السيدة كلوبي، ودخل بابَ الغرفة، وجلس في مكانه بسرعة.

كان أرسلانُ وحميدةُ يجلسانِ في المقعد، وكان ليپّل مصاباً بالذهولِ بعض الشيء، فهمس قائلاً:

- لقد كانت عاصفةً في ما أظن.

- أيّةُ عاصفة؟ تساءلت حميدة بدهشة.

- في هذه الليلة، قال ليپّل، في هذه الليلةِ عندما..

قاطعته السيدة كلوبي قائلةً:

- فيليب. لقد لاحظتَ، بالتأكيد، أنني داخلُ غرفةِ الصف، وأريدُ أن أبدأ الدرسَ حقيقةً!

- طبعاً، طبعاً، مفهوم. ردّ ليپّل وهو يُخرجُ من الحقيبةِ ما يتعلّق بدرسِ الرياضيات، لأن الحصةَ الأولى كانت لمادةِ الرياضيات.

لكنّه لم يستطع أن يصبرَ أكثر من خمسِ دقائقَ، فسألهما:

- هل عثرتُما على الطريقِ بسهولة؟ تساءل ليپّل ليعرفَ منهما ماذا حصل.

- أجل، كانتِ المسألةُ سهلةً جداً، ردّت حميدة ووافق أرسلان بإحناء رأسه.

- ماذا حصل لخالتكم؟ سأل ليپّل.

- أيةُ خالةٍ تعني؟ سألت حميدة وهي تشعرُ بالدهشة.

- أعني زوجةَ عمكُم، الخضراء... قال ليپّل.

- زوجةُ عمّنا. لكنّها ليست في ألمانيا، لقد ظلت في الوطن، هناك في تركيا. أجابت حميدة.

- هذا أمرٌ غيرُ لطيفٍ بالتأكيد. ردّ ليپّل بهمس.

وعندما أرادت حميدة أن تعرف مقصدَه، صاحت المعلّمة:

- فيليپ! حميدة! لقد عُدتما للحديث مجدّداً؟ هل يمكن أن تتكرّما بالإصغاء؟

بقي ليپّل مصغياً لمدةِ عشرِ دقائقَ هذه المرّة، وما إن شرعتِ السيدة كلوبي بالإعلانِ عن الوظيفةِ المنزليةِ واستدارت نحو السّبّورةِ حتى همسَ ليپّل:

- أنت، يا أسلم!

هزّ أرسلان رأسَهُ غاضباً وأجاب:

- أنا لستُ اسلم. أنا أرسلان. وكانت هي المرةَ الأولى التي يتحدث فيها.

توقّفتِ السيدة كلوبي عن الشرحِ ونظرت إلى آخرِ الصفّ، حيث يجلسُ ثلاثتُهم، نظرةً مملوءةً بالتأنيب، لكنّ الثلاثةَ لم يلاحظوا ذلك.

- آه. صحيح. أرسلان. ثم كرّر ليپّل الاسمَ بهدوء: أرسلان.

- صحيح. أرسلان هو الأسد. قال أرسلان.

- ماذا تقصدُ بهذا؟ سأل ليپّل.

- إنّه الأسد. كرّر أرسلان جملته ثم أطرق تماماً.

فقالت حميدة: إنّ معنى كلمة أرسلان بالألمانية هو الأسد.

- آه، هكذا إذن. قال ليپّل. اسمٌ جميل: أرسلان، الأسد.

- يكفي، يكفي، لقد بالَغتُم في الحديث. وليس لديَّ القدرةُ على تحمُّلِ إزعاجاتِكم كلَّ خمسَ عشرةَ دقيقةً، لذلك سأقومُ في نهايةِ هذه الحصّة، بإبعادكم عن بعضكم. فيليپ! تحرّك إلى اليمين، أرسلان! إذهب إلى اليسار! آملةً أن يكون الإزعاجُ القادمُ من آخرِ الصف أقل.

- هل لاحظتَ أنّك تجلبُ المصائبَ كلّما تحدثت! إنّ النجومَ تقولُ الحقيقة. كان ليپّل يستطيع أن يهمسَ بهذا الكلام في أُذنِ أرسلان المرتبك، لكنّ المعلمة كانت قد طلبت منه أن يجلسَ على المقعد المجاور.

اشترى ليپّل في الاستراحةِ شوكولاته ـ الكراكي، وتقاسمَها مع أرسلان وحميدة.

- كيف عرفتَ أن خالتي ليستْ لطيفة؟ سألتهُ حميدة وهي تقضمُ قطعةَ الشوكولاته.

فتردّد ليپّل في الإجابة. وكان يتمنّى أن يُجيب:



- لقد حدثتُكما في هذه الليلةِ بما صَنعت! لكنّه خشيَ أن يُتّهمَ بأنه عاد مجدداً إلى الخلْط بين الحلمِ والواقع.

لهذا أجاب:

- لا أعرفُ حقيقةً. لكنَّ الخالاتِ عموماً غيرُ لطيفات.

- هذا صحيح. أكّدت حميدةُ قولَه ثم أضافت: لقد أمضيتُ العطلةَ في تركيا، وقد ضربتني خالتي، ومنعتني من الخروجِ من المنزلِ طيلةَ النهار.

- يا للوقاحة! لماذا فعلتْ ذلك. سأل ليپَل.

- لأنني خرجتُ ونسيتُ أنْ أضعَ المنديلَ فوقَ رأسي.

- المنديل! تساءل ليپَل. أيُّ منديل؟ وما شكلُه يا ترى؟

ضحكت حميدة وقالت:

- إنَّ أسئلتَك تبعثُ على الضحك. لماذا تريدُ أن تعرفَ ذلك على وجه التحديد؟ إنه منديلٌ أحمرُ، مُزيَّنٌ بالورود.

- تماماً. إنّه على تلكَ الشاكلة. أكّد ليپَل.

- إنّك تهذي. قالت حميدة ضاحكةً ثم أضافت: هذا أمرٌ ليسَ في وسعِك أن تعرفه.

- لا داعي للسخرية منّي. قال ليپَل وهو يشعرُ بالإهانة، ثمّ توجّه إلى غرفة الصف. كيف له أن يوضّحَ لحميدة، أنّ المنديلَ الأحمرَ المزيّنَ بالورودِ هو الذي حماهُ في هذه الليلةِ من العاصفةِ الصحراوية! المنديلُ الأحمرُ الذي أهدته الأميرةُ له، والتي تشبهُ حميدةَ إلى حدٍّ كبير، والتي لها أخٌ لا يتفوّهُ بكلمة.

أما الحصّتانِ اللّتانِ أعقبتا الاستراحة، فقد كانتا مخصصتينِ للّغةِ الألمانيةِ وللعلوم الاجتماعية.

توجّه ليپَل بالسؤالِ إلى السيدة كلوبي قائلاً:

- هل تسمحينَ لي أن أجلسَ إلى جانبِ أرسلان؟

- بشرطِ أن لا تتحدثا معاً أثناءَ الدرس. ردّتِ المعلمة.

جلس ليپَل إلى جانبِ أرسلان، ولم يتحدث على الإطلاق.

وعندما انتهى دوامُ المدرسةِ، تمشّى ليپَل مع أرسلان وحميدة على امتداد شارع هيردر، وظل يسيرُ حتى انعطفَ يميناً إلى شارع فريدريش روكرت، حيث تسكنُ عائلته.

زيارة للسيدة يشكي

لم يكن في وجبةِ الغداءِ ما يلفتُ النظر:

كانت الوجبةُ تتكوّنُ من المعكرونةِ المشويّةِ، مع زهرةِ القرنبيط. ونظراً لأنّ كلاًّ من ليپَل والسيدة يعقوب، كانا غيرَ راغبيْنِ في الحديث، فقد تناولا وجبةَ الغداءِ دون أن يتبادلا الحديث.

بعد الغداءِ توجّهَ ليپَل إلى غرفته، وظلّ فيها حتى فرغَ من واجباتِه المنزلية. وعندما تأمّلت السيدة يعقوب دفترَهُ، اكتشفت أنّ قطعةَ الخبزِ ما تزالُ موجودةً في أحدِ جيوبِ الحقيبةِ المدرسية. فسألته:

- ما معنى هذا؟ ولماذا لم تأكلْ قطعةَ الخبزِ هذه في الاستراحة؟

- لقد نسيتُها. ردّ ليبل.

- إذن فستأكلُها غداً. هيّا اذهب وضعها في الثلاجةِ حتى تبقى طازجة. قالت السيدة يعقوب بحزم.

وعندما قام ليپَل بذلك سألها:

- هل تسمحينَ أن أقرأ قليلاً في الكتاب؟

كانت إجابةُ السيدة يعقوب مختصرةً، مثلما توقّعها ليپَل:

- كلا! لن أسمح لك.

فقال ليپَل:

- إذن سأقومُ بزيارةِ السيدة يشكي. ثمّ غادرَ المنزلَ بسرعةٍ قبل أن تتمكّنَ السيدة يعقوب من الاعتراض.

كانت السيدة يشكي تقفُ أمامَ بوابةِ المنزل، وتقومُ برمي بقايا الطعام لأحدِ الكلاب، عندما وصل ليپَل.

- مرحباً يا ليپَل. رحّبت به بودّ. ثم أشارت إلى الكلبِ قائلةً: إنّه يتسكّعُ هنا منذ الصباحِ، فإما أن يكون قد ضلّ الطريقَ، وإما أن يكون أصحابُه قد سافروا لقضاءِ إجازتِهم وتركوهُ وحده، لهذا وضعتُ له الطعام. ثم التفتتْ نحو ليپَل وقالت:

- والآن هيا ادخل، فقد جاء الدورُ لكي أُطعمكَ أنت!

- ليس ضرورياً، قال ليپَل، وهو يتبعُها، لقد سبقَ أن تناولتُ طعامَ الغداء.

- لكنك لم تأكلِ الفراولةَ المحفوظة. ردّت السيدة يشكي.

- لا. لم آكل سوى المعكرونة المشوية.

- أرأيت؟ فقد فاتك تناولُ الحلوى بعد الغداء، قالت السيدة يشكي ثم تناولت وعاءً زجاجياً وملأت صحنَين حتى حافّتيهما وقالت: ينبغي أن نحتفلَ بهذه الزيارة.

جلس كلاهُما إلى طاولةِ المطبخ، وأخذا يأكلانِ الفراولة باستمتاع.

- إنّ لكَ شيئاً معي، ومدّت يدها حتى وصلت إلى جيبٍ في داخل حقيبتِها فاستخرجت شيئاً منه وقالت: خذ! إنها خمسُ نقاطٍ من نقاطِ التجميع. إنني أظنُّ أنني أخذتُ أشربُ في المدّةِ الأخيرةِ ضعفَ

ما كنتُ أشربُ في السابقِ من الحليب، لأنني أعدو خلفَ النقاط.

- شكراً، شكراً جزيلاً سيّدة يشكي، فلعلّي بذلك أتمكّنُ من تجميعِ النقاطِ المئةِ المطلوبةِ حتى نهايةِ الأسبوعِ، لأنني أخسرُ من النقاطِ أكثرَ مما أجمعُه في هذه الأيام.

- أنت تخسرُ النقاط! هذا أمر غيرُ معقول - قالتِ السيدة يشكي ضاحكةً - فأنت كالوَشَق(*) في اليقظة، كما هو معروف.

- إنني لا أتحملُ مسؤوليةَ هذا الأمر. ردّ ليپَل ثم أخذ يحكي ما وقع له منذ أن قدِمتِ السيّدة يعقوب، ابتداءً من نقاطِ التجميع، وحساءِ البندورة، والكتاب.

كانت السيّدة يشكي تُصغي إلى الحكايةِ باهتمام، وتهزُّ رأسَها بين الحينِ والآخرِ، غير قادرةٍ على تصديقِ ما يقع. ولمّا انتهى ليپَل قالت:



(*) ويُسمّى عناق الأرض، وهو من الحيوانات الثديية الآكلة للحوم. والوَشَق من فصيلة السِّنَّوريات، وهو حيوانٌ شرس، متوسطُ الحجم، ويختلف لونُ فرائه تبعاً للبيئة التي يحيا فيها.

ـ يا للغباء! لقد اختفى الكتابُ الآن وأنت لا تدري كيف ستكتملُ الحكاية. إنّني أعرفُ هذه المشاعر، فأنا أقرأ الرواية التي تنشرُها الصحيفةُ على حلقاتٍ، ولا أكادُ أطيقُ الصبرَ حتى صباحِ اليومِ التالي. أما أنت فيتوجّبُ أن تنتظرَ ما يقربُ من أسبوع. يا للغباء!

ـ صدقتِ، إنّ هذا أمرٌ غبيّ ـ قال ليهَل ـ وإن كنتُ أستطيعُ أن أتخيَّلَ كيف يمكنُ للحكايةِ أن تسيرَ، فقد واصلتُ الحُلُمَ بها.

ـ واصلتَ الحلمَ بها! هذا لونٌ من البراعة. ضحكتِ السيدة يشكي، ثم قالت: عليكَ أن تواصلَ الحُلمَ بالحكاية! هذا أمرٌ بارعٌ تماماً!

ـ ليس الأمرُ بارعاً إلى المستوى الذي تظنّين. فأنا لم أحلُم بغيرِ مشهدٍ واحدٍ من مشاهدِ الحكاية. إنّ الحكايةَ لم تتمَّ فصولاً.

ـ لا حلَّ هنا إلاّ باللجوءِ إلى الحُلُم المتواصل. جرّب فلعلَّ الحظَّ يكون حليفَك. قالت السيدة يشكي بلهجةٍ جادّة.

ـ ولكن ما معنى الحُلُم المتواصل؟

ـ ألم تجرّبْ ذلك من قبل؟ أنا لم أجرّبِ الأمرَ إلاّ مراتٍ نادرة. ولكنني عندما أعيشُ هذه التجربة، أتمتّعُ بأجملِ الأحلام.

ـ لكنّني لم أعرف حتى الآن ما معنى الحلمِ المتواصل!

ـ لا أدري كيف أشرحُ الأمرَ لك، لكنْ دعني أقرّبُه لك:

يحلُمُ المرءُ بحكايةٍ، فينتهي الليلُ ويقتربُ الحلمُ من النهايةِ، والحكايةُ لم تنتهِ بعد. يواصلُ المرءُ الحلم من حيثُ سبق أن توقف في الليلةِ الماضية، ويبقى على هذه الشاكلةِ حتى تنتهيَ الحكاية.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ ليس في جميعِ الأحوالِ، غير أنّ الحظَّ قد يحالفُ المرء. وعندها يتحقّقُ هذا النوعُ من الحُلُم. أكدت السيدة يشكي.

وقد كان لدى ليهَل تساؤلٌ آخر:

ـ هل في وُسْعِ أناسٍ مختلفينَ أن يشاهدوا حكايةً واحدةً في الحلم؟ فعندما أحلمُ بأرسلانَ وحميدة، فهل يحلمان هما معي في الوقتِ نفسه؟

كانت السيدة يشكي تحرّكُ رأسَها حائرةً، ثم أجابت:

ـ هذا أمرٌ لا يقعُ في دائرةِ المستحيل. لكنّي لا أعتقدُ أنّ مثل هذا الأمرِ يحدث. ثمّ من هُم هؤلاء...؟

فأكمل ليهَل:

ـ أرسلان وحميدة. إنهما تلميذانِ جديدانِ من أبناء صفّي. أما أرسلان فهو صامتٌ لا يتحدّثُ، لأنّ النجومَ ترى ـ آسف، ذاك أسلَم وليس أرسلان، وأسلمُ أميرٌ، لا يجوزُ له أن يتكلّم.

ـ وهل هو في صفّك؟

ـ كلاّ، كلاّ، لقد كان في الحُلم.

ـ أهو لا يتكلّم؟

ـ نعم، إنه لا يتكلّم. أما ابن صفّي فاسمُه أرسلان.

ـ لقد فهمتُ الأمر! وأرسلان يتحدّثُ بطبيعةِ الحال.

ـ كلاّ. إنه هو الآخرُ لا يتحدّث.

ـ أرسلان لا يتحدّثُ أيضاً! إنّ المسألةَ معقّدة.

ـ كما أنّ أمرَ حميدة لا يقلُّ تعقيداً. فاسمُها في الحلم حميدة، ومعها منديلٌ أحمرُ مزينٌ بالورودِ، أسهمَ في حمايتي من العاصفةِ الرملية.

ـ نعم. استوعبتُ الأمرَ الآن. إنّ حميدةَ الموجودةَ في الحلم تمتلكُ المنديل.

ـ كلا! إنّها حميدةُ الحقيقيةُ ابنةُ صفّي.

- لقد اختلطتِ الأمورُ عليّ، وغدوتُ في حَيْرةٍ من أمري، لا أعرفُ من هذا ومن ذاك!

- تماماً. ردّ ليبَل. وهذا هو أصعبُ ما في الحكايةِ، وهنا تكمنُ مشكلتي. فمن الضروري أن أواصلَ الحُلمَ بالحكايةِ إلى نهايتها، وإلاّ ازدادت حيرتي.

- لقد أخبرتُكَ وأكّدتُ لك أنّه لا حلّ في هذه الحالةِ إلاّ باللجوءِ إلى الحلم المتواصل.

- إذن سأعودُ إلى المنزل. ثم نهض ليبَل وقال: شكراً جزيلاً على النقاطِ، وعلى هذا الحوارِ الممتع.

فردّتِ السيدة يشكي ضاحكة:

- أنت هنا على الرّحبِ والسّعة. ولكن فيمَ العجلةُ كي تعودَ إلى المنزل؟ فما تزال الساعةُ السابعةُ مساءً.

- لا، لا. ينبغي أن أذهبَ إلى سريري. ردّ ليبَل في أثناءِ مغادرتهِ للمنزل ثم أضاف: إنّ عليّ أن أخلدَ إلى النومِ في الحال، وإلاّ تعذّرَ عليّ الحُلمُ بالحكايةِ إلى نهايتها.

كان من الطبيعيّ أن يهطلَ المطرُ بغزارةٍ عندما غادرَ ليبَل منزلَ السيدة يشكي، ولم يكن ليبَل قد حملَ معه معطفَهُ المطري، ومع أنه أسرعَ بالعودةِ إلى منزله، إلاّ أنه قد وصلَ إليه وثيابُه مبتلّةٌ تماماً.

نادته السيدة يعقوب وطلبت منه أن يأتيَ إلى المطبخ وهناك أخبرته أنّها تلقّت اتصالاً هاتفياً من أمّه وأبيه، وهو خارجَ المنزل.

- ماذا قالا؟ وكيف حالهما؟ سأل ليبَل وهو يشعر بالقلق، وأضاف: هل سيقومان بالاتصال ثانية؟

- لا أظن، ردّتِ السيدة يعقوب. فقد أخبرتُهما أنّك مرتاحٌ تماماً وأنّ أمورَك على ما يُرام.

- هل تسمحين لي أن أتّصل بهما؟ سأل ليبَل.

- لا فائدة من اتصالك، فهما خارجَ الفندقِ الآن، لهذا قاما بالاتصال عصرَ اليوم. ردّتِ السيدة يعقوب ثم تابعت: لم أخبرهما أنك كنت سيءَ السلوك، لأنني لم أُرد أن يشعرا بالقلق.

- يا للأسف. قال ليبَل.

- للأسف! تساءلت السيدة يعقوب. هل كان يتوجب عليّ أن أخبرَهما بقصة الكتاب؟

- أعني بكلمة الأسف، أنه لم تُتح لي الفرصةُ كي أكلمَهما أثناء وجودِك. ردّ ليبَل.

- إنّ من يغادرُ منزله عصراً، لا يحق له أن يشكو عندما تفوته مكالمةٌ هاتفية. ردّت السيّدة يعقوب.

بهذا انتهى الحديثُ عن الاتصال الهاتفي. بعدها طلبت منه السيّدة يعقوب أن يُغيّرَ ملابسَه المبتلّةَ وأن يهيئَ نفسَه لتناول طعام العشاء. بعد أن تناولا طعامَ العشاء (المكوّن من سلطةِ الأرزّ والبيض المسلوق)، استأذن ليبَل بالذهاب إلى سريره لينام. فظنّت السيدة يعقوب أنّها لم تحسنِ الإصغاءَ إلى ما قاله فسألته:

- ماذا تريد؟

- أريد أن أذهبَ إلى سريري. كرّر ليبَل قوله.

- لماذا؟ إنّ الضوءَ يملأ الدنيا في الخارج.

- أستطيع أن أُسدلَ الستائرَ في الغرفة.

- لماذا تريد أن تنامَ مُبكراً؟

- أريد أن أنام!

- أنت لا تستطيعُ إقناعي بأنك تريد أن تنام! لا بُدّ أنّ لديك أمراً ما!

وإيّاك أن تظنَّ أنك قادرٌ على العودةِ إلى خزانةِ الحائط!

ـ لا. إنني أريدُ فعلاً أن أنام.

ـ لا أسمحُ لك بذلك.

ـ كيف لا تسمحين لي؟ تساءل ليپّل. لماذا لا يجوزُ لي أن أنام؟

ـ لأنّ... لأنّ... لأن أدوات المائدة لم تُنظَّف بعد... ويبدو أنّ هذا هو الذي خطر ببالك. وأنا لا أودُّ أن أقومَ وحدي بتنظيفها.

ـ حسناً سأفعلُ ذلك بسرعة، وأنام.

فتح ليپّل صنبورَ المياه وملأ الحوضَ وأضاف موادَ التنظيفِ، وشرع ينظّفُ أدواتِ الطعام.

ـ لِمَ العَجَلة؟ يكفي أن تساعدني أنت في تنشيفِ الأدوات. وأنا سأقومُ بتنظيفها. كانت السيدة يعقوب تشعرُ بالقلق، لأنها كانت تخشى أنّ لدى ليپّل أمراً سرياً يخفيه عنها. وعندما سألته عنه اكتفى بالردّ: إنه ذاهب لينام.

نظّفت السيّدة يعقوب أدواتِ الطعام تنظيفاً دقيقاً وكاملاً. وكان ليپّل يقف إلى جانبها ومعه فوطةُ التنظيف، وقد أخذ صبرُه ينفَد. وأخيراً انتهتِ السيّدة يعقوب من جَلي الأدواتِ وتنظيفِ المطبخ، فالتفتت نحو ليپّل وقالت له بودّ:

ـ أظنّك ترغبُ في مشاهدةِ التلفزيون قبل أن تنام. وليس لدي مانعٌ هذه المرة.

لكنّ ليپّل لم يكن يريدُ شيئاً سوى أن تسمح له بالذهاب إلى سريره. عندها لم يتبقَّ لدى السيدة يعقوب إلاّ تذكيرُه بأن يقومَ بالاستحمام وتنظيفِ أسنانه وتمشيط شعره.

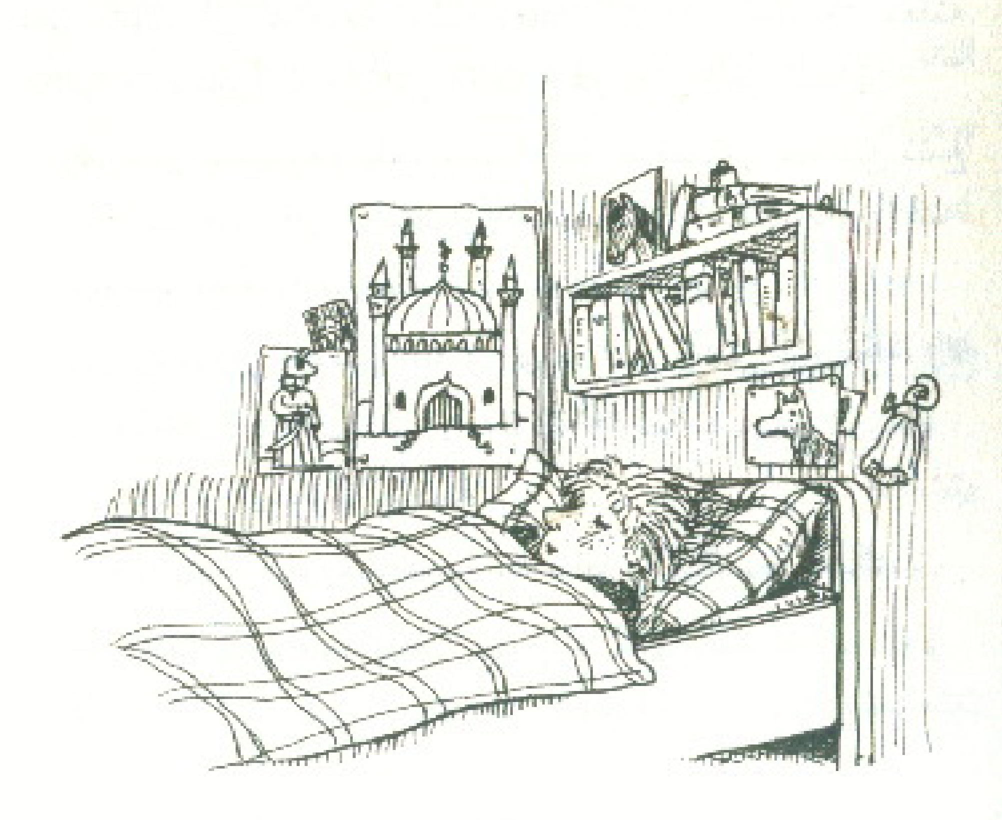
ـ لماذا أمشّطُ شعري؟ إنني سأنام. احتجّ ليپّل.

ـ لا بأس، لا تفعل ذلك. ردّتِ السيدة يعقوب برحابة صدر. لكنّ عليك أن تعودَ إلى هنا لتقول لي: تصبحينَ على خير.

ـ كما تشائين. ردّ ليپّل بنَزَق، واستحمَّ بسرعةٍ ونظّف أسنانَهُ ثم صاح بصوتٍ عالٍ وسريع:

ـ تصبحينَ على خير!

وهكذا تمكّنَ ليپّل من الذهابِ إلى سريره. فأحكم الغطاءَ على نفسه، واضطجعَ على يمينه، ثمّ على يساره، وبينما كانَ يفكّرُ في نهايةِ الحلمِ الأولِ الذي شاهده، أخلدَ إلى النومِ وبدأ يحلُم.



الحلم الثاني



أخذَتِ العاصفةُ الرمليّةُ بالتلاشي، وتوقّفت فجأةً مثلما سبق لها أنْ هبّت فجأة. لحظتَها نهض ليهَل ببطءٍ عن الأرض، فنظّفَ وجهَه، وهزّ جسمَه لتتساقطَ حباتُ الرملِ عن شعرِه وملابسه.

ولما شرع يتأمّلُ وجد الصحراءَ تمتدُّ على مدى بصرِه إلى ما لا نهاية، ولم يرَ سوى الرمالِ والكثبانِ الرمليّة.

أمّا الواحةُ فقد اختفت ولم يعُد قادراً على رؤيتِها. وأما حصانُه فمن المؤكّدِ أنّ العاصفةَ أخذتهُ بعيداً، لأنّ هذه العاصفةَ جعلتهُ عاجزاً عن تقديرِ المسافةِ التي قطعَها وهو يعدو خلفَ الآخرين.

وقد كان يأملُ وهو يقفُ تحت أشعةِ الشمسِ أن يستطيعَ تتبُّعَ خطواتِ أصدقائهِ على الرمال، وأن يعرفَ الاتجاهَ الذي ساروا فيه، لكنّه لم يستطع لأنّ العاصفةَ محت آثارَ خطواتِهم.

كان وحيداً في الصحراء، لا يدري ما الذي ينبغي أنْ يفعلَه، ولا يدري لماذا تركاهُ يعاني من الوحدة. ثم أخذ يتساءل:

هل عليه أن يرجعَ إلى الواحة؟

لكنّه يُدركُ أنّ العودةَ محفوفةٌ بالمخاطر، لأنّ الحرسَ هناك.

وهل عليه أن يواصلَ السير؟

كان يدرك أنّه سيموتُ من العطشِ لا محالة.

لم يتوقّف ليهَل عن مناداةِ أسلم وحميدة، وقد خشيَ أن يكون الحرسُ على مقربةٍ منه، فيسمعونه ويعرفون مكانه.

ثمّ جلس فوق الرمالِ عاجزاً عن اتخاذِ قرار. فقد غادرهُ الجميع.

أحس ليهَل بدموعِه تبلّلُ خدّيه. ونظراً لأنّه وحيدٌ في الصحراء لا يراه أحدٌ، فقد ترك هذه الدموعَ تنسابُ فوق خدّيه، وحنى رأسَه على ركبتيه وشرع يبكي.

فجأةً، أحس ليهَل بصوتٍ ما على مقربة منه. كان الصوتُ شبيهاً بتنفُّسِ حيوانٍ كالأسدِ أو لعلّه حيوانٌ مفترسٌ آخر.

وقف ليهَل فزِعاً ومسح دموعَه: فرأى كلباً على مقربةٍ منه. كان كلباً هزيلاً، بنيَّ اللونِ، ذا عينينِ فاتحتينِ، وبقعةٍ سوداءَ على صدره. كان الكلبُ ينظر إلى ليهَل بريبةٍ وخوف.

هل هو كلبٌ مسعور؟ وهل هو خطير؟ خطا ليهَل بحذرٍ شديدٍ نحو الكلب، فتراجعَ الكلب. كان يبدو خائفاً من ليهَل، بمقدارِ ما كان ليهَل يخشاه.

جلس ليهَل على الرمال وأخذ ينادي الكلب:

ـ تعال! هيّا تعال! هيّا تعال إليّ. وكان يدعوه بصوتٍ خفيض.

جاء الكلبُ ببطءٍ وحذر.

وعندما تبيّنَ للكلبِ أنّ ليهَل لن يؤذيه، اقترب منه وصار يتشمّمُه.

ـ يا لك من كلبٍ شجاع!

وعندما أخذ ليهَل يُربّتُ على ظهرِ الكلبِ بحذرٍ، بدأ الكلبُ يحرّكُ ذيلَهُ بحذرٍ شديد.

- جميل أنك قد جئت! فأنا لم أعُدْ وحيداً، حتى لو كان من يصحبُني هو هذا الكلب.

صار الكلبُ يئنُّ، وترك المجالَ للفتى كي يُربّتَ فوق ظهره.

وبعد مدّةٍ من الزمن، ابتعدَ الكلبُ عن ليبَل، وركض بضعَ خطواتٍ، ثم توقّفَ وصار ينظرُ إلى ليبَل وكأنه يدعوهُ ليتبعه. فسأله ليبَل:

- هل أجيءُ معك؟ هل هذا قصدُك؟ تساءلَ ليبَل وهو يخطو في الرمالِ باتجاه الكلب.

بعدها ركض الكلبُ بضعَ خطواتٍ أخرى وانتظر.

كان الأمرُ شبيهاً باللعبة:

يركضُ الكلبُ، ثم ينتظرُ، ويقومُ ليبَل بالسير نحوه. وظلاّ على هذه الشاكلةِ ما يقربُ من الساعةِ، حتى شاهدَ ليبَل زوبعةً ترابيةً سوداء.

أُصيب ليبَل بالرعبِ في بادئ الأمر، لأنّه ظنّ أنّ عاصفةً رمليةً في الطريق إليه. ثم تنبّهَ إلى أنّ هذه العاصفةَ تقتربُ منه، دون أن تكبُرَ كثيراً. كان أحدُ الخيّالةِ قد صنعَ هذه الزوبعةَ، وقد يكونون بضعَ خيّالة!

كان الأمرُ يبعثُ على الخوف. فما الذي عليه أن يفعلَهُ إذا كان هؤلاء الخيّالةُ هم الحراسَ الذين جاؤوا به؟ فلعلَّ هؤلاء الحرّاسَ قد عثروا على خيولهم وساروا في الصحراءِ على غيرِ هدىً، بحثاً عنه وعن أسلمَ وحميدة.

إنّ عليه أن يختبئَ على الفور في مكانه.

رمى ليبَل بنفسه والتصق بأحدِ الكثبانِ الرملية.

ولكنْ ماذا عن الكلب؟

لا بُدَّ أنه سيفضحُ المكانَ الذي يختبئ فيه، إن لم يُسرع ليبَل ويجرّه معه، ويُجلسْه إلى جانبه.

ظلّ ليبَل ينادي الكلبَ بصوتٍ منخفض.

- تعال أيها الكلب! تعال سريعاً! هيّا تعال!

بدا وكأنّ الكلبَ سيبدأُ لعبة جديدة. فقد تقدّم نحو ليبَل، ثم تراجعَ بضعَ خطواتٍ، عندما بدأ ليبَل يحاولُ الإمساكَ به.

ظلّ ليبَل ينادي الكلبَ وهو يشعر باليأسِ، لكنّ اللعبةَ ظلت تتكرر. ازداد ليبَل يأساً وغضباً فصرخ:

- تعالَ إلى هنا أيّها الكلبُ الخسيس؟

اقتربتِ الزوبعةُ كثيراً، فاستطاع ليبَل أن يرى أن الترابَ كان يُخفي أكثرَ من فارسٍ، الذين سرعانَ ما اكتشفوا الكلبَ، وليبَل.

لجأ ليبَل إلى الحيلةِ. فتظاهرَ بالموتِ، وتوقفَ عن الحركةِ والتنفُّس. حتى أخذَ الكلبُ يشمُّ بفضولٍ قدمَي ليبَل ويدَيه، ثم انتقلَ إلى شعرِه عندما لم يُبدِ ليبَل نوعاً من الحركة.

عندما ضمَّ ليبَل الكلبَ وأمسكَ به بقوةٍ، وعندما أراد أن يسحبَهُ نحوه، هربَ الكلبُ وبدأ ينبحُ، وصار يعدو خلفَ الخيّالةِ وقد علا نباحُه.

كان ليبَل يستلقي في ظلالِ الكثيبِ الرمليّ، وقد تجمّدَ من الخوفِ، دون أن يجرؤَ على النظرِ، وهو ينتظرُ لحظةً بلحظةٍ أن يقومَ رجالٌ أشدّاءُ بأخذِه معهم.

علا صوتُ النباحِ، وصار أكثرَ حدّةً. فجأةً توقفتِ الخيلُ، وتلاشى وقعُ خطواتِها، فقد اكتشفوا الكلب.

وأخذ ليپّل يتنفسُ من جديد.

صاح صوتٌ أُنثويٌ وهو مملوءٌ بالمفاجأة:

- هذا هو موك. انظر يا أسلم! إنّه الكلبُ الشجاع!

كان الصوتُ، صوتَ حميدة.

قفزَ عندها ليپّل.

كان ثمةَ حصانانِ يقفانِ إلى جواره، وعلى ظهرَيْهما فارسانِ عرفهما في الحال: إنهما أسلم وحميدة.

نزل أسلمُ عن جوادِه، وأخذ يُربِّتُ على ظهرِ الكلبِ، الذي حيّاهُ بكل ما لديهِ من إشاراتِ المحبّةِ والودّ.

كانت حميدةُ أوّلَ من رأى ليپّل. وقد أصيبت بالذعرِ عندما رأت أمامَها كائناً تُرابياً، لكنّها سرعان ما عرفتهُ ونزلت عن جوادها.

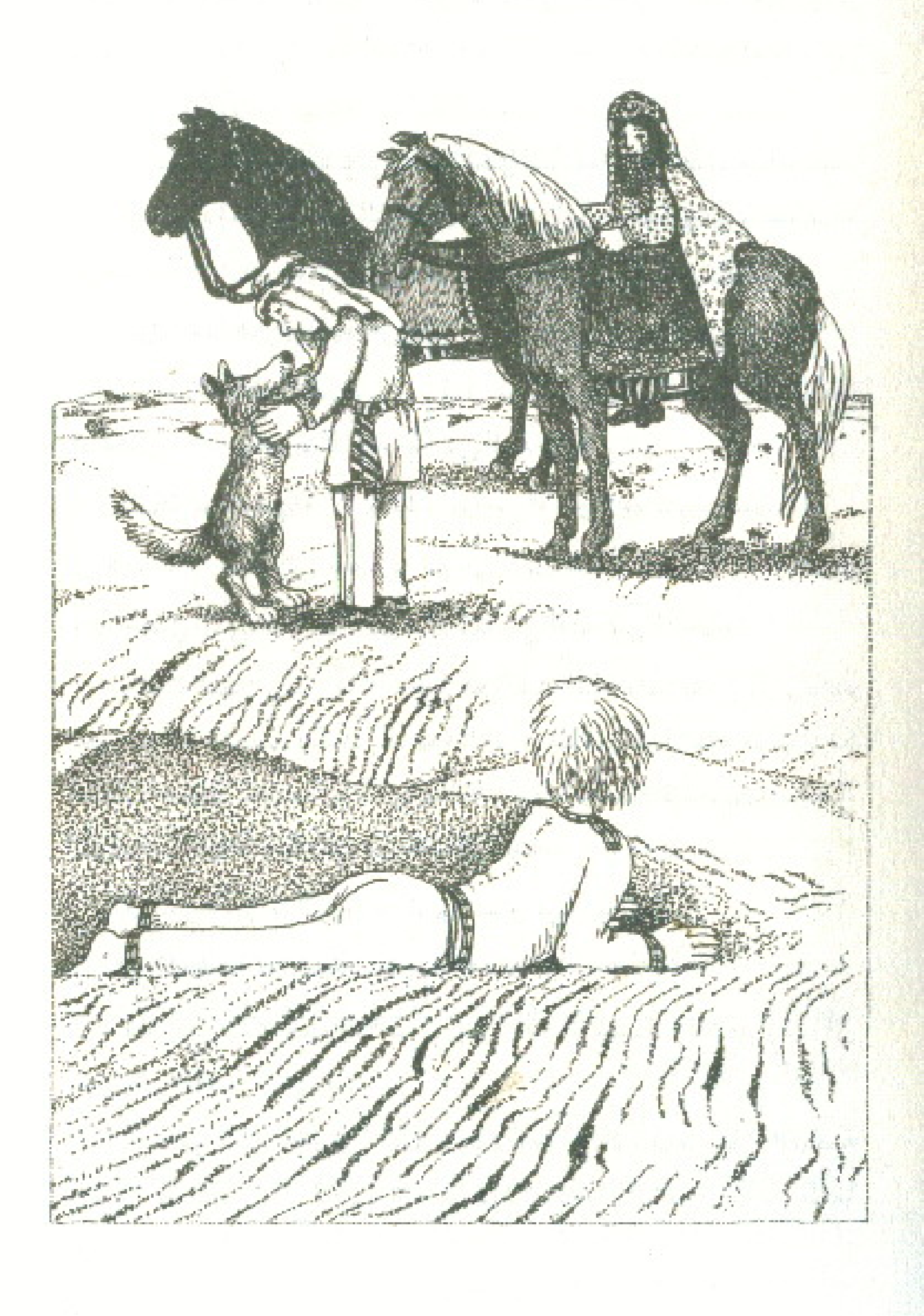
- ليپّل! ليپّل! أهذا هو أنت؟ أين ذهب جوادُك؟ ولماذا لم تبقَ معنا؟ إننا نبحث عنك منذ ساعات.

- لقد طوّحَ الحصانُ بي أرضاً، ثم اختفى. ردَّ ليپّل بصوتٍ خفيضٍ، ثم قال: وأنا الآخرُ فتّشتُ عنكما طويلاً.

عانقَ أسلمُ ليپّل وهو صامت. بينما قالت حميدة:

- لقد أُصبنا بالقلقِ الكبيرِ بسببك.

فأطرقَ أسلم.



- أنا في غايةِ السعادةِ لوجودِكما إلى جانبي - قال ليبِّل وهو يتنفَّسُ الصُعداءَ - والحمدُ للّه أنّنا وجدنا بعضَنا. فحكت حميدةُ وهي تشعرُ بالإثارة:

- تخيّل أنّ الذي دلّنا على بعضِنا هو كلبُ أسلم المُفضّل. ولعلّه لحق بنا عندما تمّ إخراجُنا من القصرِ، ثمّ أضاعَ أثرَنا بعد أن هبّتِ العاصفةُ الرملية. إنّه يُدعى موك. ثم أخذت تُربّتُ على ظهرِ الكلبِ وتقول:

- موك! هذا هو ليبِّل، سلِّم عليه!

- لا عليك! فلقد تعارفنا من قبل تردُّ ليبِّل وهو يربّتُ على رأسِ الكلبِ وسرنا معاً مسافةً طويلةً في الصحراء.

- وماذا سنصنعُ الآن؟ وكيفَ ستسير الأمور؟ سألت حميدة.

هنا أشار أسلمُ إلى حصانِه ثم إلى ليبِّل. فسأل ليبِّل:

- أتعني أنني سأركبُ الحصانَ وتمشي أنت على الأقدام؟

فضحك أسلم، وهزّ رأسَه نافياً. ثم أمسكَ أسلمُ بصديقه ليبِّل وقادهُ نحو جوادِه، وجعله يمتطي صهوةَ الجوادِ، ثم قفزَ فوق ظهرِ الجواد. ثم امتطت حميدةُ جوادَها وسار الثلاثةُ سريعاً بمحاذاةِ بعضِهم بعضاً، لدرجة أنّ موك لم يتمكّن من اللحاقِ بهم.

- إلى أين نحنُ سائرون يا ترى؟ سأل ليبِّل حميدة.

- إلى العاصمة! أجابت حميدة.

- أليسَ في ذلك خطورةٌ؟ سأل ليبِّل، لقد تمّ نفيُنا، ولا يجوزُ لنا أن نعودَ إلى القصرِ بسهولة.

- لن نعودَ إلى القصرِ، أجابت حميدة، بل سنختفي في المدينةِ يومين، بعدها يجوزُ لأسلمَ أن يتكلّم، وسيقومُ بإيضاحِ الأمورِ كلِّها لوالدي.

- وكيف تجدانِ الطريقَ وتعرفانِ أننا نسيرُ في الاتجاهِ الصحيح؟ أراد ليبِّل أن يعرف.

- إنّ أسلمَ هو الذي يتولّى زمامَ القيادة أجابت حميدة - وقد علّمه شيخُه السندبادُ كيف يعرفُ الاتجاهاتِ في الصحراءِ والشمسُ في كبدِ السماء. إنك تستطيعُ أن تثقَ بقيادته.

- ولكنْ كيف عرفتِ هذا كلّه؟ هل تحدّث أسلم معك؟

- كلاّ. بل خطّ ذلكَ بإصبعه فوقَ الرملِ، وأشار إلى أننا سنكونُ في المدينةِ خلالَ هذا اليوم.

ظلوا يسيرون خلال النهارِ ولم يستريحوا إلاّ قليلاً.

صارتِ الخيلُ أكثرَ تعباً وبطئاً. أمّا الكلبُ موك، فقد استطاع بصعوبةٍ أن يلحقَ بالقافلة.

أما الصحراءُ الرمليةُ فقد بدأت تتحوّلُ شيئاً فشيئاً إلى صحراءَ صخريةٍ، تنمو فيها بعضُ النباتاتِ، والعشبُ القاسي، وشجيراتٌ قليلةُ الأوراق.

ثم صارتِ الطبيعةُ تغدو بالتدريج أكثرَ جمالاً وبهجةً كلّما ساروا باتجاهِ العاصمة. فجأة أوقف أسلمُ حصانَه، فتوقفَ حصانُ حميدة.

- هل سنبيتُ هنا؟ تساءل ليبِّل وهو يدير وجهَه إلى أسلم، الذي نفى ذلك بهزةٍ من رأسه، وأشار إلى الأمام، فحدّقَ ليبِّل بقوّةٍ في الاتجاه الذي أشار إليه أسلم.

كانت طلائعُ إحدى المدنِ الشرقيةِ الطابعِ تلوح بعيداً في الأفقِ، حيث تظهرُ آلافُ المنازلِ البيضِ ذاتِ السطوحِ المستويةِ متلاصقةً فوق إحدى التلال. كانتِ المنازلُ متلاصقةً إلى الحدّ الذي يخيَّلُ فيه للمرءِ أنه يمكنُ له أن يقفزَ من سطحِ منزلٍ إلى سطحِ منزلٍ آخرَ دون

كبيرِ عناءٍ، وأن يتجوّلَ في أرجاءِ المدينة. وكانت تبدو في بعضِ المواطنِ القبابُ الكبيرةُ والصغيرة، التي تعلوها الأبراجُ البيضُ، وتلوّنُها أشعّةُ الشمسِ أثناء الغروب.

- هل هذهِ هي العاصمة؟ إنّها جميلة.

- ألا ترى بوّابةَ المدينةِ هناك؟ لقد عبرنا من خلالها عندما تمّ اقتيادُنا إلى الصحراء. أوضحت حميدة ثم أضافت: أما القبّةُ الذهبيةُ التي تعلو التلّةَ فهي تعودُ للقصرِ، حيثُ أعيش، ثم استدركت قائلةً بحزن: حيث كنتُ أعيش.

قفزَ أسلمُ عن حصانه، فقفزت حميدةُ وفعل ليپّل مثلهما. فبدأتِ الخيولُ بالرعي وبالتنقّلِ بين الأشجارِ والصخور.

بدا أسلمُ باحثاً عن شيءٍ ما، حتى عثَرَ في خاتمةِ المطافِ على منطقةٍ رمليّةٍ بين الصخورِ، فأشارَ لحميدة وليپّل أن يأتيا. فخطّ بإصبعِهِ فوق الرمل: «**دعوا الخيول! وإلاّ عرَفَنا الحرّاس**».

- هل سنعودُ إلى المدينةِ سيراً على الأقدام؟ تساءلَ ليپّل حزيناً. ثم أضاف: إنّ المسافةَ طويلةٌ جداً.

(لا تزالُ رجلاه تؤلمانِه من الرمالِ الساخنة). مسح أسلم ما سبق أنْ خطَّهُ بيده، كي يخطَّ من جديدٍ الرسالةَ التالية:

- «**افعلوا مثلي! وإلاّ عرَفَنا الحرّاس**».

تطلّع ليپّل وحميدةُ نحوه متسائلَيْن.

خلع أسلمُ قميصَه، وحكّه بإحدى الصخورِ القاسيةِ، حتى بدا قميصاً بالياً. ثم قام بنزعِ عددٍ من عُرى القميص الذي مرّغه بعد ذلك بالترابِ الرطبِ الذي استخرجَه من حفرةٍ مائيةٍ نصفِ رطبةٍ، حتى بدا القميصُ قذِراً وسيّئَ المنظر. ثم وضع الطينَ على يديهِ وفوق وجهه.

- هل من الضروريّ أن نفعلَ ذلك؟ تساءل ليپّل متردّداً.

فعلت حميدةُ مثلما فعل أخوها، ثم قالت وهي تلطّخُ وجهَها ورقبتَها بالطين:

- ألم تستوعبِ الأمر؟ إنّ منظرَنا يشيرُ إلى أننا من الطبقةِ العليا. وأبناءُ الطبقةِ العُليا هم موضعُ اهتمام، أما الأطفالُ القذرون فلا يلتفتُ إليهم أحدٌ، وستبدو لافتاً للنظرِ في هذا الزيّ الغريب.

أطرق أسلمُ مبتسماً، ثم أمسكَ بيديهِ القذرتينِ لباسَ النوم الخاصَّ بالفتى ليپّل وحاول أن يمزّقَ كمَّه.

- ما الذي ستقولُه السيدة يعقوب عندما تُشاهد ذلك؟ ستلعنُني بالتأكيد. قال ليپّل محتجاً، وهو يحاولُ أن يسحبَ كُمَّهُ حتى لا يتمزّق.

- يا فيليب! استيقظ وإلاّ تأخرتَ عن المدرسة.

كانت السيدة يعقوب تهزُّ ذراعَ ليپّل وتقول: - فيليب، لقد حان موعدُ استيقاظك من النوم. قُم هيا!

- آه. أهو أنتِ؟ قال ليپّل والنعاس يسيطر عليه، ثم نهض وجلس في سريره:

- هل أردتِ أنْ تمزّقي كمَّ لباسِ النوم؟

ضحكتِ السيدة يعقوب.

- لا أحدَ يريدُ تمزيقه. لقد أردتُ إيقاظَك. هل صحوت؟ قم من سريرك واذهب إلى الحمّام! وسأقومُ في هذه الأثناءِ بإعدادِ طعام الإفطار. هل تسمعُني؟

- طبعاً، طبعاً. ردّ ليپّل وهو ينهضُ ويقفزُ عن السرير.

كان يتحركُ في الحمّام وهو ما زال يشعرُ بالنُعاس، ولم يشعر بالنشاطِ إلاّ بعد أن استحمّ. ثم ارتدى ملابسه سريعاً ونزل إلى المطبخ.

الأربعاء

مـوك

لم تنسَ السيّدة يعقوب، هذه المرة، نقاطَ التجميع. فعندما وصل ليپّل إلى المطبخ ليتناولَ إفطارَه، وجد غطاءَ علبةِ اللبنِ التي تناولتها السيدة يعقوب، إلى جانبِ طبقِ الطعام، نظيفاً.

ـ شكراً على هذه النقطة. قال ليپّل وهو يجلسُ ليتناول الإفطار (واضعاً النقطة في جيب بنطاله).

ـ هل ستتناولُ في هذا الصباحِ شيئاً سوى اللبن؟

ـ أنا أفعل مثلكِ تماماً!

ـ لكن إيّاك أنْ تنسى قطعةَ الخبزِ المدهونة، وقتَ الاستراحةِ المدرسية! قالت السيدة يعقوب مذكّرةً إيّاه.

ـ طبعاً. طبعاً. ردّ ليپّل ثم أضاف: أتعرفين بماذا حلمتُ في هذه الليلة؟

ـ كيف لي أنْ أعرف؟

ـ لقد حلمتُ الليلةَ بكلب. كان كلباً بنيَّ اللونِ ووفيّاً.

ـ الحمد للّـه أنه كان مجرّد حلم.

ـ لماذا؟ تساءل ليپّل مندهشاً.

ـ الكلابُ وسيلةٌ لنقلِ أسوأ أنواعِ المرضِ كداء الكَلَب ـ ردّت السيدة يعقوب بحدّة ـ كما أنّها مليئةٌ بالبراغيث.

ـ غير صحيح على الإطلاق! فضلاً عن أنّ براغيثَها تختلف عن براغيثِ الناس.

ـ أرأيت؟ براغيث الكلاب! يا له من أمرٍ مقزّز! ولكن لا داعي للخلاف حول هذا الأمر. فالأحلامُ كالرغوةِ سرعانَ ما تتلاشى!

ونظراً لأنّ ليپّل لم يكن يمتلكُ الرغبةَ ليتشاجرَ مع السيدة يعقوب حول الكلاب التي يراها في منامه، فقد شربَ علبةَ اللّبنِ، وفتح الثلاّجة واستخرجَ منها قطعةَ الخبزِ وانطلق صوب مدرسته.

وفي اللّحظةِ التي أراد أن يتّجهَ فيها نحو شارع هيردر قادماً من شارع فريدريش روكرت، تسمّر في الشارعِ وأخذ يحدّق في الجانبِ الآخرِ من هذا الشارع، حيث كان يُقْعي أمام سياجِ إحدى الحدائقِ الكلبُ الذي رآه في منامه.

قام ليپّل باجتياز الشارع.

نهض الكلبُ عندما اقترب ليپّل منه وصار يُحرّكُ ذيلَه، وأخذ يعدو نحو ليپّل ويتحسّس يديه وينظرُ إليه نظراتٍ مملوءةً بالأمل.

كان هذا الكلبُ هو موك دون أدنى شكّ. وكانت له عيناهُ الفاتحتان، مثلما كان على صدرهِ البقعةُ السوداءُ ذاتُها. أم ترى كان هو الكلب الضالُّ نفسه الذي قامتِ السيدة يشكي بإطعامهِ يومَ أمس؟ فقد كان له هو الآخرُ بقعةٌ سوداءُ فوق صدره.

ـ مرحباً يا موك! قال ليپّل.

حرّك الكلبُ ذنبَه بقوّة.

ـ إنني أُناديكَ موك، بغضِّ النظرِ عمّن تكون. قال ليپّل ثم أضاف: تعال! تعال معي يا موك!

فلحقَ الكلبُ به ببساطة.

ـ اجلس يا موك! فجلس الكلبُ وأخذ يتطلّعُ إلى ليپّل بتفحّص.

فتح ليپّل حقيبتَه المدرسيّة، فأدخل موك رأسَه داخلَ الحقيبة.

- ابتعد! قال ليبَل ضاحكاً وهو يُبعدُ رأسَ موك بعيداً، ثم قال: أنت تعلمُ تماماً ما سأعطيك؟

استخرج ليبَل قطعةَ الخبزِ المخصّصة للاستراحةِ من ثنايا حقيبته، وأزاح المنديلَ الورقيَّ عنها، واقتطعَ منها جُزءاً صغيراً وناولَها للكلبِ موك الذي أخذَها من يده وأكلها بشيءٍ من الحذر.

- إنّها باردةٌ بعضَ الشيء، فقد كانت في الثلاّجة. قال ليبَل معتذراً. لكنّ موك أصدرَ صوتاً يوحي أنّه راغبٌ في المزيد من هذا الخبزِ البارد.

ظلّ ليبَل يُناولُ موك قطعةً وراءَ أخرى ثم أخذ يُلاعبُه فيقول له على التوالي: هيّا اجلِس! هيّا تعال! ثمّ تنبّه إلى أنّه في الطريقِ إلى المدرسة، وأنّه يتوجّب عليه أن يكونَ في الصفّ منذ وقتٍ مبكّر. فأخذ يُهرولُ ويركضُ ما تبقّى له من الطريق.

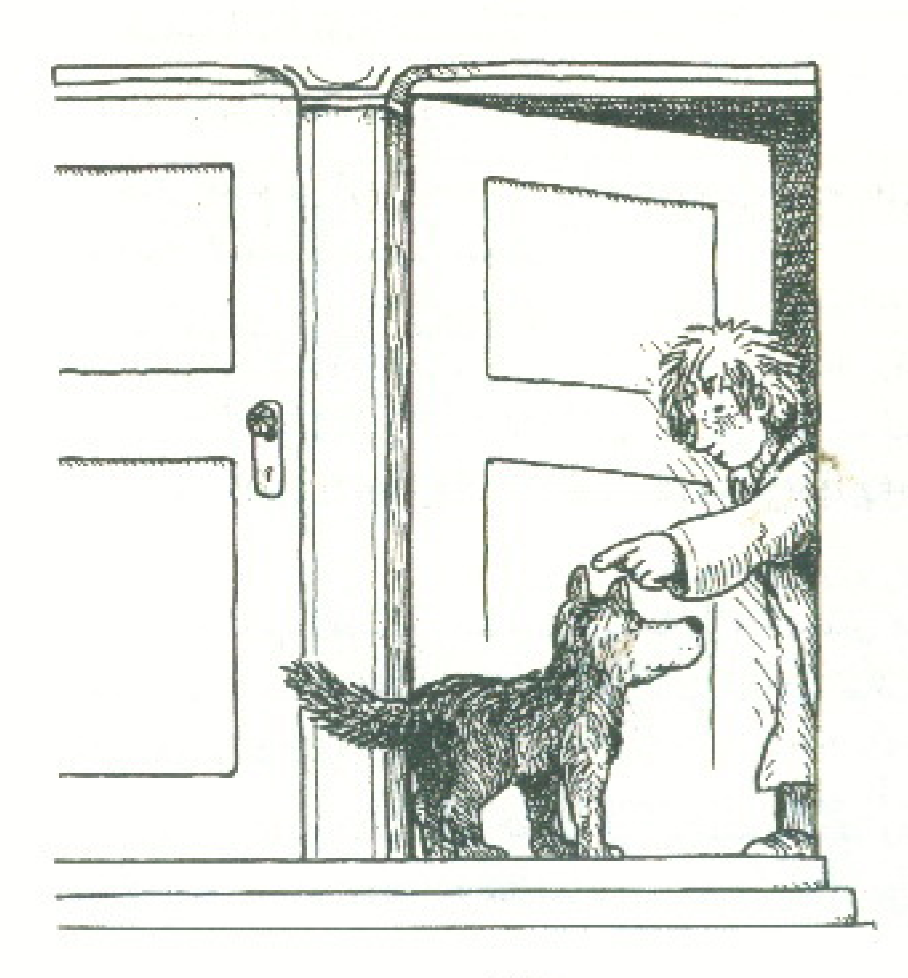
ظنّ موك أنّ هذا الذي يقوم به ليبَل هو لعبةٌ أخرى جديدةٌ، فشرع يركضُ خلفَه تارةً وأمامَهُ تارةً أخرى، وصار يحاولُ أن يداعبَه فيمسكَ بحقيبته المدرسيّة.

أخيراً وصل ليبَل إلى المدرسةِ وهو يلهثُ وأنفاسُه تتلاحق. كانتِ الحصةُ قد بدأتْ منذ زمنٍ، ولم يكن أحدٌ من الطلبةِ خارجَ الصفوف، فقد كانوا جميعاً في صفوفهم. وكان من الصعبِ على ليبَل أن يُقنعَ موك باستحالةِ أن يأخذَه معهُ إلى المدرسةِ، فقد كان موك يريدُ أن يتسلّلَ عبرَ بوابةِ المدرسةِ إلى الداخل. لكنّ ليبَل تحدّثَ مع موك بلطفٍ، وربّتَ عليه، وأبعدَه عن بابِ المدرسة وأغلقَ البابَ خلفَه بسرعة. فصار ليبَل في الداخل، وبقي موك في الخارج.

كان ذلكَ حسناً، لكنّ الساعةَ كانت تشيرُ إلى الثامنةِ وإحدى عشرة

دقيقةً، وهو أمرٌ غيرُ حسنٍ، لأنّ الحصةَ تبدأ في الثامنة. فاتجه ليبَل إلى غرفةِ الصفّ وهو يشعرُ بالإحباط.

فجأةً تذكّر أنّ اليومَ هو يومُ الأربعاء. فسُرّيَ عنه وشعر بالارتياح وتوجّهَ نحو غرفةِ الصّف. كانت الحصتّان الأولى والثانية في هذا اليوم مخصّصتَينِ للرسم الذي يدرّسُه المعلّمُ السيّد غولتنهوت (كانتِ الحصّةُ تسمّى في الواقع التربية الفنّية). وعندما يأتي الطالبُ متأخراً في هذه الحصّة، فإنّ الأمرَ محتملٌ قياساً إلى دروس السيّدة كلوبي، التي تطلب من التلميذِ أن يعتذرَ عن تأخُره في الغالب.



درس الرسم

كانَ السيِّد غولتنهوت يجلسُ متوارياً خلفَ الجريدةِ، فلم تكنِ الحصّةُ عنده قد بدأت، لأنَّ إلْفيرا ما تزال توزّعُ الأوراقَ المخصّصةَ للرسم. لهذا تسلّلَ ليپَل ومرَّ من أمامِ المعلّم ووصل إلى مقعدِه دون أن يلفتَ نظرَه. كما أنَّ السيد غولتنهوت لم يتنبَّه إلى الأمرِ عندما توقفت إلْفيرا عن توزيعِ الأوراقِ وخاطبتِ المعلمَ قائلةً:

- سيد غولتنهوت! لقد وصل پيليپ متأخراً!

كانَ المعلّمُ يقرأُ الجريدةَ باستغراقٍ، فأخرج قطعةَ اللُّبانِ من فمه، ولفَّها بالورقةِ الفضيّةِ وأخذ يتساءل:

- كيف؟ ماذا؟ عفواً؟ ماذا جرى؟

- لقد وصلَ پيليپ متأخراً. كرّرت إلْفيرا القول.

حدّقَ المعلمُ في غرفةِ الصف. كان ليپَل يجلسُ منذ زمنٍ في مقعدِه، لهذا سأل المعلّمُ غولتنهوت بتعجُّب:

- من هو الذي وصلَ متأخراً؟

- إنّه پيليپ. قالت إلْفيرا للمرّة الثالثة.

- إلْفيرا. أيّتها الآنسة! قال المعلّمُ بلهجةٍ متساهلةٍ، وهو يطوي الجريدة:

أولاً إنّه ليس پيليپ. إنّ اسمَهُ فيليپ. ثانياً: إنه يجلسُ هناكَ في مقعدِه، إذا لم أكنْ مخطئاً. فهل يمكن أن يأتيَ متأخراً طالبٌ يجلس على مقعدِه؟ لا بأس!

وبعد أن اتّضحَ الأمرُ، نظر المعلمُ إلى جريدته بتردُّدٍ، وهو يفكّرُ بفتحِها من جديدٍ ليستأنفَ القراءةَ فيها. لكنّهُ توصّل في خاتمةِ

المطافِ، إلى أنّه لم يعُدْ فيها ما يستحق القراءة. لهذا وقف واتكأ على المنصّة وقال:

- انتباه! سنبدأ حصّة الرسم!

توقّفَ الجميعُ عن الكلام، وتوجّهوا بأنظارهم نحو المعلّم، الذي بدأ يقول: - انتبهوا جيّداً، فلن أوضحَ الأمرَ إلاّ مرّةً واحدةً!

أولاً: يتوجّبُ استخدامُ قلمِ الرصاصِ في الرسم. هذه مسألةٌ في غايةِ الأهميّة. هل سمعتُم؟ قلمُ الرصاص وحدَه! ومن غيرِ الجائزِ استخدامُ الأقلامِ الأخرى كالريشةِ وقلمِ الحبرِ وقلمِ التخطيط... الخ.

ثانياً: التلوين. يتمُّ باستخدامِ الألوانِ المائيّة. هذا أمرٌ مهمّ. ومن غيرِ المسموحِ استخدامُ أقلامِ الشمعِ الملوّنةِ أو الطباشيرِ أو أقلامِ التلوينِ أو الأقلامِ السائلة.

ثالثاً: بخصوصِ مزجِ الألوانِ، عليكم أن تقوموا بمزجِ هذه الألوانِ على غطاءِ علبةِ الألوانِ، وإيّاكم أن تمزجوا الألوانَ داخلَ العلبة!

رابعاً: ينبغي أن يكونَ الرسمُ على ورقةٍ كبيرة. على ورقة، انتبهوا! ومن غيرِ المسموحِ الرسمُ على أوراقٍ مُربّعةٍ أو مُسطّرةٍ، أو على أوراقٍ منتزَعةٍ من دفاترِكم، أو على أوراقِ التسويدِ أو أوراقِ الملاحظاتِ، أو أيةِ أوراقٍ أخرى تحملونَها معكم. ثم أنهى كلامَه بقوله:

- هل هناك أسئلة؟

- هل من المسموحِ الرسمُ على ورقِ الكرتون؟ سأل ليپَل.

- سؤالٌ مهمّ. قال المعلمُ مثنياً على السؤالِ ثم أضاف: ولكن كيف يمكنكَ أن تحصلَ على قطعةِ كرتونٍ بسرعة؟

- على الجهةِ الخلفيةِ من دفترِ الرسم! أجاب ليپَل.

ـ هذا ذكاءٌ كبير! لا. الكرتونُ غيرُ مسموحٍ أيضاً، ثم قال: هل هناك أسئلة أخرى؟

ـ ما الذي يتوجّبُ علينا أن نرسمَه؟ سألت باربرا.

ـ عفواً! أنسيتُ أن أذكرَ ذلك لكُم؟ سأل المعلّمُ ثم اعتذر قائلاً: هذا أمرٌ قد يقعُ في مثل سنّي. حسناً، يمكن لكلٍّ منكم أنْ يرسمَ حيوانه الذي يُفضّله. فعلى كلِّ واحدٍ منكم أن يفكّرَ بالحيوانِ الذي يُفضّله ثمّ يرسُمَه. هيّا ابدأوا!

رسم أرسلانُ أسداً. ورسمت حميدةُ عصفورَ الكناري، وكان محبوساً في قفص.

وقرّر ليپَل أن يرسمَ كلباً. إنّ ليپَل لا يكرهُ الرسمَ، لكن الشعرَ يمنحهُ متعةً كبرى. لذا قرر أن يجمعَ بين الرسم والشعرِ، فرَسمَ كلباً في الجزءِ العُلويِّ من الورقة. لم يكنِ الكلبُ ضخماً، لكنهُ قابلٌ للرؤيةِ بالعينِ المجرَّدة.

الكلب

الكلبُ أفضلُ عندي

وهو الأثيرُ المُبجّل

للكلبِ ذيلٌ طويلٌ

رأسٌ وأربعُ أرجُل

رأى ليپَل أنّ الأبياتَ الشعريةَ مناسبةٌ تماماً للموضوع. لكنَّ المعلمَ بعد أن تأمّلَ ورقةَ الرسم وحدّقَ فيها طويلاً قال:

ـ الكلبُ صغيرُ الحجمِ، وينبغي أن يكونَ أكبرَ حجماً وأضاف: أنا غيرُ مختصٍّ بالأدبِ، لكنّني أرى قلقاً في الأبيات.

ـ لماذا؟ إنها أبياتٌ موزونة!



حكَّ المعلمُ ذقنه بظفر إبهامه (وهو ما يفعلُه عندما يكونُ في لحظةِ تأمُّل)، ثم قال: كيف يكون الكلبُ مُبجّلاً؟ ثم إنّ هناكَ ألفاظاً متقاربةً في المعنى. رأى ليپَل أنّ المعلمَ على حقٍّ، فمحا القصيدةَ الأولى وكتب بدلاً منها:

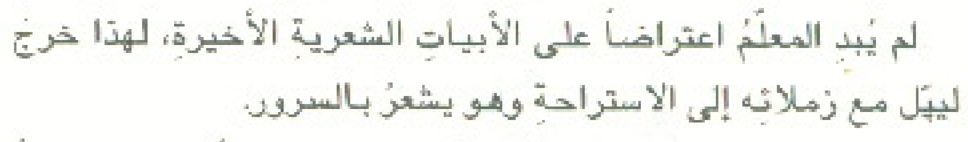
الكلب

الكلبُ أحسنُ عندي

فهو الصديقُ المُفضّلْ

إنْ نوديَ الكلبُ يوماً

تراهُ في الحالِ هَرْوَل.



لم يُبدِ المعلّمُ اعتراضاً على الأبياتِ الشعريةِ الأخيرةِ، لهذا خرجَ ليپَل مع زملائِه إلى الاستراحةِ وهو يشعرُ بالسرورِ.

بعد الاستراحةِ كانت هناك ثلاثُ حصصٍ: حصّةُ إملاء وحصّةُ رياضيات وحصّةُ موسيقى.

عَصرٌ قصير

غادر ليپَل المدرسة بصحبةِ أرسلانَ وحميدة. وكان متشوّقاً ليعرفَ إن كان الكلبُ ما يزالُ ينتظرهُ خارجَ المدرسةِ، لكنَّ الكلبَ كان قدِ اختفى.

كان ليپَل لا يتوقّفُ عن النداء:

- موك، موك، وعيناهُ تبحثانِ عنه على امتدادِ الشارعِ.

- من تُنادي؟ سألتهُ حميدةُ في خاتمةِ المطاف.

- أنت تسمعينَ من أُنادي. أجاب ليپَل.

- صحيح، ولكن من هو موك هذا؟ أهو واحدٌ من أبناءِ صفّنا؟ تساءلتْ حميدة.

- كفّي عن ذلك! قال ليپَل ساخطاً، فأنتِ تعلمينَ على وجهِ التحديدِ من هو موك. إنّه كلب.

- كيف أعرفُ ذلك؟ تساءلت حميدة. فأنت لم تحدّثني على الإطلاق، بأنّ لديك كلباً.

- ليس لديَّ كلب. قال ليپَل.

- ليس لديك كلب؟ لماذا تُناديه إذن؟ سألت حميدة، بينما ضحك أرسلان.

- إنني أُناديه لأنّ...

- لأنّه ماذا؟ تساءلتْ حميدة.

لم تكن عند ليپَل رغبةٌ في مزيدٍ من الإيضاحِ، فقال وهو يتعمّدُ إنهاءَ الحديث:

- لأنَّ عليَّ أن أذهبَ إلى المنزل. إلى اللقاء غداً.

وكانوا قد وصلوا إلى شارع فريدريش روكرت، فانحرف ليپَل إلى جهةِ اليمين، وواصلَ أرسلانُ وحميدةُ مشيَهُما على امتدادِ الشارع.

- إلى اللقاءِ غداً. ردّت حميدة. بينما لوّحَ أرسلانُ بيدِه وهو يبتسم.

وفي اللحظةِ التي وصلَ فيها ليپَل إلى منزلِه، وأراد أن يفتحَ بوّابتَه، رأى موك: كان يجلسُ غيرَ بعيدٍ عن منزلِ السيدة يشكي، ويُمصمصُ إحدى العظام، بينما كانتِ السيدة يشكي تنظرُ إلى الكلبِ من نافذةِ المطبخِ نظرةً ملؤُها العطفُ والشفقة.

قام ليپَل باجتيازِ الشارع.

- مرحباً سيدة يشكي! ها هو الكلب. لقد فتّشتُ عنه في كل مكان. صاح ليپَل.

- مرحباً ليپَل. ردّتِ السيدة يشكي. لقد أعطيتُه شيئاً ليأكلَه. لكنّني أريدُ أن أعرفَ مالكي هذا الكلب، فلعلّهُ ضلَّ عن منزلهم أو لعلّهم فشلوا في العُثورِ عليه.



- إنني أعرفُ اسمه. إنّه يُدعى موك.

- وكيف عرفت ذلك؟

- لقد حلمتُ به!

- حلمتَ به! آملُ أن يكونَ الكلبُ هوَ الآخرَ قد حَلمَ بذلك، وإلاّ فهو لن يعرفَ عن اسمه شيئاً! قالت السيدة يشكي ضاحكةً ثم تساءلت: ولكن ماذا عن الحُلُم المتواصل؟ هل استطعتَ تنفيذَ ذلك؟ وهل واصلتَ الحلمَ بحكايتك إلى نهايتها؟

- أجل. أعني كلاّ. لقد استطعتُ أن أقومَ بحلمٍ متواصلٍ، لكنّ الحكاية لم تصل بعدُ إلى نهايتها، وعليّ أن أذهبَ اليومَ إلى سريري في وقتٍ مبكرٍ جداً، وإلاّ فإنّ الحلمَ لن يصلَ بي إلى نهايةِ الحكاية.

- إذن لن تستطيعَ زيارتي عَصْرَ هذا اليوم. قالتِ السيدة يشكي وهي تشعرُ بالأسف، ثم أضافت: إنّ الأحلامَ هي الأخرى على جانبٍ كبيرٍ من الأهميّة. إلى اللقاءِ غداً.

- إلى اللقاء. ردّ ليبّل وهو يعدو ويجتازُ الشارعَ عائداً إلى منزله.

قامتِ السيدة يعقوب بتأنيبِ ليبّل، لأنه عاد إلى المنزل متأخراً، ولأنّ الطعامَ قد بردَ وصار يحتاجُ إلى تسخينٍ. ونظراً لأنّ ليبّل لم يَردّ، توقفتِ المرأةُ عن الكلامِ في الحالِ وبدأ كلٌّ منهما يتناولُ طعامَ الغداءِ بصمت. بعد الفراغِ من الطعـامِ ساعدها ليبّل في تنشيفِ أدواتِ الطعامِ التي قامت بتنظيفِها، ثم أنهى واجباتِه المدرسية، مثلما يفعلُ عصرَ كلِّ يوم.

بعد أن أنهى واجباتِه، فكّرَ أنْ يقومَ بمحاولةٍ للحصولِ على الكتاب، فسأل عنه، وعندما أجابتِ السيدة يعقوب في الحال: «لا، لن تحصلَ على الكتابِ ثانيةً»، أدركَ ليبّل أن مخطّطَه يسيرُ سَيراً حسناً، فصمّمَ على الذهابِ في الحالِ إلى سريره.

- هل هناكَ ما ينبغي عليَّ أن أقومَ به؟ سأل ليبّل.

- كلا. ولكن ما معنى هذا السؤال؟

- لأنني أريدُ أن أذهبَ إلى سريري في الحال.

- إلى سريرك؟ هل أنت مريض؟

- لا، على الإطلاق. إنني أريد أن أنام.

- تنام؟ الآن! ما زال الوقت مبكراً على الذهاب إلى السرير. إنك لا بُدَّ تخفي شيئاً عني! فأنت لا تريدُ، في حقيقةِ الأمر، أن تنام!

- لا، أبداً. لماذا لا تسمحينَ لي بالنوم؟ وبخاصةٍ أنني أشعرُ بالتعب. تساءل ليبّل.

- هذا أمرٌ غيرُ طبيعي. فما يزالُ الضوءُ يملأُ أرجاءَ المكانِ في الخارج.

- سيحلُّ الظلامُ عما قريب. ردّ ليبّل.

ونظراً لأنَّ السيدة يعقوب كانت تحدِّق فيه مُندهشةً، وتهزُّ رأسَها غيرَ مصدِّقةٍ، أكَّد لها الأمرَ ثانيةً بقوله: «سيحلُّ الظلامُ عما قريب!»
ونظراً لأنَّ حديثَهُ بدا غيرَ ذي جدوى أضاف:

- إنَّ أبي وأمّي يسمحانِ لي بالذَّهابِ إلى سريري في اللحظةِ التي أشعرُ فيها بالتعب.

- أتريدُ أن تقولَ إنني لا أسمحُ لكَ بذلك؟ سألته السيدة يعقوب ثم أضافت: اذهب إلى سريرك، إذا كنتَ مُصراً على ذلك!

فقال ليپل للسيدة يعقوب بفرح: تصبحينَ على خير، وذهبَ إلى غرفته. وعندما همَّ ليپل أن يستلقيَ فوقَ سريره، تذكر أنَّ أسلم والأميرةَ حميدةَ قد لفتا نظرَهُ إلى أنَّ «زيَّهُ الغريب» لا يتناسبُ مع أجواءِ الحكاية. وقد أدرك ليپل، حقيقةً، أنَّ زيَّهُ لافتٌ للانتباه، وبخاصةٍ عندما يتجولُ في إحدى المدنِ الشرقيةِ وهو يرتدي لباس النوم، الذي جرى قطعُ كُمِّه ولُطِّخ بالطينِ كي يبدوَ ليپل إنساناً زريَّ الهيئة.

ثم تساءلَ ما إذا كان عنده رداءٌ يستطيعُ عندما يرتديه أن يتجوَّل في المدينةِ دون أن يلفتَ الأنظار؟ إنَّ لديه زيّاً شرقياً أبيضَ اللونِ، ولهذا الزيِّ عمامةٌ كذلك، وهو زيٌّ يتشابهُ مع أزياءِ الناسِ التي يرتدونها في المدينة. هذا صحيحٌ، فقد ارتدى في الكرنڤالِ الذي أقيم في آذار زيّاً يُشبه زيَّ الحاج خلف عمرا (وهي شخصيةٌ تعرَّف إليها من خلالِ الحكاياتِ الشرقيةِ التي اعتاد قراءتها) وهذا الزيُّ موجودٌ في خزانتهِ وما عليه إلاّ أن يبحثَ عنه.

بدأ ليپل يبحث عن الزيِّ فعثر عليه في الخزانة، ثم سرعانَ ما عثر على العَمامة. كان الزيُّ والعمامةُ مملوءَين بالتجاعيد، وغيرَ

نظيفين، لأنَّ ليپل رماهما بعد انتهاءِ الكرنڤالِ في الخزانة، لكنَّ ذلك كان مناسباً تماماً لأجواء الحكاية.

خلع ليپل ملابسَ النوم في الحال وارتدى ملابسَه الشرقيةَ، لكنه لاحظ أنَّ العباءةَ كانت ثقيلةً تماماً، وعندما أراد ليپل أن ينام على جانبهِ الأيمن أدرك سببَ ذلك، فقد كان في جيبهِ المصباحُ اليدويُّ الذي يبحث عنه منذ ما يقربُ من ثلاثةِ أشهر. فقد كان زار السيدة يشكي ذات مساءٍ، وأخذ معه مصباحَه اليدويَّ، وها هُوَ يعثرُ عليه مصادفةً في هذا الزيِّ الشرقي.

- عظيم، هذا أمرٌ مُناسبٌ تماماً. فعندما أصحو ليلاً يكون المصباحُ اليدويُّ إلى جانبي وأستطيع أن أضيءَ به غرفتي!

أدارَ وجهَه للحائطِ، وسحبَ الغطاءَ على وجهه، ليُصبحَ جوُّ الغرفةِ أكثرَ ظلاماً، وغفا في الحالِ وبدأ يحلم.



الحلم الثالث



كان المساءُ قد حلّ عندما وصل ليهَل وحميدةُ وأسلمُ ومعهم الكلبُ موك إلى بوّابةِ المدينة. وقد عبر البوّابة معهُم حشدٌ كبيرٌ من الناس الذين كانوا عائدين إلى العاصمة، لأنّ المساءَ قد حلّ ولأنّ بوّابةَ المدينةِ ستُغلقُ عند حلولِ الليل، وسينامُ في العراءِ كلُّ من يتأخّرُ عن الدّخولِ في الوقتِ المناسب.

خلع ليهَل عمامتَهُ عن رأسِه، وصنع منها حَبلاً قُماشيّاً رفيعاً، وربطه على عُنقِ موك، فقد خشيَ أن يفقدَ الكلبَ في خضمِّ هذه الحشودِ البشريةِ.

عبر الثلاثةُ البوّابةَ ومرّوا بالحرّاسِ وهم مختبئون بين الحشودِ الكبيرةِ من أصحابِ المهنِ والتّجارِ والمتسوّلين. وكان معهم رعاةُ الأغنامِ الذين يقودون قُطعانَ الماشية، وفلاّحونَ يركبون الحميرَ وتجّارٌ يركبون البِغال، وأطفالٌ كثيرونَ عائدونَ من العملِ في الحقول.

. الحمد للّـه أنّنا ربطنا خيولَنا إلى جانبِ الصخور. قال ليهَل بصوتٍ غير مرتفعٍ موجهاً كلامَه لحميدةَ وأسلم، ثم أضاف: إنّ منظرَنا كان سيلفتُ الأنظارَ بقوّة. فأطرق أسلمُ موافقاً.

فأضافتْ حميدة:

. حسنٌ أنك قمتَ بتغييرِ زيّكَ، فقد كنتَ ستلفتُ الأنظارَ بزيِّكَ

الغريب. لكن علينا أن نُسرعَ، فالظلامُ سيحلُّ عما قريب.

ـ هذا صحيح. فالظلامُ سيحلُّ قريباً. قال ليهَل ثمّ تساءل: أين سننامُ يا تُرى؟

ـ علينا أن نجدَ تكيّةً أو نُزلاً. ردّت حميدة.

أخذ الثلاثةُ يتجولونَ في أرجاءِ المدينةِ بحثاً عن مأوىً، ويفتّشون في الحواري الضيّقةِ والمتعرّجة.

كان الناسُ، في تلك الأثناء، قد تركوا بيوتَهم وخرجوا إلى شوارعِ المدينةِ، لأنّ حرارةَ الطقسِ قد تراجعت، وبدأ الهواءُ يهبُّ على نحوٍ منعش. كان النّحاسونَ يجلسون فوق كراسيهم ويصنعونَ مَراجلَ الماءِ من صفائحِ النُّحاس، وكان الإسكافيّون يصنعونَ الصنادلَ، والخياطون يقومونَ بتفصيلِ القُفطانات، والنجّارون يصقلونَ الأخشابَ، وصانعو السلالِ، وقاطعو الأخشابِ، وناسجو السجّادِ وصانعو الزجاجِ يعكِفونَ على أعمالِهم. وكان التّجارُ يقفون أمام دكاكينهم ليستقبلوا الزبائنَ، ويفاوضوهُم حولَ الأسعار.

بعد مدّةٍ عثرَ الثلاثةُ على النُّزُلِ المطلوبِ عندما قرأوا يافطةً قد كُتبَ عليها:

نُزُل الحياة السعيدة

الإقامة المريحة والرخيصة

دخلوا إلى الصحنِ الداخليِّ للنُّزُل، بعد أن عبروا البوّابةَ الخارجيّةَ، وكان الصحنُ محاطاً بأبوابٍ كثيرة.

كان ثمّةَ رجلٌ عجوزٌ يجلسُ على الأرضِ، ويتّكئُ على أحدِ الأعمدةِ وهو يمضغُ نواةَ حبّةِ بلحٍ ويقرأُ في أحدِ الكتب.

وقف الثلاثةُ أمامَ الرجلِ العجوزِ مدةً من الزمنِ دون أن يتنبّهَ لوجودهم. تنحنحوا، وضربوا الأرضَ بأرجُلِهم، وربّتوا على ظهرِ موك، ثم داروا حول الرجلِ العجوزِ ليلفتوا نظرَه، غير أنّ الرجلَ استمرّ

يقرأ دونَ انقطاع. وفي النهايةِ خاطبتهُ حميدةُ قائلةً:

- السلامُ عليكم أيّها الرجلُ الجديرُ بالاحترام. أرجو أن تعذرَني. إذا قطعتُ عليكَ قراءتك. لكنّنا نرجو أن نتمكّنَ من قضاءِ الليلةِ في هذا النُزُل.

نحّى الرجلُ كتابَه جانباً، واخرج نواةَ حبةِ البلحِ من فمِهِ ولفّها في ورقةِ تينٍ ودسّها في جيبِه. ثم تفحّصَ ثلاثتَهم والكلبَ موك وقال:

- أولاً: لا يجوزُ إزعاجُ الإنسانِ أثناءَ القراءة. فهذا أمرٌ غيرُ لطيف.

ثانياً: لا يجوزُ إزعاجُ رجل عجوزٍ أثناء القراءة. فهذا أمرٌ غيرُ لطيفٍ البتّة.

ثالثاً: لا يجوزُ إزعاجُ الرجالِ الكبارِ في السّنّ إطلاقاً، أثناء تلاوتِهم للقرآن. فهذا أمرٌ غيرُ لطيفٍ على الإطلاق. ثم قولوا لي: أينَ أهاليكم وأولياءُ أمورِكم؟ أم تريدون أن تناموا هنا وحيدين؟

- هذا هو الواقع. وأسألُ اللّهَ أن يغفرَ لنا إزعاجَنا لكم. أجابت حميدة. بعدها تأمّلَ الرجلُ الثلاثةَ بعنايةٍ وتساءل:

- لماذا لا تتحدثُ إلاّ الفتاة؟

- إنّ أسلمَ أخرس. ردّ ليپَل بسرعة.

- وأنت؟ هل أنت أخرسُ كذلك؟ لماذا لا تتحدّث؟ تساءلَ الرجلُ العجوز.

- ها أنذا قد تحدثت! قال ليپَل.

- متى؟

- للتّو. فقد أخبرتُك أنّ أسلمَ أخرس!

فكّر الرجلُ قليلاً، وحكّ ذقنَهُ بظفرِ إبهامِه وقال:

- حسناً، هذا أخرس. ولكن هل قلتم لي أين أهاليكم وأولياءُ أموركم؟

- لا، نحن لم نتحدث عن ذلكَ على الإطلاقِ أيها الرجلُ الجديرُ بالاحترام! ردّت حميدة.

- أولاً أنا لم أتوجّه إليكِ بالسؤال، بل كان سؤالي موجّهاً للفتى. وثانياً إنني توّاقٌ لمعرفةِ المكانِ الذي يوجدُ فيه أهاليكم...

- إنّهم.. إنّهم في... بدأت حميدةُ بالإجابةِ ثم توقفتْ.

- إنّهم في ڤيينَا. ردّ ليپَل بسرعة.

- ڤيينَا! ما هي ڤيينَا هذه؟ تساءل العجوزُ باستغراب.

- إنها مدينةٌ تقعُ في أقاصي فرانكستان. أوضح ليپَل.

- فرانكستان! الحمدُ للّه أنّ قافلتَكم عادت من هناك بالسلامة. قال العجوز.

- هذا ما جرى. أجاب ليپَل وهو يُطرقُ برأسه.

- أيُّها الأطفالُ المساكين! هل غدوتُم أيتاماً؟ ارتفع صوتٌ أنثويٌّ من خلفِهم، فالتفتَ الأطفالُ نحو مصدرِ الصوت.

كان ثمةَ امرأةٌ سمينةٌ، تضعُ العديدَ من الخواتمِ الفضيّةِ في أصابعها، قادمةً من أحدِ الأبواب وكانت ترتدي زيّاً شرقياً فضفاضاً. لهذا لم تبدُ المرأةُ ممشوقةَ القوام. كانت المرأةُ تحملُ في إحدى يديها إبريقاً خزفياً. فأضافت قائلةً بودّ:

- لقد استمعتُ إلى كلّ شيء، أرجو أن تسامحوا زوجي، الذي يبدو متشدداً في بعضِ الأحيان. أرجو أن تتناولوا أولاً شيئاً من فواكهي المحفوظةِ، ثمّ سنرى ما الذي يمكنُ لنا أن نفعلَه.

أمسكتِ المرأةُ الإبريقَ الخزفيَّ بأصابعِها الغليظةِ، واستخرجت

منه تيناً وزبيباً ممزوجَينِ بالعسلِ، ووضعتْ شيئاً منه في راحةِ كل واحدٍ منهم.

- إنّ طعمَه لذيذ! قال ليبُل بعد أن وضعَ الزبيبَ الممزوجَ بالعسلِ في فمه. نظر الرجلُ العجوزُ إلى زوجته نظرةَ تأنيبٍ وقال:

- أولاً: كيف تسمحينَ لنفسكِ أن تتدخّلي في حديثي. هذا أمرٌ غيرُ لطيف.

ثانياً: كيف عرفتِ أنّ هؤلاءِ قادرونَ على دفعِ أجرةِ المبيت؟

- توقّف عن أولاً، ثانياً، ثالثاً هذه! قالتِ المرأةُ ضاحكةً وهي تلحسُ العسلَ عن أصابعها، ثم أضافتْ:

أولاً: لقد تدخّلتُ في الحديث، لأنني استمعتُ إلى الحوار بينكم مصادفة.

ثانياً: ما كان هؤلاءِ الأطفالُ ليدخلوا إلى هذا النُّزُل، لو لم يكونوا قادرين على دفعِ أجرةِ المبيت.

ثالثاً: إنني أرى في يدِ هذه الفتاة، سِواراً ذهبياً مرصّعاً بحجر أحمر، وهو سوارٌ غالي الثمن، لدرجةِ أنّ الخياط لبقان يستطيعُ بثمنه أن ينزل في هذا النُّزل هو وأقرباؤه مدة عام. والكل يعرف أنّ لبقان هو الأكثرُ أهلاً وأقرباءَ في هذا الحي.

وهنا خبأتْ حميدةُ السّوار تحت كمّها وهي تشعر بالذُّعر، فضحكت السّيدة وقالت لها:

- لا داعيَ للخوف. فلن أقومَ بسرقته!

فردّت حميدةُ بحَيرة:

- إنّه ليس غاليَ الثمنِ كما تظنّين. ونحن حقّاً لا نملكُ مالاً.

فصاح الرجلُ بنبرةٍ منتصرة:

- هل سمعتِ؟ لا مالَ معهم، وليس في جيوبهم دينارٌ واحد. إنّهم تماماً مثلما توقعت.

- لكننا قادرون على دفع الأجرةِ غداً، أو بعدَ غدٍ على الأكثر. وسيكون المبلغُ مضاعفاً. قالت حميدةُ مُناشِدةً.

- لا نومَ قبل دفعِ الأجرة. ردَّ الرجلُ ثمّ أضاف: ومن يضمنُ لي أنكم ستوفون بعهدكم؟ فلعلّ القافلةَ التي فيها أهاليكم لن تصلَ إلى هنا مطلقاً. فالطريقُ مملوءةٌ باللصوصِ والحيواناتِ المفترسة.

- كيف تتفوّه بمثلِ هذه الألفاظ؟ أتريدُ أن تخيفهم وتملأَ قلوبَهم بالرعب؟ قالت المرأةُ بلهجةٍ رافضةٍ لما يقولُه زوجُها. ثم توجهت للثلاثةِ وقالت: أرجو أن تتفهّموا حالتَنا. فالنُّزُلُ هو مصدرُ دخلِنا، ونحن لا نستطيعُ أن ندعَ الناسَ ينامون هنا دون مقابل.

- سندفعُ لكم الأُجرة، هذا مؤكد. وعدتها حميدة.

- ثمةَ حلٌّ - قالت المرأةُ السمينة - ضعي سِوارَك وديعةً لديّ. وسيبقى لديّ أمانةً، وسأُعيدُه بعد أن تدفعوا ما عليكم من مال.

- لا! هذا غيرُ ممكن. ردت حميدة. إنّني لا أستطيع أن أعطيكِ السّوار.

- وأنا لا أستطيعُ السماحَ لكم بالنوم ها هُنا. إنني أستطيعُ إهداءَ بعضِ الفواكهِ المحفوظة، لكنّني لا أستطيعُ أن أتبرّعَ بالمبيتِ المجّاني للناس.

- إذن علينا المغادرة. قالت حميدة.

غادرَ الأطفالُ النُّزلَ بعد ذلك ببُطء، حتى موك كان يُغادرُ الساحةَ مطرقَ الرأسِ، وكأنه أدركَ أنّ أحداً قد طردهم من هذا المكان. وعندما صاروا جميعاً في الخارجِ والظلامُ يلفُّهم تساءل ليبُل:

- لماذا لم توافقي على أن تضعي السّوار وديعةً لدى المرأة؟ إنّكِ قادرةٌ، دون أدنى شك، على استرجاعها. فإذا تكلّم أسلمُ واستطاع أن يُقنعَ أباكم، فهو سيدفعُ المالَ مقابل نومنا ها هنا.

- لا أستطيعُ أن أدعَ السّوارَ لديها، فاسمي منقوشٌ في باطنها، والشعارُ الملكيُّ مرسومٌ عليها. ولو رأتِ المرأةُ هذا، لأدركت أنني أميرة.
قالت حميدةُ ثم تساءلت: والآن، ألا توجدُ طريقةٌ للحصولِ على المال؟

- كيف؟ ردّ ليبُل. أنتِ غيرُ قادرةٍ على أن تفعلي شيئاً، كما أنّ أسلمَ لا يستطيعُ الكلام.

- لماذا تقولُ مثلَ هذا الكلام؟ سألته حميدة وهي تشعر بالحزن وأضافت: ومن أخبركَ أنني عاجزةٌ عن العمل، وأنّني لا أستطيعُ أن أفعلَ شيئاً؟

- لا بأس، فالأميراتُ في العادةِ لا يعملن، والمرءُ لا يستطيعُ الحصولَ على المال، إذا لم يعمل.

- أنا قادرةٌ على الغناءِ والعزف. أجابت حميدة، ثم أضافت: وأما أسلم فهو يستطيعُ الكثير. إنّ ما يستطيعُ أن يفعلَه يفوق تصوُّرَك. فهو تلميذُ سندبادَ النجيب!

- هذا كلُّه غيرُ ذي فائدة. لأنّ أسلمَ لا يستطيعُ الكلام. تمتم ليبُل بصوتٍ خفيض، فقالت حميدة:

- إنّ فكرةَ الغناءِ وعزفِ الموسيقى فكرةٌ حسنةٌ، فنحن يمكننا الذهابُ إلى السوقِ، حيث يتجمّعُ الموسيقيون والممثّلون والحكواتيّون. وسنقوم نحن بعزفِ الموسيقى. وسيقدّم موك عروضاً فنيّةً جميلةً، فموك يستطيعُ فعلَ الكثير، فهو قادرٌ على أن يمشي على ساقينِ فحسب. أليس كذلك يا أسلم؟

حنى أسلمُ رأسَهُ موافقاً. وكان يبدو في تلك اللحظةِ مستغرقاً في التفكير.

- لكنّنا لا نستطيعُ الذّهابَ إلى السوق. فقد حلَّ الظلام. قال ليبُل معترضاً. فقالت حميدة:

- إنّ من يستمعُ إليكَ يدركُ أنك تجهلُ السوق. فالسوقُ تكادُ تكونُ خاليةً أثناءَ النهار، لأنّ درجةَ الحرارةِ تكونُ مرتفعةً في العادة. أما عند المساءِ فإن مئاتِ الناسِ يذهبونَ إليها يبيعون ويشترون ويعملون ويتمشّون. لا بُدّ أنّك رأيتَ الناسَ وهم يجلسونَ في الشوارعِ والحواري. فعند المساءِ يغادرُ الناسُ بيوتَهم. هيا سنقوم بعزفِ الموسيقى! إنّ أسلمَ يستطيعُ النقرَ على الدُّفِ بمهارة، فينبغي علينا أن نفتّش عن وعاءٍ أو شيءٍ مشابه، نحملُه معنا على أنّه دَف. وأنا أستطيعُ العزفَ على الناي. فإن وجدنا أنبوباً في مكانٍ ما، فإنّ أسلمَ يستطيعُ أن يصنعَ منه ناياً على الفور. وأنت؟ ما الذي تستطيعُ أن تؤدّيَهُ بإتقان؟

- أنا لا أستطيعُ للأسفِ أن أعزفَ على أيِّ آلةٍ موسيقية. ردّ ليبُل حائراً، ثم أضاف: إنّ علاماتي في مادةِ الموسيقى ضعيفة.

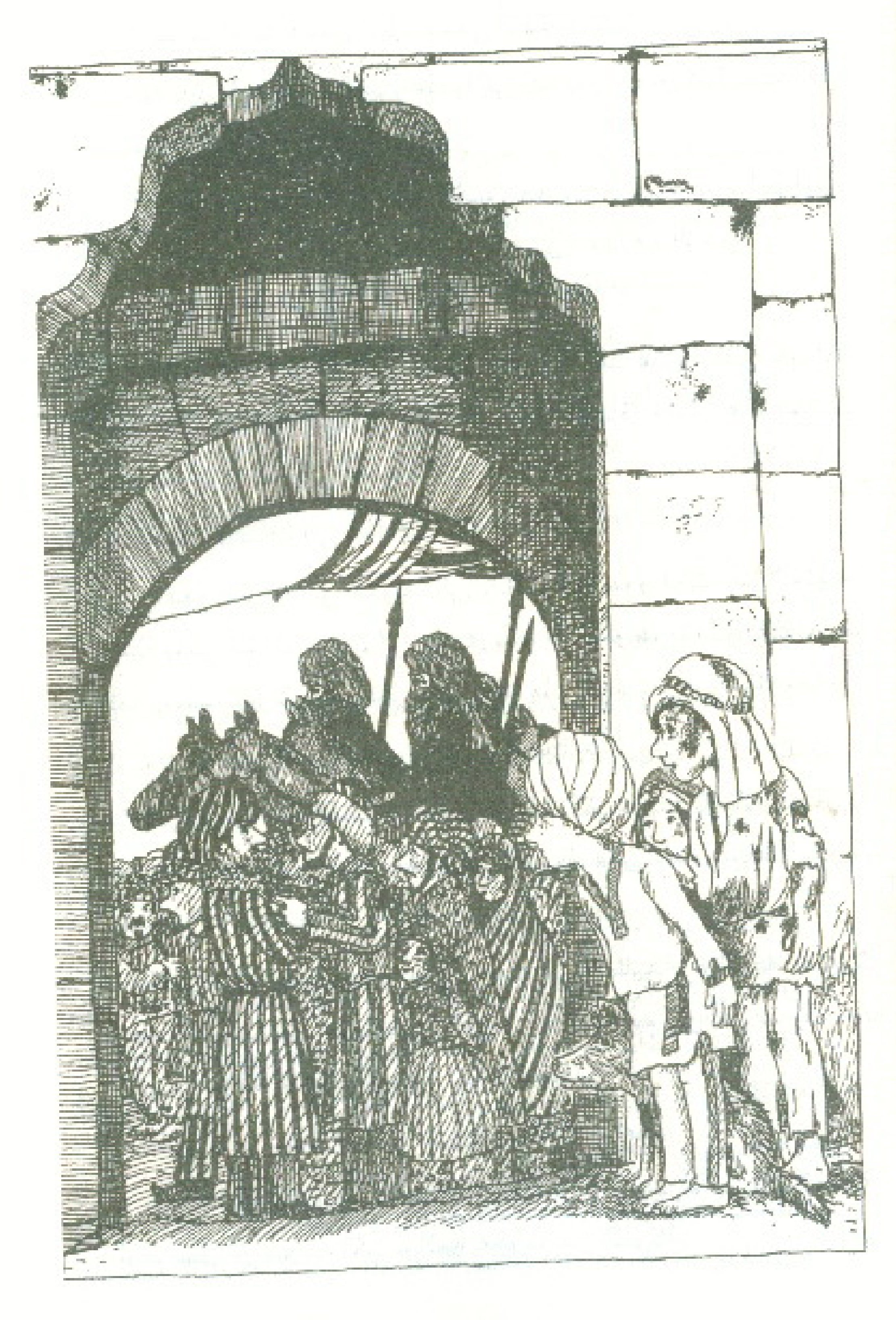
- إذن فأنتَ لا تستطيعُ أن تُغنّيَ أيضاً؟ سألته حميدة. فنفى ليبُل مقدرتَهُ على الغناءِ وهو يهزُّ رأسَه بخجل.

- لا بأس. قالت حميدة. إذن فمهمّتُك أنْ تحملَ العمامةَ وأن تدورَ بها على الناسِ لتجمعَ المال. ولكنْ، هل تستطيعُ في تلكَ الأثناءِ أن تقومَ بحركاتٍ رياضيّةٍ متقنة؟ كأن تقفَ على يديكَ أو تؤدّيَ حركاتِ الشقلبة، فالناسُ يعشقون مثل هذه الحركات!

- إنّ علاماتي متدنّيةٌ كذلك في التربيةِ الرياضية. ردّ ليبُل معتذراً لكنه أضاف: هذا في فصلِ الصيف، أما في فصلِ الشتاءِ فإن علاماتي تتحسّن لأننا نذهبُ إلى بركةِ السباحةِ الشتويةِ المغلقة. فأنا أُحسنُ السباحة!

ضحكتْ حميدة وقالت: في السوقِ لا تستطيعُ أن تظهرَ مهارتكَ في السباحة!

- لكنّ علاماتي متميّزةٌ في درسِ اللغةِ الألمانية، وأستطيعُ نظمَ الشعرِ على كل حال.



ـ سيكون إذن من المناسبِ أن تقومَ بجمعِ المال، فلا بُدَّ من أحدٍ يتولّى هذه المهمّة. والآن دعنا نبحثُ عن دفّ لأسلم.

كانت الطريقُ الضيّقةُ التي ساروا فيها توصلُ إلى أحدِ الشوارعِ العريضة. فقالت حميدة:

ـ هذا هو الشارعُ الرئيسيُّ للمدينة؛ فإذا سرتَ فيه يساراً وصلتَ إلى القصر، وإن اتّجهتَ يميناً ذهبتَ إلى السوق. ثم قالت: تعال، سنذهبُ إلى اليمين!

كان بعضُ الفرسانِ قادمينَ من جهةِ اليمين، وكان عليهم أن يجدوا لهم مكاناً بين المشاة، لأنَّ الازدحامَ كان شديداً في الشوارع. فجأةً توقّفَ أسلمُ وأمسكَ بذراعَي حميدة وليبِّل.

ـ ما الأمر؟ تساءلت حميدة؟

ـ ماذا تريد؟ سأل ليبِّل.

هزّ أسلمُ رأسَه بغضبٍ، ووضع إصبعَه على شفتَيه، كي يفهموا أنَّ عليهم أن يصمتوا، وأخذ يحدِّقُ بتركيزٍ في الفرسان.

أطرقَ أسلمُ، وكأنّه صدّقَ توقّعاته، فقاد حميدةَ وليبِّل إلى الظلالِ المعتمةِ لأحدِ الأقواس. أما الكلبُ موك فقد نبح، لأنّه كان عليه أن يتراجعَ فجأة.

سار الفرسانُ قُدُماً. لقد كانوا ثلاثةَ رجالٍ يرتدون المعاطفَ السودَ، وكانوا يسحبونَ معهم حصانَيْنِ ليس عليهما فارسان.

ـ افتحوا الطريق! افتحوا الطريق! كان أحدُ الفرسانِ يصيحُ، وهو يقتحمُ بفرسِه جموعَ السائرين.

ظلّ ليبِّل متجمداً في مكانه عندما سمع صوتَ الفارس، وكاد لا يستطيعُ التنفُّس. أما أسلمُ فقدِ انحنى على موك، وأغلقَ فمَه كي لا يقومَ بالنُّباح. في تلك الأثناء كان الفرسانُ قد ذهبوا.

ـ إنهم حَراسُنا. همس ليهَل. فحنى أسلمُ رأسَه.

ـ لقد عثروا على خُيولهم وعادوا إلى المدينة. همس ليهَل مجدداً ثم أضاف: وهذا أمر سيئ!

ـ إنَّ عودتَهم ليست هي الأمر الأسوأ. همست حميدة، ثم سألتْ ليهَل: ألم ترَ الحصانَين اللذَيْنِ كانا دون فارسَين؟ هذا هو الأسوأ.

ـ لماذا؟ تساءل ليهَل.

ـ كانت تلكَ خيولَنا. ألم تتعرّف عليها؟ لقد عثروا على خيولنا. وهم الآن يعرفون أننا ما نزالُ على قيدِ الحياة، وليس هذا فحسب: إنّهم يعرفونَ أننا في المدينة.

ـ كيف توصّلتِ إلى هذا كلِّه؟

ـ لأنهم عثروا على خيولِنا إلى جانبِ الصخورِ قريباً من المدينة. وهذا يعني أننا لم نهرب إلى بلدٍ غريب، لأننا لو هربنا إلى هناك، لما كنا ربطنا خيولَنا على مقربةٍ من المدينة. إنهم يعرفون ذلك تماماً.

ـ هل تعنينَ أنهم يقومونَ الآن بالبحثِ عنا؟

ـ لن يفعلوا ذلك الليلة، فقد حلَّ الظلامُ، لكن علينا أن نكونَ حذرينَ صباحَ الغد. والآن تعالَ معنا إلى السوق! فمن حسنِ الحظ أنّهم لم يتمكّنوا من رؤيتِنا.

كان أسلم يسيرُ وهو يقودُ موك في الطليعةِ، وتتبعُه حميدة. وعندما أراد ليهَل أن يتجاوزَ القوسَ المظلمَ، سمع وكأن صوتَ أحدِ الأبوابِ خلفَهُ قد فُتح. فصاح ليهَل: أسلم!

لكنَّ أسلمَ استمرَّ يمشي، دون أن يلتفتَ وراءه.

فجأةً انبثقَ نورٌ من فُتحةِ البابِ، وأطلَّ رأسُ امرأةٍ من تلك الفتحة. أراد ليهَل أن يهربَ، لكنَّ ساقيهِ عجزتا عن الحركة.

ـ أسلم! صاح ليهَل ثانية.

ثم فُتح البابُ على مصراعَيْه، فانتشر الضوءُ حولَه في كل مكان.

ـ فيليب هل تحلُم؟ سأل صوتٌ أُنثويٌّ من على الباب.

حرّكَ ليهَل عينيه بقوّةٍ، فقد أثّر الضوءُ على عينيه تأثيراً قوياً.

نظرتِ السيدة يعقوب نحو البابِ وقالت بهمس:

ـ أنا لم أرِد أن أوقظَك. عُذراً! لقد أردتُ أن أرى إنْ كنتَ حقاً قد ذهبتَ لتنام. إياك أن تستيقظ وواصلِ النوم! ثم أغلقتِ البابَ وتركت ليهَل وحده.

ـ وقاحة! تمتم ليهَل وهو مملوءٌ بالنعاس، ثم استلقى جانباً، ونام وواصلَ الحلم.

كان السوقُ مضاءً.

كانت ثمّةَ مشاعلُ مثبّتةٌ في قواعدَ حديديةٍ، ومصابيحُ زيتيةٌ معلّقةٌ على أبوابِ محلاتِ الحِرفيين، وأفرانٌ مفتوحةٌ تحترق فيها الأخشابُ وتوضعُ فوقها سخاناتُ الماء، ليغليَ الماءُ فيها ويُستخدمَ في المشروباتِ الساخنة.

وقفت حميدةُ بجُرأةٍ في منتصفِ السوق.

ووقف أسلمُ إلى جوارِها وبيدِه وعاءٌ قديمٌ لتسخينِ الماء، كي يستخدمَه دفّاً. كان موك يُقعي أمامَ قدمَي أسلم ويتأملُه بعصبيّة. رفع أسلمُ الدفَّ إلى الأعلى كي يلفتَ الأنظارَ، فجاء الناسُ واقتربوا وهم مملوءون بالفُضول.

تنفّست حميدة بعُمقٍ وصاحت بأعلى صوتها:

ـ «أيّها الرجالُ المحترمون والسيداتُ المحترمات، أيّها الوزراءُ الحُكماءُ

والزبائنُ الكرام! أيّها الحِرَفيّون المهرة. أيّها القاطنون في المدينة!

تعالوا إلى هنا!

تعالوا ودعوا أعمالكم، ومشروباتكم الساخنة! أغلقوا دكاكينكم وتعالوا! اتركوا منازلكم. فالعرضُ الذي سيجري تقديمُه في هذه الساحةِ هو عرضٌ فريدٌ، يصعبُ أنْ يتكرّر في كل ليلة.

سيقوم الكلبُ موك بتقديم حركاتٍ فنيّةٍ لافتةٍ، وسأقوم أنا وأخي بالعزفِ الموسيقيّ المصاحبِ لحركاته. أما الشابُّ الصغيرُ الذي يضع العمامةَ، فسيقوم بجمعِ ما تجودُ به نفوسُكم من مال. ويُسعدنا أن نتلقّى قطعاً نقديةً قيّمةً، وبخاصةٍ من تلك القطع الذهبية».

شعر ليبَل أنّ وجهَه احمرّ خجَلاً، فأطرق أرضاً وهو يشعرُ بالحيرة.

علق أحدُهم قائلاً:

ـ يبدو أننا أمام عرضٍ مُثير!

ـ دعنا نرى ماذا سيقدمون لنا؟ ردّ آخرُ يقفُ خلفه.

ـ يبدو أنه سيكون عرضاً متميّزاً، دعنا نرى، مثلُ هذا العرضِ لا يتكرّر كلَّ يوم.

استمع ليبَل إلى هذه التعليقاتِ وإلى شبيهاتِها، فتشجّع قليلاً، ورفع العمامةَ من على رأسِه كي يكون على أهبةِ الاستعدادِ لجمعِ المالِ الذي سيُعطيه الناس له.

صاحت حميدة:

ـ والآن سيبدأُ العرضُ! أرجو الانتباهَ لطفاً إلى المشهدِ الموسيقيّ الأوّل!

بدأ أسلمُ ينقرُ على الدفِّ وبدأت حميدةُ تعزفُ على النّاي.

لم يكن الإيقاعُ الموسيقيُّ جميلاً، كما لم يكنِ الصوتُ مسموعاً.

صحيح أنّ أسلمَ بذل ما في وسعِه من مهارةٍ، لكنّه لم يكن يستطيع أن يصنعَ ناياً متقناً من عودِ قصبٍ غليظ! فبدأ المشاهدون يتذمّرون.

ـ أتريدون الضحكَ على ذقوننا؟ صاح أحدُ الرجالِ مُضيفاً: إنّ ابنتي التي هي في الخامسةِ من عمرها تقدّمُ حركاتٍ أفضلَ من هذه بعشرِ مرّات.

ـ ما هذا؟ توقفوا! كفى!

بدأ الناسُ يصيحونَ بفوضى، في حين بدأ آخرونَ يغادرون المكان. توقفت حميدةُ عن العزف. أما أسلمُ الذي لم يتنبّه للأمرِ مبكّراً، فقدِ استمرّ ينقرُ الدفَّ لفترةٍ قليلةٍ، قبل أن يتوقفَ هو الآخر.

ازداد عددُ الناسِ الذين أخذوا يعودونَ إلى دكاكينِهم وبيوتِهم.

ـ لا تذهبوا! ـ صاحت حميدة وهي تشعر باليأس فإنّ ذروةَ هذه المشاهد لم تأتِ بعد. تابعوا حركاتِ الكلبِ الرشيقة، فإنّ موك يقدّم ما يستطيعُ تقديمَه.

بقي بعضُ المشاهدين، الذين كانوا يرغبونَ في الذهاب. فصاح أحدُهم:

ـ أرونا ماذا يستطيعُ الكلبُ أن يفعل!؟ فإذا كانت حركاتُه رديئةً كهذه الموسيقى التي عزفتموها، فلن تنالوا منا أيّةَ قطعةِ نقودٍ، بل سيكون جزاؤكم شيئاً آخر!

ضحكَ الناس.

أشار أسلمُ للكلبِ موك، فوقف موك على ساقيه الخلفيّتين. لوّح أسلمُ بيدِه فتحرّكَ موك خطوةً أو خطوتين ثم سقط أرضاً، وتطلّع نحو أسلم وهو يشعرُ بالتعاسة. فقد كان موك معتاداً أن يخبرَه أسلم بما ينبغي عليه أن يقومَ به. لكنّ أسلمَ لا يستطيعُ الكلام. وكان يأملُ أن يستوعبَ الكلبُ المطلوبَ منه من خلالِ الحركاتِ والإشارات. لوّح

أسلمُ بيدِه مجدداً، فوقف موك على ساقيهِ الخلفيتينِ ثانيةً.

ـ متى يبدأُ العرض؟ سأل أحدُ الناس.

ـ لقد بدأ العرضُ كما ترى! أجابت حميدةُ ساخطةً وتابعت: انظر، انظر ماذا يفعلُ الكلب!

ـ لكنّ هذا ما نراهُ كلَ يوم! ردّ الرجلُ ثم أضاف: جاء الحاوي إلى هُنا في الأسبوع الماضي وكان معه كلبانِ وأفعى. وقد نقر الكلبانِ على الدّفّ، وقامتِ الأفعى بالرقص. هل يستطيع هذا الكلبُ أن ينقرَ على الدف؟

ـ لا أعتقدُ أنّه يستطيع. ردّت حميدةُ بصوتٍ خفيضٍ، بينما كان أسلمُ يهزُّ رأسَه.

ـ هذه هي الذُّروة! إن هؤلاءِ الأطفال يريدونَ أن يسخَروا منا. يا للوقاحة! لن نسمحَ بذلك!

أخذ المشاهدون يصرخون بغضبٍ وفوضى ويرمونَ القاذوراتِ نحو أسلمَ وحميدةَ والكلب. أما حميدةُ فبدأت تبكي وتنحدر دموعُها على خدّيها، ولم تعُد تعرفُ كيف تتصرّف.

لم يعُد ليبّل قادراً على الاحتمالِ، فاستعاد رباطة جأشِه، وتسلّلَ من بين المشاهدينَ الغاضبينَ حتى وقفَ إلى جانبِ حميدة. بعدها أخذ الدفَّ من يدِ أسلم، وأخذ يضربُ الدّفّ بأقصى ما يستطيعُ مِنْ عَزْمٍ، ثم صاح:

ـ أيّتها السّيداتُ، أيّها السادة. إنّ ما شاهدتُموه لم يكن في واقعِ الأمرِ إلاّ التمهيدَ، التمهيدُ لما سيُلقيه ليبّل من شعرٍ وما سيقدّمُه من عُروضٍ سحرية. لا تبتعدوا! وشاهدوا! حيث ستبدأُ العُروض في الحال!

ـ ماذا ستفعل؟ هل أُصبتَ بالجنون؟ همستْ حميدة. ثم أردفت:

إيّاك أن تسخرَ منهم، فإنهم لن يضربونا هذه المرّةَ بالقاذوراتِ، بل سيقذفوننا بالحجارة. دعنا نغادرُ سريعاً!

لكنّ ليبّل ظلّ واقفاً بصلابةٍ إلى جانبِ حميدةَ وصاح بصوتٍ هادئ:

إنّ مَـن يبقـى هـنـا   لـهـوَ حـقًّا فَـطِـن
سوف يلهو ثم يستمتعُ   بالسحرِ الذي لا يُحزِن
أيّهـا النـاس هُنـا   أيّها الخَلْـقُ الكثيـر
انـظروا ثم احـكُمـوا   يبتدي عَـرْضٌ مثيـر
إنّ مَـن يَمضي بعيداً   لهـو حقًّـا في ذُهـول
فهـو لـن يشـهدَ مـا   أصنعُ أو سوف أقول

ـ إنّ إيقاعَ الأبياتِ لا بأسَ به! قال أحدُ المشاهدين، لكنّ عليه الآن أن يبدأ بالعُروضِ السحريّةِ. فأجابه ليبّل على الفور:

من كان يَبْغي أن يرى سحري
فليبقَ عندي كاملَ الصبر

عندها صاح أحدُ المشاهدين: لقد فهمنا المقصود. لن تكون هناك عُروضٌ سحريةٌ إذن! فأجابه ليبّل هو الآخر قائلاً:

من يذهبِ الآنَ يخسرْ   ومَـنْ يَقُـمْ سـيفوزْ
لأنّ مَـن ظـلّ عـنـدي   فـالطيّبـاتِ يـحـوز
وسـوف يشـهدُ سحراً   تغـارُ منه الكنـوز

بدأ بعضُ المشاهدينَ بالضحكِ وقالوا:

ـ لا بأس، دعنا ننتظرُ ونتحمّلَ هذه المقدمةَ التي تسبقَ العرض!

إنّه يستطيعُ النظمَ والارتجالَ على كل حال!

لكنّ الغالبيةَ بدأت تصرخُ بصوتٍ عالٍ:

ـ هيّا! ابدأ العرضَ حالاً!

مدّ ليبِل يدَه في جيبِه واستخرجَ من جيبِ ردائه الشرقيِّ ذاك، مصباحَه اليدويَّ، وحرّكَهُ فوقَ رأسِه يمنةً ويسرةً ثم قال:

هـذا الذي يـدورُ لولبيّـاً

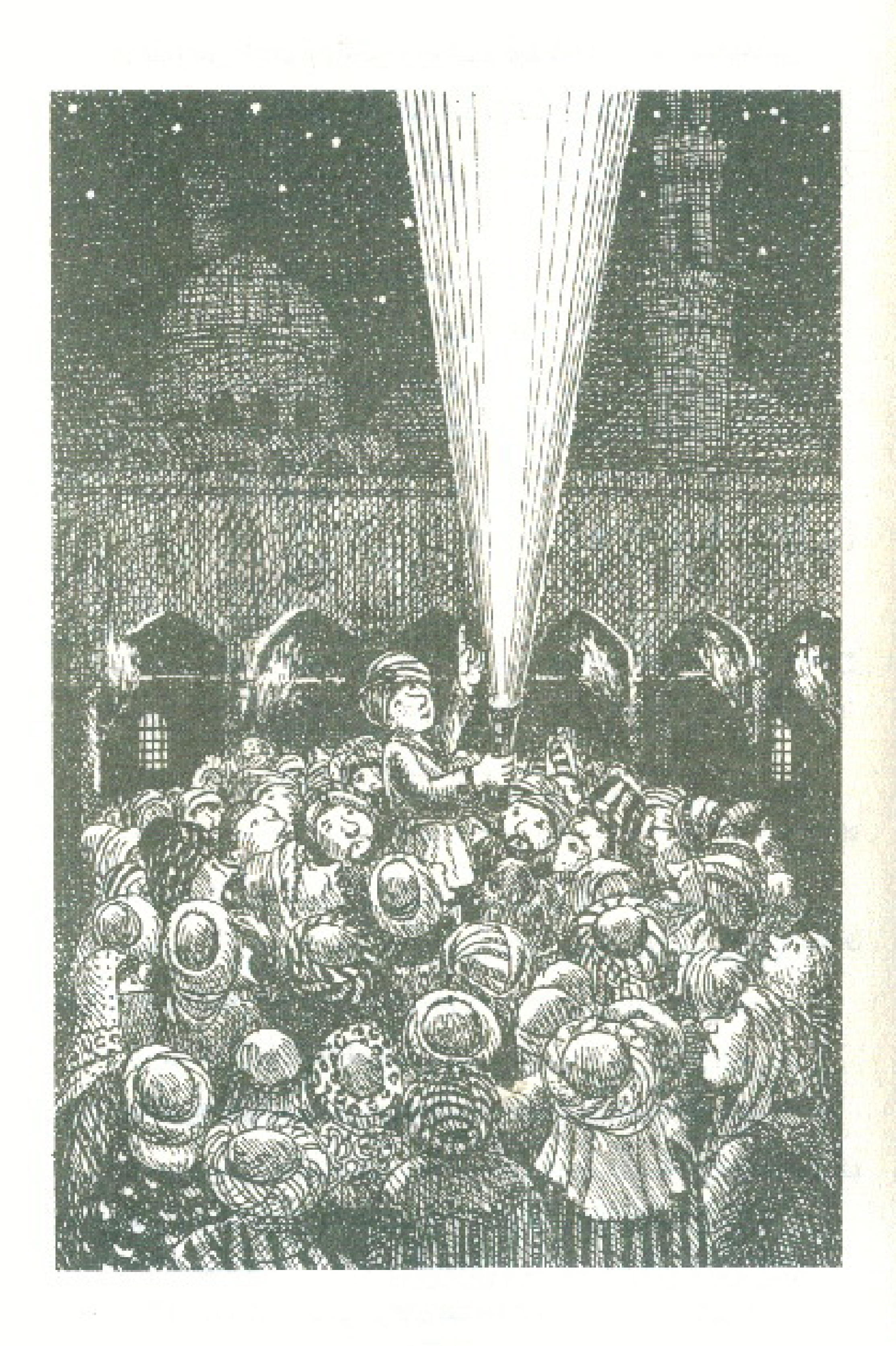
يصبحُ مصباحاً لنا سحريّاً

ثم بدأ يعرضُ المصباحَ على الناس. وكان في الصفِّ الأولِ رجلٌ يعملُ صائغاً للفضةِ، فطلبَ أن يتأملَ المصباحَ الفضيَّ عن قُرب. فقال له ليبِل:

ـ تفضّل! وناولَه المصباحَ الفضيَّ عن طيبِ خاطر.

تأمل الصائغُ المصباحَ بدقّةٍ وبعد أنْ تفحّصهُ قال:

ـ إنّه تحفةٌ رائعةٌ، ومشغولةٌ بدقة! وهو مصنوعٌ من معدنٍ لم أرَهُ من قبل. إنه يلمعُ كالفضّة، لكنه من معدنٍ مختلف، وفي مقدّمته دائرةٌ زجاجيّةٌ متقنةُ الصنع. إنه جميلٌ جداً. ولكن كيف يمكنُ لِهذه التحفةِ أنْ تتحوّلَ إلى شعلة؟ إنّها مصنوعةٌ من المعدن. كما أن الزجاجَ غيرُ قابلٍ للاشتعال، كما نعلم. ثم قام بتمريرِ المصباحِ اليدويِّ إلى جارِه الذي قام هو الآخرُ بتأمُّلِ المصباحِ ومعاينته. وهكذا بقيَ المصباحُ ينتقلُ من يدٍ إلى أخرى. وكان الجميعُ يعبّرون عن دهشتِهم واستغرابِهم.



وقد وافقَ الجميعُ وحنوا رؤوسَهم عندما قال أحدُ المشاهدين:

ـ إنّ منظرَ هذه الشعلةِ رائعٌ، لكنّها غيرُ قابلةٍ للاشتعال!!

وعندما عاد المصباحُ إلى ليپَل من جديدٍ، رفعهُ إلى الأعلى وصاحَ بفرح:

إنّ هذا المصباحَ يخلدُ للصمتِ

ويأبـــى الإشـــعاعَ والتنويـــرا

يوم آتي إليه والســـحرُ عندي

يـولدُ الضـوءُ عاليــاً ومنيـرا

فصاح رجلٌ سمين:

ـ أيُّها الثرثار. إنني أشتري المشاعلَ منذُ عشرينَ عاماً، وأعلمُ يقيناً أنّ الزجاجَ غيرُ قابلٍ للاحتراق!

تناول ليپَل المصباحَ بيدهِ اليُمنى، ووضع إبهامَه على مفتاح التحويلِ الخاصِّ بإشعالِ الضوءِ وإطفائه، وحرّك يدَهُ اليُسرى وصاح:

ـ أوزرام(*)! وحرّك في الوقتِ نفسه مفتاحَ التحويل.

كان المصباحُ اليدويُّ الذي يحمله ليپَل، مصباحاً قوياً، يحتوي على أربعِ بطّارياتٍ قادرةٍ على الإضاءةِ بقوة.

صرخ الناسُ صرخةً تنمُّ عن الدهشة. وجه ليپَل مصباحَه نحو التاجرِ وقال له:

ـ من هو الثرثارُ يا ترى؟

غطّى التاجرُ عينيه بيديه، لأن الضوءَ كان قوياً وصاح:

ـ سامحني! إنها شعلةٌ رائعة، أقوى من أيِّ شعلةٍ سبقَ لي أن اشتريتُها.

(*) Osram من أشهر شركات صناعة اللمبات والأدوات الكهربائية.

ـ هذه هي شعلتي! قال ليپَل، وهو يحرّكُ الجزءَ العُلويَّ من المصباح، ويوجّهُ الضوءَ نحو أحدِ المنازلِ البعيدة.

ومع أنّ المنزلَ كانَ على بُعدِ مئةِ خطوةٍ، فقد كان بوسعِ الناسِ مشاهدةُ الدوائرِ الضوئيةِ على حيطانِ المنزلِ الخارجيةِ، عندما كان ليپَل يحرّك المصباح.

ظلّت صرخاتُ الدهشةِ تعلو من جميعِ الجهات. وجّه ليپَل ضوءَ المصباحِ نحوَ الأعلى مباشرة.

كان الطقسُ يتصرّفُ كالمجانين.

فقد كانتِ الشمسُ تشرقُ في النهارِ، أما في المساءِ فثمةَ غيومٌ ثقالٌ مملوءةٌ بالمطرِ تتحرك في سماءِ المدينة.

تابع المشاهدونَ بنظراتهم حركاتِ المصباحِ وصاحوا جميعاً من الدهشة. فقد كان بوسعِهم أن يشاهدوا بقعَ الضوءِ وهي تتحرّكُ على الغيوم.

ـ ما هذه الشعلةُ القادرةُ على أن تضيءَ بقوةٍ، وتصل إلى عنانِ السماء؟ إنّ وراءَها ناراً ضخمةً حارقةً بكل تأكيد. حذارِ أن تقتربَ منا.

كان الجميعُ يصرخونَ بفوضى عارمة. أما المشاهدون في الصفوفِ الخلفيّةِ فكانوا يصيحون:

ـ نحن غيرُ قادرينَ على المشاهدة! ينبغي أن يقفَ الساحرُ ليپَل على مكانٍ أكثرَ علوّاً! نريدُ أن نرى الشُّعلةَ السحرية!

تمّ إحضارُ صندوق، فاعتلاه ليپَل، وصار يقدّمُ عروضَه من فوقِ رؤوسِ الناس.

وبعد أن حرّكَ المصباحَ يُمنةً ويُسرةً، رفع يدهُ اليُسرى على نحوٍ ذكيٍّ وصاح بفرح: مسيسيبّي!

وضغط في الوقتِ نفسه على مفتاحِ المصباحِ اليدويّ، فانطفأ الضوءُ في الحال. تعالى التصفيقُ من كل الجهاتِ وهتف الناس:

- يُعاد! يُعاد! وشرعوا يصفّقونَ كالمجانين.

أما أسلمُ وحميدةُ فقد قفزا لشدّةِ حماستِهما في الهواء. أما ليپَل فقد رفع يدهُ اليُسرى عالياً وسرعانَ ما سادَ الصمتُ اليَقِظ.

حرّكَ ليپَل مفتاحَ المصباحِ وقال:

- أوزرام! فانهمرَ الضوءُ، ثمّ حركهُ إلى الوراءِ وقال: مسيسيپّي! فانطفأتِ الأنوارُ وتلاشت.

تعالتِ الهمساتُ والتعليقات:

- إنّ الشعلةَ تعملُ وفقاً لكلماته.

- إنّه لا يحملُ النارَ معه. فالنارُ تشتعلُ تلقائياً عندما يأمرُها. إنّه مصباحٌ عجيب!

انتظر ليپَل حتى هدأتِ الهمساتُ والتعليقاتُ قليلاً ثم صاح:

- كان هذا هو الجزءُ الأولُ من العرضِ السحري. أما في الجزء الثاني من العرض فسأقومُ بلمسِ الشعلةِ الحارقةِ بيدي، دون أن تحترق هذه اليد. ولكنْ قبل أن يبدأ الجزءُ الثاني، فإنّني أرجو من مشاهديَّ أن يتبرّعوا لنا بما هو معروفٌ عنهم من كرم!

نزع عمامته عن رأسهِ ووضعَها في يدِ أسلمَ وقال له:

- أسرع وقُم بجمعِ المالِ من الناس! ثم صاح: إنّ صديقي سيمرُّ بكم، كي نحصلَ على شيءٍ من مساعدتكم، وأرجو أن تتذكّروا أنّه كلما كنتم كرماءَ معنا، زادتْ روعةُ المشاهدِ السحريّة، كما أن المصباحَ السحريَّ لن يعملَ إلاّ إذا قُمتم بإعطائنا بعضَ المال.

قام أحدُ الفتيانِ الشجعانِ، وتسلّلَ من بينِ الحشودِ وصاح:

- أوزرام.

ضحكَ ليپَل وقال:

لو رامَ غيري سحرَه   ما اشتعلَ المصباحُ

لكنّ سحريَ ساطعٌ   يرسمُه الصباحُ

ثم صاح «أوزرام» و«مسيسيپّي» فاشتعلَ المصباحُ ثم انطفأ. كان تبرُّعُ الناسِ أكثرَ سخاءً هذه المرّة. فتبرّعَ المشاهدونَ جميعاً بقطعٍ نقديةٍ متفاوتة.

صعد ليپَل ثانيةً فوقَ الصندوقِ وأشار إلى أنه سيستأنفُ العُروض.

صاح ليپَل بأعلى صوته «أوزرام» وأشعلَ المصباح، ثم وضع إصبعَ الشاهدِ على زجاجةِ المصباح.

صاح المشاهدونَ صيحةً مملوءةً بالدهشةِ والخوف.

ترك ليپَل إصبعَهُ فوقَ الزجاجةِ مدةً دقيقةً، ثم رفعهُ وأراهُ للناس. لم يكنِ الإصبعُ قد احترقَ، أو مسّتهُ النارُ على الإطلاق.

تصاعدَ التصفيق.

رفع ليپَل ذراعَهُ الأيسرَ، وأدخل المصباحَ في كُمّ ردائه. كان في مقدورِ الناسِ أن يشاهدوا من خلالِ القُماشِ الرقيقِ الشعلةَ السحرية وهي تتحركُ تحت كُمِّهِ وعلى أرجاءِ جسده.

تعالتْ مجدداً صيحاتُ المشاهدين، وأغمضوا أعينَهم خوفاً. ووقعت إحدى النساءِ مغشياً عليها، فقام بعضُهم بحملها بعيداً.

لكنّ ملابسَهُ لم تحترق، كما كان الناسُ يظنون، بل إنّ ليپَل قام بإمساكِ الجُزءِ العُلويّ من ردائه وأخرجَ المصباحَ اليدويَّ من خلاله. أدرك الناسُ من خلالِ الإشاراتِ أنّ المشهدَ التالي سيكونُ

مشهداً خطيراً. فقد انتظر ليپَل حتى سكنتْ كلُّ عضلةٍ من عضلاتِ المشاهدين، ثم فتح فمَهُ وأدخلَ الجزءَ العُلويَّ من المصباحِ فيه، وأمسك بالمصباحِ بكلِّ ما لديه من قوّة.

ـ مستحيل! إنّ رأسَه سيحترقُ من الداخل! إنّه يشتعل.

انظروا كيف صار رأسُه يبدو! إنّه يحترق! هكذا تعالى همسُ الجميع.

أخرج ليپَل المصباحَ من فمِهِ وصاح:

ـ مسيسيپّي! فانطفأ النور.

صار التصفيقُ لا يتوقفُ على الإطلاق.

فجأةً بدأ صوتُ الناسِ وضجيجُهم يختلطُ بأصواتِ حوافرِ الخيلِ، التي صارت تطغى على التصفيق. لقد جاء الفرسانُ الثلاثةُ الذين يرتدون المعاطفَ الداكنةَ، وكانوا يسيرون في الشارعِ الرئيسيِّ باتجاهِ ساحةِ السوق. كان ليپّل، الواقفُ فوق الصندوقِ، أوّل من رآهم فصاح بأسلم وحميدة قائلاً:

ـ الحرّاس! إنهم قادمونَ إلى هنا!

قال قائدُ الحراسِ شيئاً لرفيقيه وأشار إلى ليپّل، الذي صاح:

ـ لقد عرفوني. هيّا نهربُ من هنا!

أمسكَ أسلمُ العمامةَ المملوءةَ بالقطعِ النقديةِ ووضعَها تحت إبطه وشقَّ طريقَه بين الحشودِ البشريةِ، وتبعتهُ حميدةُ مع موك، وسار ليپّل وراءَها. كانوا يسيرون ببطء.

حثَّ الفرسانُ خيلَهم على السرعة، وقاموا باختراقِ الناسِ المحتشدين دون اكتراث، واقتربوا بسرعة.

فجأةً هبّتْ على الساحةِ رياحٌ قويةٌ، وسرعانَ ما أخذَ المطرُ

يهطلُ بغزارة. انطفأتِ المشاعلُ وساد الظلامُ في الساحةِ وبدأ الناسُ يبحثون عن مأوى من هذا المطرِ الغزير.

حاول الفرسانُ البحثَ عن الأطفالِ الثلاثة، لكنّ بحثَهم كان بلا جدوى.

فقد كان الظلامُ دامساً، وصارتِ الرؤيةُ متعذّرةً تماماً.

ركض ليپّل وراءَ أسلمَ وحميدةَ وساروا في أحدِ الأزقّةِ المظلمة.

أضاعت حميدةُ الحبلَ الذي كان مربوطاً حول عنقِ موك، جرّاءَ الزحام، لكنّ موك ظلّ يركضُ وراءَها.

وقف الجميعُ بعد مدةٍ من الزمنِ، وكانوا يتنفّسونَ بصعوبةٍ ويلهثون. كانَ الزقاقُ هادئاً، والبيوتُ مظلمةً، ولم يعُد ثمةَ أثرٌ للفرسان.

ثم توقف هطولُ المطر.

ـ كان لهذا الطقسِ المجنونِ دورٌ إيجابيٌّ هذه المرّة ـ همس ليپّل وهو يمسحُ الماءَ عن شعره فقد نزلَ في الوقتِ المناسبِ تماماً.

كانوا قد وصلوا ثانيةً إلى نُزُلِ الحياةِ السعيدةِ ووقفوا ببابه. كانت الأبوابُ مغلقةً، فقام ليپّل بقرعِ الأبواب.

ظهرَ وجهُ المرأةِ السمينةِ مجدّداً من فُتحةٍ في الباب. وقالت متعاطفةً معهم:

ـ أنتم ثانيةً! أيها الأطفالُ المساكين! إنكم تقفونَ كالفئرانِ في الخارجِ! انتظروا، فسأفتحُ البوّابةَ لكم. ادخلوا بهدوءٍ وإلاّ فإنّ زوجي سيصحو!

أغلقتِ المرأةُ البابَ، وأدخلتِ الثلاثةَ وكلبَهم وقالت:

ـ إنني لا أستطيعُ أن أدعَكم تقفونَ مبلولينَ في الخارجِ، كما أنني

لا أستطيع أن أعطيكم إحدى الغرف، فإن زوجي لا يسمحُ بذلك، لكنّ لدينا حظيرةً صغيرةً لحمارنا، وتستطيعون أن تتدبّروا أموركم وفيها تبنٌ يمكنكُم أن تناموا فوقه.

ـ نحن لا نحتاجُ للنوم في الحظيرة، فمعنا من المالِ ما يكفي. قال ليپّل.

ـ هل هذا صحيح؟ سألتِ المرأةُ السمينة.

فتح أسلمُ العمامةَ، فأضاءَ ليپّل مصباحَهُ اليدويَّ لترى المرأةُ مقدارَ ما في العمامةِ من قطعٍ نقدية.

كانتِ العمامةُ مملوءةً بالقطعِ النقديةِ الكبيرةِ والصغيرة. ولم تكنِ المرأةُ لتعرفَ من أيِّ الأمرَينِ تعجب: هل تعجبُ من هذا المالِ الكثيرِ، أمْ من هذا الضوءِ الغريب؟

أعطتِ المرأةُ للأطفالِ أفضلَ الغرفِ في النُزل، ووضعت فيها فرشاتٍ ناعمةً، مملوءةً بالتبنِ الجديد، وأعطتهم أغطيةً سميكةً من وبَرِ الجمالِ خوفاً من بردِ الليل.

استلقى ليپّل فوقَ الفرشةِ وغطّى نفسَهُ وحاولَ أن ينام.

سمع أثناءَ الليلِ صوتَ حميدةَ وهي تُنادي وتقول:

ـ أسلم، أسلم أين أنت؟

نهض ليپّل الذي لم يكن يعرفُ إن كان قد أغفى أم لا.

ثم نادت حميدةُ بعد ذلك:

ـ ليپّل. هل نمت؟

ـ كلا. ما الذي جرى؟ همس ليپّل.

ـ هل تستطيعُ أن تضيءَ مصباحَك السحري. إنني أعتقدُ أنّ أسلمَ قدِ اختفى.

أضاء ليپّل المصباح. كان فراشُ أسلمَ خالياً. وكان موك الذي يُقعي أمامَ فراشِ أسلمَ، قدِ اختفى هو الآخر.

أُقسمُ باللـهِ إنه قدِ اختفى! قالت حميدةُ خائفةً ثم أضافت: أين هو الآنَ يا تُرى؟ وهل علينا أن نفتّشَ عنه؟

ردّ ليپّل:

ـ إنّ من الأفضلِ أن ننتظر، فسيعودُ بالتأكيد.

ـ وإذا لم يعُد؟

ـ سيعودُ أسلم، بالتأكيد. ردّ ليپّل مواسياً.

وبعد فترةٍ قالت حميدة:

ـ ليپّل. إننا لم نشكُرْك في الواقع.

ـ تشكرونني؟ لماذا؟ تساءل ليپّل.

ـ لما قدمتَهُ من عُروضٍ سحرية. وللمالِ الوفيرِ الذي جمعتَهُ والذي أفادنا كثيراً، فلولا ذلك لكنّا نِمنا في الشارع.

ـ لا بأس، لكنّ الأمرَ لم يكن صعباً وبخاصةٍ في ما يتعلّقُ بالمصباحِ اليدوي.

ـ من أين حصلتَ على هذه الشُعلةِ السحريةِ العجيبة؟

ردّ ليپّل:

ـ اشتريتُها من محلٍ لبيعِ الكهربائياتِ وهو موجودٌ في شارع شيلَر... أردتُ أن أقول، إنني أعني...

شعر ليپّل بالحيرة. فأين يمكنُ أن نعثُرَ في بلاد المشرق في ذلك العصرِ على محلٍّ لبيعِ الكهربائيات؟

ـ أردت أن أقول.. إنني أعني.. عندها استيقظ ليپّل من النوم.

كان على سريره في منزله، وكانتِ العمامةُ ملقاةً على مخدته،

لأنّها سقطت عن رأسه أثناءَ النوم. نظر ليپّل نحوَها فوجدَها خاليةً تماماً، لا تحتوي على أيةِ قطعةٍ من النقود.

الخميس

صباح غير عادي

صحا ليبَل وجلسَ ونظرَ إلى ساعته التي كانت تشيرُ إلى السابعةِ إلاّ رُبعاً ـ كان ذلك هو الوقتُ الذي اعتادتْ أن تجيءَ فيه السيدة يعقوب إلى غرفتهِ كي توقظه.

جلس بضعَ دقائق على حافةِ السريرِ بانتظارِ مجيئها، لكنها لم تأتِ بعد أن مرَّ ما يقربُ من خمسِ دقائق، فنهضَ ليبَل واتجهَ إلى الحمّام.

وبينما كان يمرُّ بغرفةِ والديه، حيثُ تنامُ السيدةُ يعقوب، شاهدها وهي تندفعُ إلى الخارجِ. كانت ثائرةً وهي تحاولُ أن تربطَ روبَها الصباحيَّ بيدينِ مرتعشتَيْن. وعندما شاهدتهُ صاحتْ:

ـ فيليپ! قل ماذا أصنعُ بالله عليك! لقد غفوتُ ولم يتحرّكْ منبّهُ الساعةِ فلم أستيقظ. كم الساعةُ الآن؟ هل معكَ ساعة؟ ماذا نفعل؟ وكان منظرُها يشيرُ إلى اضطرابها، وكان شعرُها المسرَّحُ جيّداً في العادة ينسدلُ على وجهها. هدأ ليبَل من رَوْعِها قائلاً:

ـ ليس الأمرُ بهذا السوء، يا سيّدة يعقوب. لقد استيقظتُ، والساعةُ الآنَ لم تبلغِ السابعة.

ـ لقد أرحتني وسقطَ حِملٌ ثقيلٌ عن كتفيَّ. قالتِ السيّدة يعقوب ثم أضافت: ما الذي سيقولُه والداكَ لو علما بالأمر؟ هذا أمرٌ لم يسبقْ أن وقعَ لي من قبل.

ـ لن يعرف والدايَ بالأمر. وحتى لو عرفا فليسَ الأمرُ سيِّئاً إلى هذهِ الدرجة. فأنا لم أتأخّرْ عن المدرسة.

ـ أنت ولدٌ طيّبٌ يا فيليپ. قالتِ السيّدة يعقوب وهي تُربِّتُ فوق رأسه ثم تابعت: أرجو المعذرة. سأذهبُ إلى غرفةِ الحمام وفي خلالِ دقيقتينِ أكونُ قد انتهيتُ تماااماً. وبعدها يمكنُك الدخول.

فكّر ليبَل أنّ السيدةَ يعقوب قد لا تكونُ شرّيرةً على الإطلاق، لكنّها بالتأكيدِ ليست لطيفة!

وبعد أنْ خرجتْ من غرفةِ الحمام متأخرةً خمسَ دقائق عن موعدها، عادتْ إلى وضعِها القديم، وبدت كما كانت تبدو من قبل: كان شعرُها مسرّحاً، وروبُها الصباحيُّ مزرّراً، ونبراتُ صوتِها كالمعتادِ عندما قالت له:

ـ تستطيعُ أن تذهبَ الآنَ إلى الحمّام يا فيليپ! أسرع! فأنت تعلم أنّ ما لديكَ من الوقتِ محدودٌ! نظّفْ أسنانَك! فسأذهبُ إلى المطبخِ لتحضيرِ طعام الإفطار!

تناول ليبَل اللّبنَ كالمعتادِ، وحصلَ على نقطةٍ إضافيةٍ من السيدةِ يعقوب، فازدادَ محصولُه من النقاط. وصار يعتقدُ أنّ بإمكانِه أن يجمعَ مئةَ نقطةٍ عندما ينتهي الأسبوع.

ـ هل أُحضِّرُ لك قطعةً من الخبزِ لتأكلَها أثناء الاستراحة؟

ـ حضّري قطعتينِ لطفاً!

ـ قطعتان! أرأيت؟ إنّ على المرءِ أن يدُلَّ الأطفالَ على الطريقِ السليم، فقطعةُ الخبزِ أفضلُ ألفَ مرّةٍ من شوكولاته الكناكي.

ـ شوكولاته الكراكي! صحّحَها ليبَل.

ـ أتريدُهما بالزبدة؟

ـ لا، بالنقانق. وهنا فكّر ليبَل بأنَّ موك سيجدُ النقانقَ أطيبَ طعماً من الخبزِ المدهونِ بالزبدة.

- النقانقُ جيِّدةٌ، وهي تمنحُ الطاقة. إنّ ذوقَك سيتحسّنُ تدريجيّاً.

أثنتْ عليه ثم أضافت: لا تنسَ أن تأخذَ معك معطفكَ المطريّ، فقد نسيته يومَ أمسِ.

- لكنّها لم تمطِرْ أمس.
- لكنّ المطرَ هطلَ ليلةَ البارحة.
- أنا لا أحبُّ ارتداءَ المعاطفِ المطريّة.
- كما تريد! فأنت من سيبتلُّ ولستُ أنا. وتركته يمضي.

أخذ ليپَل يفتشُ عن مُوك على امتدادِ الطريقِ دون توقُّفٍ، وأخذ يُناديه. لكنَّ موك لم يظهرْ ولم يبدُ له أثر. فوصل ليپَل إلى مدرسته دون أن يُطعمَ موك شيئاً من الخبزِ المدهونِ بالنقانق. كانتِ الساعةُ الثامنةَ إلاّ خمسَ دقائق. فشعر ليپَل بشيءٍ من الراحة. وكان ليپَل يمشي الهوَينا ويقطع ممرَّ المدرسةِ ببُطء. فجأةً اضطرَّ ليپَل أن يتوقَّفَ ولم يستطع أن يتحرَّك، فقد رأى إلى جانبِ سلّةِ المهملاتِ الموجودةِ أمامَ غرفةِ الصف السّوارَ الذي رآهُ في الحلم.

توقّفَ ليپَل عن الحركةِ ولم يجرؤْ أنْ ينحنيَ ليرفعَه؛ فقد كان يخشى أن يصحوَ وأن يكون ما يراهُ الآنَ مجرَّدَ حلم.

لكنّ ليپَل انحنى والتقط السّوار. كان هو السّوارَ الذهبيَّ الذي رآهُ ليلةَ البارحةِ في الحلم. كان يشبهُهُ في الحجم والشكل والنمط وكان فيه الحجرُ الأحمرُ نفسُه.

شعر ليپَل بالحيرةِ الشديدة. فكيف يمكنُ لهذا الشيءِ أن يأتيَ من حُلمِه إلى المدرسة.

- صباحَ الخيرِ يا ليپَل! حيّاهُ أحدٌ من على مقربةٍ منه. كانت حميدةُ قد جاءت من غرفةِ الصف. وعندما رأته صاحت:
- سواري معك! هل عثرتَ عليه؟ رائع! لقد فتّشتُ عنه في جميع

أرجاءِ غرفةِ الصف. شكراً! ثم التقطتِ السّوارَ من بين يدي ليپَل الذي كان يشعرُ بالحَيرةِ الشديدة.

- ولكنْ قولي: كيف يمكنُ أن يكونَ هذا السّوارُ لك؟ إنّه ليس لكِ على الإطلاق!
- إنّه لي بكل تأكيد! لقد حصلتُ عليه أمس. ألم تَرهُ معي؟
- أمس! سأل ليپَل. لا أدري. ولكنْ هل هو لك حقّاً؟



- أجل إنه لي. أكّدت حميدة. ثم دخلت مع ليبّل إلى غرفة الصفّ.

- أين أرسلان؟ سأل ليبّل. أليسَ هنا؟

شعرت حميدة بالارتباك، وقالت:

- إنّه.. إنّه مسافر، ولن يأتيَ إلى المدرسةِ هذا اليوم. وإيّاك أن تبوحَ بهذا السرّ لأحد!

- أسلم مسافر! إنّه لم يرجعْ حتى اللحظة.

- أرسلان هو المسافر. قالت حميدة مصحِّحة.

- لا فرق، إنهما شخصٌ واحد! أجاب ليبّل.

وعندما وصلتِ المعلّمةُ كلوبي إلى غرفةِ الدرسِ وسألتْ عن أرسلان، زعمت حميدةُ أنّه مريضٌ، وأنّه مصابٌ بالزكام.

ظلّ ليبّل مدةً ما قبلَ الظهرِ غائباً عن الوَعي، كان يحدِّقُ في سِوارِ حميدةَ ويهزُّ رأسَهُ نفياً وموافقةً، ويُتمتمُ، دون أن يستطيعَ الإصغاءَ لما يقالُ بتركيز.

وقد اضطُرّتِ السيدة كلوبي في حصّةِ اللغةِ الألمانية، وهي حصّتُهُ المفضّلةُ، أن تنبّهَهُ ثلاثَ مراتٍ، حتى يدركَ أنه هو المقصود. ومع ذلك فإنه عجزَ عن الإجابةِ عن السؤالِ، حتى بعد أن قامت بتكرارِ السؤالِ من جديد.

فسألته:

- ماذا حدثَ لك يا فيليب؟ أنا أعرفُ أنّك تحلُم في بعضِ الأحيان. لكني لم أعهدكَ مشتّتَ الذهنِ على هذهِ الشاكلةِ من قبلُ على الإطلاق! إنني أخشى أن تكونَ مريضاً، وأن يكونَ أرسلان قد أصابكَ بالعدوى. قل لأمّكَ إنّ عليها أن تقيسَ درجةَ حرارتك!

- إنّ أمي لا تستطيعُ أن تقيسَ درجةَ حرارتي، لأنها مسافرةٌ ولن تعودَ قبلَ يومِ الاثنين.

- وأين أبوك؟

- إنّه مسافرٌ هو الآخر!

- هل أنت وحدَكَ في المنزل؟ سألتهُ السيدة كلوبي وهي تشعرُ بالقَلق.

- كلا، إنّ السيدة يعقوب تقومُ برعايتي. أكّد ليبّل.

- الآن أدركتُ لماذا تبدو غيرَ قادرٍ على التركيز؟ فأنت تعيشُ وحيداً بعيداً عن أمّكَ وأبيك، وهذا يؤدّي إلى شُرودِ الذهن.

لكنّ شرودَهُ الذهنيّ لم تكن له علاقةٌ بسفرِ والديه ولا بوجودِ السيدة يعقوب. فقد كانت له أسبابٌ أخرى لا يستطيعُ إيضاحَها. فكيف تأتي بعضُ الأشياءِ من أحلامِه لتحطّ فجأةً على أرضِ الواقع؟

أرســلان

بعد انتهاءِ الدوامِ المدرسيّ سار ليبّل مع حميدةَ على امتدادِ شارع هيردر. وبعد مدةٍ قصيرةٍ سألته حميدةُ وهي تتأملُهُ بدقّة:

- هل لديكَ مشكلةٌ؟ لماذا لا تتكلم؟ هل أنتَ غاضبٌ مني؟

- كلا! كلا! إنّني مستغرقٌ في التفكيرِ لا أكثر. إنني لا أستطيعُ أن أربطَ الأشياءَ ببعضها بعضاً. ثم أضاف: لقد سافر أرسلانُ واختفى أسلمُ، وأنتِ تقولين إنّ هذا السّوارَ لك.

- هذا صحيح. إنه سِواري.

- أهو من الذهبِ الخالص؟

- من الذهب؟ لا. إنه يبدو وكأنه من الذهب. لكنه جميل. أليس كذلك؟

- طبعاً، طبعاً. ردّ ليپّل وهو يشعرُ بأنّه مشتّتٌ، وفي أعماقه كان يقول: في هذه الحالِ تكونُ المرأةُ السمينةُ، صاحبةُ النُزل، قد أخطأتْ تماماً، عندما أرادت أن تأخذَ السُوارَ وديعةً. هذا إذا لم يكن من الذهب.

ثم أخذا يسيرانِ معاً ببطء.

وقد شاهدا أمام مدخلِ أحدِ المنازلِ فتًى يجلس على الدّرج. كان الفتى قد أرجعَ رأسَه إلى الوراءِ حتى لامسَ الجدارَ، واسترخى يستمتعُ بأشعةِ الشمس.

وقد مرّت به امرأةٌ سمينةٌ تحملُ كيساً مليئاً بالمشترياتِ، فصاحت في وجهِه، وأنزلته عن الدرجِ بطريقةٍ تُعرِّضُه للخطر.

ولم يكن ذلك الفتى سوى أرسلان.

- أرسلان! كيف وصلتَ إلى هنا؟ ألستَ مريضاً؟ أين كنتَ صباحَ هذا اليوم؟ صاح ليپّل.

هزّ أرسلانُ كتفَيه وقال:

- كنتُ في المدينة.

- هكذا بكل بساطة! هل تعمّدتَ التغيُّبَ عن المدرسة؟ سأل ليپّل.

- التغيُّب؟ تساءل أرسلان. ما معنى هذه الكلمة؟

شرحتْ حميدةُ لأرسلانَ معنى الكلمةِ بالتركيّة.

- نعم لقد تعمّدتُ التغيُّبَ عن المدرسة. أجابَ أرسلان.

ثم ساروا ثلاثتُهم معاً.

وكان على ليپّل أن يسألَ في هذه اللحظة، وبخاصةٍ بعد أن عاد أرسلان:

- أتسمحان لي أن أسألَكما، شريطةَ أن تعداني بألاّ تضحكا مني؟ قال ليپّل.

- لماذا ستضحكُ منك؟ قالت حميدة، ثم أضافتْ: اسألْ ما بدا لك!

بدأ ليپّل حديثَهُ حذراً، فقد أرادَ أن يتدرَّجَ في الأمرِ حتى لا تنكشفَ المسائلُ على الفور.

- هل تعرفانِ أحداً يُدعى السندباد؟

فكّرت حميدةُ وقالت: السندباد. أجل! السندباد. ثم شرعت تبحثُ عن الكلمةِ المناسبةِ وصاحت: أجل السندباد الملاّح!

إذن فهما يعرفانه، بل إنهما يعرفانِ عنهُ أكثرَ مما يعرف. فهما يعرفانِ أنه كان ملاّحاً في البداية.

فتشجّع ليپّل وسأل:

- وأنتما، أرجوكُما أنْ لا تضحكا، هل أنتما أميرانِ وأبوكُما أحدُ الملوك؟

- ملِك؟! قال أرسلان وهو غيرُ قادرٍ على استيعابِ ما يقال.

حدّقت حميدةُ في ليپّل طويلاً، لتعرفَ إن كان يسخرُ منهما، لكنّ نظراتِه كانت تنمُّ عن الجدّيةِ والرزانة.

- هل تهذي؟ هل جُننتْ؟ سألتْ حميدة.

- هل تريدُ التنكيت؟ سألَ أرسلان.

- كلا. لقد كان ذلكَ مجرّدَ سؤال. اعتذرَ ليپّل وأضاف: لكنّ الأمر ليس هيّناً بالنسبةِ لي على الإطلاق. فأنا أعرفُ فتىً يدعى أسلم لا يستطيعُ الكلامَ، كما أنّ أرسلان لا يتحدثُ هو الآخر. وأسلمُ هو ابنٌ لأحدِ الملوكِ، وحميدةُ شقيقتُه، أعني حميدةَ التي أعرفُها. وهاأنتِ تمتلكين سِوارَها.

- حميدة! من أين تعرفها؟ هل هي تركيةٌ أيضاً؟ سألتْ حميدة.

كان من الصعب على ليپّل أن يقولَ إنه حَلِمَ بها، لهذا تمتمَ قائلاً:

- من أحدِ الكتب - أو من إحدى الحكايات.

- آه. أطرقت حميدةُ برأسها وقد أدركتِ الأمرَ وقالت: إنّ أبي يعمل ميكانيكياً، أما أمي فتعملُ في محلٍّ لبيعِ الورود.

وفي هذه اللحظةِ قال لها أرسلانُ شيئاً بالتركيّة، فترجمت ما قاله:

- إنك تستطيعُ أن تزورَنا، وتتعرّفَ إلى أمِّنا.

عندها توجهَ ليبِّل بالسؤال إلى أرسلانَ على نحوٍ مباشرٍ وقال:

- لماذا لا تتحدّثُ على الإطلاق. فأنت تفهمُ كلَّ ما أقول.

- إنني لا أستطيعُ أن أتحدّث. ردَّ أرسلانُ مدافعاً.

- كيف؟ لقد تحدّثتَ للتّو. قال ليبِّل.

- صحيح. لكنّني لا أتحدثُ على نحوٍ صحيحٍ، فكلُّ ما أقولهُ خاطئ.

- وما الضّررُ لو أنّكَ أخطأتَ عندما تتكلم؟

- عندها سيضحكُ الجميع.

- هذا غيرُ صحيحٍ، فأنا لا أضحكُ مثلاً. أكّد ليبِّل.

- ثُمّ إنّ حميدةَ قادرةٌ على أن تتحدّثَ بطلاقة. إنّها أصغرُ منّي ومع ذلكَ فهي تعرفُ كلّ شيء، وعليّ دائماً أن أسألَ لها. لهذا السببِ لا أتحدث.

- الصحيحُ أن تقولَ أن أسألَها. قال ليبِّل مصحِّحاً.

- أرأيت؟ قال أرسلان ساخطاً.

- إنّ من الأفضلِ أن أقومَ بتصويبِ ما في كلامِكَ من أخطاء، وإلاّ فكيف ستتعلم؟ قال ليبِّل.

- لماذا ينبغي أن أقولَ أن أسألَها؟

- لماذا؟ أُصيبَ ليبِّل بالدهشة: لم لا؟ هذه هي القاعدة. ثم فكَّرَ قليلاً وخُيِّلَ إليه أنّه توصّلَ إلى التعليلِ السليم: تقول ذلكَ لأنّ الأمرَ يتعلّقُ بالحديثِ عن فتاةٍ، والفعلُ سأل لا يحتاجُ إلى حرفِ جرّ. فهو يتعدّى بنفسه.

- إنّ عليّ أن أسألَها على الدوام. قال أرسلانُ ثمّ أضاف: وأنا لا

أستطيعُ أن أحكِيها شيئاً.

- وأنا لا أستطيعُ أن أحكيَ لها شيئاً.

- لماذا؟ أليست حميدةُ فتاة؟

- بلى! قال ليبِّل. هذه هي القاعدة.

وعندما تأمّلَ ليبِّل الأمرَ بعمقٍ، تبيّنَ له أنّ اللغةَ الألمانيةَ صعبةٌ تماماً. فقال أرسلانُ متذمّراً:

- والمصيبةُ في أدواتِ التعريفِ الخاصةِ بالمذكرِ والمؤنثِ والمحايد!

- كيف؟ إنها سهلةٌ تماماً. أكّد ليبِّل.

- سهلة؟ تساءلَ أرسلانُ وأضاف: ما هي الأداةُ المستخدمةُ للتعريفِ بالبيت؟

- إنها الأداةُ الخاصةُ بالمحايد.

- أليستِ المدرسةُ بيتاً؟

- طبعاً، إنها بيت. وإلاّ فما تكون إذن؟

- إذن ينبغي أن نقول: المدرسة مستخدمين أداة تعريف المحايد، مع أننا نستخدمُ معها أداةَ التأنيث. قال أرسلانُ بثقة.

- كلا. كلا. صحيح أنّ المدرسةَ هي بيتٌ، لكنّها مدرسةٌ في النهاية وينبغي تأنيثُها (وكان ليبِّل يهمسُ في داخله قائلاً: إنّ الأمرَ مضحكٌ حقاً، فلماذا لا نستخدمُ أداةَ تعريفِ المحايدِ مع المدرسة؟).

- أرأيت؟ شكا أرسلانُ وقال: إنّ اللغةَ الألمانيةَ صعبةٌ جداً، لهذا لم آتِ المدرسةَ هذا اليوم.

- الصواب: لم آتِ إلى المدرسة.

- ما هذا؟ أرأيتَ كيف تتبدّلُ أدواتُ التعريف، وتتغيّرُ الأفعال؟

سحب ليبِّل نَفَساً عميقاً وقال:



- إنني أوافقك.. إنّ اللغة الألمانية أصعبُ بكثيرٍ مما كنتُ أتصوّر. ولكن أين تعلّمتِ الألمانية؟

- في مدينةِ سندل فنجن. ردّت حميدة.

- هل يمكن أن تتركيني كي أُجيبَ بنفسي؟ قال أرسلانُ غاضباً: في مدينةِ سندل فنجن.

- آه. في سندل فنجن. قال ليبّل.

كان الثلاثةُ قد وصلوا إلى شارع فريدريش روكرت، فتوقفوا لحظاتٍ قليلةً. فتوجّهَ أرسلانُ بالحديثِ إلى ليبّل قائلاً:

- ماذا تقول؟ هل ستجيءُ غداً؟

- تعني أن آتيَ لزيارتكُم؟ نعم. بكل سرور. ولكن في أيّ ساعة؟ وأين منزلُكم؟ تساءل ليبّل.

- منزلُنا في شارعِ محطةِ سكةِ الحديد. قالت حميدة.

- هل يمكنُ أن أجيبَ، قال أرسلان: إنه في شارعِ محطةِ سكةِ الحديد.

- حسناً؟ ومتى سأجيء؟

- تعالَ معنا لتتناول الطعام. اقترحَ أرسلان.

- أجل، لتناولِ طعامِ الغداء. وسأُخبرُ والدتي بذلك. قالت حميدة.

- عظيم، لم لا؟ قال ليبّل وقد أعجبته الفكرةُ، ثم أضاف: شريطة أن لا تكونَ البندورةُ من ضمن الطعام.

- لا بندورة. هذا ما سأقوله لأمي. وعدتْ حميدة.

تحدثوا قليلاً، وبعدها استأذنَ ليبّل بالانصراف.

نظرت حميدةُ إلى السماء وقالت:

- دعنا نذهبْ، فإنّها ستمطرُ في الحال. أرسلان! هيا!

- إلى اللقاءِ غداً. قال ليبّل.

- غولي غولي. ردّ أرسلان.

- ماذا تقصد؟ سأل ليبّل متعجّباً؟

- غولي غولي. كرّرها أرسلانُ وهو يضحك.

- ما معنى غولي غولي هذه؟

- إنّها تحيّةٌ تركيّة. وضّحت حميدة.

- آه، حسناً. إذن غولي غولي. قال ليبّل.

ثم تفرّقَ ثلاثتُهم في اتجاهَينِ مختلفَين.

موك يتسبّب في إحداث فوضى

سار ليبّل في شارع فريدريش روكرت، فشاهدَ على الطرفِ المقابلِ من الشارعِ كلباً بنيَّ اللونِ، فتوقّف. كان هو موك. فناداه قائلاً:

- موك! موك! تعال!

قطعَ موك الشارع وحرّكَ ذيلَهُ وكأنّهُ يريدُ أن يُحيّيَ ليبّل، وأخذ يتحسسُ حقيبتَهُ المدرسيةَ بقوّة. أنزلَ ليبّل الحقيبةَ من على ظهرِهِ، ووضعَها على ممرِّ المشاةِ وقال:



ـ دعنا نرى إن كانَ بالإمكانِ أن نعثرَ لكَ على شيءٍ داخلَها!

كان ليبِّل يصنعُ ذلكَ على نحوٍ مملوءٍ بالإثارة، ففتحَ حقيبتَهُ ببُطءٍ، وأخذ يفتِّشُ في ثناياها وكأنه يبحث حقيقةً عن شيءٍ داخلَها. وأخيراً أشفقَ ليبِّل على موك الذي كان يتطلَّعُ إلى الحقيبةِ متلهِّفاً، فمدَّ يدَهُ في الجانبِ الأيمنِ من الحقيبةِ ليُخرِجَ الخبز.

أزالَ الورقَ عن قطعةِ الخبزِ، وقسَّمَها إلى قسمَينِ ورمى القسمَ الأولَ للكلب، الذي هجم على قطعةِ الخبزِ بقوّةٍ وابتلعها.

ثم ناولهُ الجزءَ الثاني من الخبزِ فابتلعهُ، وهنا اشتدَّ نزولُ المطر.

قام ليبِّل بإغلاقِ حقيبتِه المدرسيةِ، حتى لا تبتلَّ دفاترُه وكتبُه، ورمى للكلبِ قطعةَ الخبزِ الثانية، ووضع الحقيبةَ المدرسيةَ فوقَ رأسِه، ليتّقيَ المطرَ النازلَ بقوّةٍ، وودَّعَ موك وأسرعَ يعدو نحو المنزل.

أكل موك قطعةَ الخبزِ الثانيةِ بسرعةٍ، وانطلقَ يعدو خلفَ ليبِّل.

وفي اللحظةِ التي وصل فيها ليبِّل إلى بوابةِ المنزلِ وقرعَ الجرسَ بقوةٍ، كان موك قد وصلَ ووقفَ إلى جوارِه.

فتحتِ السيِّدة يعقوب البابَ وقالت بلهجةٍ تأنيبيّةٍ ظاهرةٍ من على الباب:

ـ هذا هو جزاءُ من لا يرتدي معطفَهُ المطريّ.

وعندما رأى ليبِّل ذلك، أدخل موك معه عبر بوّابةِ المنزلِ ووقفا معاً في الممرّ.

ـ غادِرْ فوراً! هيّا. صاحتِ السيدة يعقوب (موجهةً خطابَها للكلب).

ثم التفتتْ إلى ليبِّل وقالتْ:

ـ كيف تسمحُ لنفسكَ بإحضارِ هذا الوحشِ إلى المنزل؟

ـ أنا لم أُحضِرهُ إلى هنا. لقد جاء من تلقاءِ نفسِه، ردّ ليبِّل.

لم يُعِر موك السيدة يعقوب أيَّ انتباه.

قام أوّلاً بنفضِ جسدِه بقوّةٍ، فتطايرت قطراتُ الماءِ عنه حتى وصلت إلى السقفِ، بعدها دخل إلى غرفةِ المعيشةِ دون تردُّدٍ، وتمشّى فوق سجّادِها الفاتحِ بأرجُلِه القذرة، وقفز إلى الكنبةِ التي اعتادتِ السيدةُ يعقوب أن تجلسَ فوقَها عندما تستخدمُ الهاتفَ، وجلسَ وهو يشعرُ بالارتياح. بعدها أخذ موك يتلفَّتُ يُمنةً ويُسرةً، ثم ركل بإحدى قدميه إحدى المخداتِ الموجودةِ فوق الكنبةِ وتمدّد وهو يتنفسُ الصُّعَداء.

حدّقتِ السيدة يعقوب بالكلبِ عدةَ لحظاتٍ وهي تشعرُ بالصدمةِ، ثم اندفعت نحوَه ووقفت أمامَ الكنبةِ وصاحت:

ـ اخرج! انزِلْ من على الكنبةِ حالاً، وغادرِ المنزلَ على الفور!

رفع موك رأسَه قليلاً. ونظراً لأنَّ السيدة يعقوب لم تجرؤ على لمسِه، فقد وضع موك رأسَه على قدميهِ الأماميَّتَين، وتمدّدَ موحياً بأنه سيغفو قليلاً.

ثم جاء ليبِّل وخاطبَ موك بصوتٍ مملوءٍ بالتأنيبِ قائلاً:

ـ لا يصحُّ أن تفعلَ ذلك! انظر ماذا فعلتَ بالسجّادة! هيّا انزل حالاً!

ثم أمسكه من مؤخرةِ عُنقِه وحاول أن ينزلَه عن الكنبة.

أدرك الكلبُ المطلوبَ في الحالِ، فقفز عن الكنبةِ إلى السجّادةِ، ونظر إلى ليپَل وكأنه يقول له:

ـ وماذا عليّ أن أفعلَ الآن؟

ـ تعالَ معي! هيّا! قال ليپَل بلهجةٍ آمرة.

فتح ليپَل بابَ المنزلِ وقال:

ـ هيّا اخرج! فأنتَ مبلولٌ وقذرٌ تماماً!

سار موك بضعَ خطواتٍ وراء ليپَل، لكنّهُ ارتدّ سريعاً إلى الوراءِ وعاد إلى غرفةِ المعيشة، وقفز فوقَ الكنبةِ، عندما رأى بابَ المنزلِ قد فُتِح، والمطرُ ما يزالُ يتساقطُ بقوّة.

امتلأتِ السجادةُ الفاتحةُ اللونِ بآثارِ خُطى أقدامِ الكلبِ القذرة، فقال ليپَل:

ـ إنّني أستطيعُ طردَه خارجَ المنزل، إذا أعطيتُه شيئاً ليأكلَه. فأنا أحتاجُ إلى قطعةٍ من النقانقِ أو ما شابه.

فتحتِ السيدة يعقوب ثلاّجةَ المطبخِ، وأخذت تفتّشُ في داخلِها بأصابعَ مرتعشةٍ عن النقانقِ وهي تصيح:

ـ كلبٌ في المنزل! وقذارةٌ كبرى! كيف تجرؤُ على أن تفعلَ هذا؟

أكّد ليپَل مرةً أخرى أنّه لم يقُم بإحضارِ الكلب.

عثرتِ السيدة يعقوب على قطعةٍ من النقانق. أرادت أن تعطيَها في بادئ الأمرِ لليپَل، لكنّها فكرت بعد ذلكَ في أمرٍ مختلف. فذهبت ومعها قطعةُ النقانقِ إلى غرفةِ المعيشة.

ـ ماذا يُدعى الكلب؟ ما اسمُه؟ سألتِ السيدة يعقوب.

ـ اسمه موك. قال ليپَل.

وضعتِ السيدة يعقوب قطعةَ النقانقِ أمامَ أنفِ موك وصاحت:

ـ موك، تعالَ معي!

قفز موك في الحالِ من على الكنبةِ، وجرى يلهثُ وراءَ النقانق.

ـ لا. لا تفعل! صاحتِ السيدة يعقوب بخوفٍ ورفعت قطعةَ النقانقِ إلى الأعلى، فقام ليپَل بإبعادِ الكلبِ وأمسكَ به بقوّة.

ركضتِ السيدة يعقوب في الممرّ، وبدلاً من أن تفتحَ بابَ المنزلِ، فتحتِ البابَ المؤدّي إلى القبو.

ـ دعهُ الآن! صاحتْ مخاطبةً ليپَل.

جاءَ موك إلى الممرّ سريعاً. فأرتهُ السيدة يعقوب قطعةَ النقانقِ ورمتها فوق درجاتِ القبو.

ركض موك خلفَ النقانقِ ونزلَ الدرجاتِ الموصلةَ إلى القبو. عندها قامتِ السيدة يعقوب بإغلاقِ البابِ بالمفتاح، فسألها ليپَل:

ـ لماذا لم تقومي برَمي النقانقِ إلى الشارع؟ إنّه الآنَ في القبو.

ـ إنّ مكانَه الحقيقيّ هو في القبو. هناك ينبغي أنْ يبقى.

ـ لماذا؟ ماذا سيفعلُ موك في القبو؟

ـ إنّ على أصحابِه أن يأتوا إلى هنا لاستلامِه. وهم لن يأخذوهُ قبل أن يدفعوا أُجرةَ تنظيفِ السجادِ والكنبةِ والمخدّة. ردتِ السيدة يعقوب بغضب.

ـ لكنّ موك كلبٌ متشرّدٌ لا أصحابَ له، فهو يتنقّلُ منذ بضعةِ أيامٍ هنا وهناك.

ـ كيف عرفتَ اسمَه إذن؟

ـ إنني لا أعرفُ اسمَه في الواقع. وقد أطلقتُ عليه هذا الاسمَ من عندي.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ بالتأكيد.

فكّرتِ السيدة يعقوب قليلاً ثم قالت:

ـ إذن سأستدعي الشرطة، وسيقومون بأخذه.

ـ لماذا الشرطةُ تحديداً؟ إنه سيختفي إلى الأبدِ ولن أتمكّنَ من رؤيته، وما دخلُ الشرطةِ بالكلب؟ تساءل ليپل.

ـ سيأخذونَهُ إلى مأوى الحيواناتِ، إلى بيتِ الكلابِ، وسيرتاحُ هناك.

ثم اتجهتْ إلى الهاتفِ وبدأت بالاتصال.

كان ليپل يقفُ ثائراً إلى جانبها وهو يقول:

ـ أرجوكِ، دعيه يذهبُ يا سيدة يعقوب!

ـ كلا! هذه مسألةٌ لا مجالَ للنقاشِ حولها. اخفض صوتك قليلاً، فأنت تراني أريدُ أن أتكلمَ بالهاتف.

تسلّلَ ليپل إلى الممرّ، وفي نيّتِه أنْ يفتحَ بابَ القبوِ بهدوء، ويدعَ موك يهرب. لكنّ السيدة يعقوب كانت قد خبّأتِ المفتاحَ معها.

فعاد ليپل حزيناً إلى غرفتهِ وتمدّد فوق سريره وأخذ يحدّقُ في السقف.

اتصال هاتفي

جاءتِ السيدة يعقوب بعد وقتٍ قصيرٍ إلى غرفته، كي تصطحبه إلى المطبخ لتناولِ طعامِ الغداء.

رفض ليپل الاستجابةَ واستدار نحو الحائط، فقالت له السيدة يعقوب بغضب:

ـ إن لم تكن راغباً في تناولِ الطعامِ، فأنا لا أستطيعُ أن أجبرَك.

ثم عادت.

بعد مُرورِ وقتٍ طويلٍ سمعَ ليپل صوتَ جرسِ المنزلِ وهو يُقرعُ. جلس ليپل فوقَ سريرِه وأخذ يُصغي إلى ما يدورُ حوله. سمع أوّلَ ما سمعَ أصواتَ عدد من الرجال، ثم سمع صوتَ السيدةِ يعقوب. بعد ذلك بقليلٍ جرى فتحُ أبوابِ القبو. وقد عرف ليپل ذلك من خلال صريرِ تلك الأبواب. ثم عاد واستمعَ إلى أصواتِ الرجال، ثم جرى إغلاقُ بوّابةِ المنزل.

لم يستطعْ ليپل أن يبقى في فراشِهِ طويلاً، فنزلَ الدرجَ بهدوء. كانتِ السيدة يعقوب تتحدّثُ بالهاتف، وكان بابُ القبوِ هذه المرّةَ مفتوحاً. نادى ليپل بصوتٍ خفيضٍ:

ـ موك! موك! لكنَّ موك لم يظهر كما اعتاد أن يفعلَ وهو يحرّكُ ذيلَه. لم يكن سوى الفراغِ ودرجِ السردابِ المُقفِر. لقد اختفى موك.

عاد ليپل إلى غرفتهِ مجدّداً، وتمدّد فوقَ السرير، وغطّى وجهَهُ بالمخدّة، فلم يعد قادراً على رؤيةِ أحدٍ، ولم يعُد أحدٌ قادراً على أن يراه. وقال لنفسه بحزم:

ـ سأظلُّ متمدّداً على هذهِ الشاكلة ولن أنهضَ من على السرير.

وظلَّ ممدّداً على هذا النحوِ وقتاً طويلاً، وأفكارُهُ الحزينةُ تملأُ رأسَه.

فجأةً فُتحَ البابُ ودخلتِ السيدة يعقوب وهي تقول:

ـ فيليب! فيليب. هناك مكالمةٌ هاتفيةٌ لك من أبيك وأمك.

مكالمةٌ هاتفية! هل كان سمعهُ صحيحاً هذه المرة؟ أزاحَ ليپل المخدّةَ وقفزَ من فوقِ السرير.

ـ أخيراً! هل كنتَ نائماً؟ أسرع فإنهما ينتظران.

قفزَ ليپل الدرجاتِ وأسرع إلى سماعةِ الهاتفِ وقال بانفعال:

- مرحباً! أنا ليپَل.

- ليپَل. ولدي! أخيراً تمكّنتُ من الحديثِ معك؟ كيف حالك؟ سألتهُ أمُّه.

- لماذا لم تتّصِلا بي من قبل؟ لقد انتظرتُ مكالمتَكُما بفارغِ الصبر. ردّ ليپَل مُعاتباً.

- لقد حاولنا أن نتّصِلَ بكَ مراراً، ولم ننجح في الاتصالِ سوى مرّةٍ واحدة. لا بُدّ أنّ السيدة يعقوب قد أخبرتكَ بذلك. أليس كذلك؟

- أجل. لقد فعلتْ؛ أكّد ليپَل.

- لقد حاولنا الاتصالَ بك ثلاثَ مراتٍ يومياً.

- وماذا كان يحصل؟ سأل ليپَل.

- كان الهاتفُ مشغولاً دائماً. فاعتقدنا، أنا وأبوك، أنّ الهاتفَ مُعطّلٌ، فهو مشغولٌ باستمرار. وبالمقابل فأنتَ لم تتّصلْ بنا. مع من تتحدثُ يا تُرى طيلةَ هذا الوقت؟

- لستُ أنا. إنّها السيدة يعقوب. فهي تتحدثُ كثيراً في الهاتف. ردّ ليپَل. وقد كان ذلك تعبيراً مجاملاً في الواقع، فقد كان يريدُ أن يقول: إنها تستخدمُ الهاتفَ دون توقُّف.

- هذا هو السبب - قالتِ الأم - لا بأس فها نحن نتحدّثُ معاً. إننا نفتقدُكَ كثيراً. لكنْ قُل لي: كيف حالُك؟

- حالي سيئة. ردُّ ليپَل.

- سيئة. لماذا؟ هل أنتَ مريض؟ كان صوتُ والدتِه مملوءاً بالقلق، ثم تابعت: هل تواجهُ مشكلاتٍ مع السيدة يعقوب؟ احكِ لي. هيّا!

- لقد طردَتْ موك. ولن أتمكّنَ من رؤيتِه إطلاقاً. ردّ ليپَل.

- من؟ موك؟ ومن هو موك هذا؟ ومن أين أحضرتَه؟



- موك هو أحدُ الكلاب. وكان في منزلنا، فقامتِ السيدة يعقوب باحتجازِه في القبْو، ونادتِ الشرطةَ وتركتهم يأخذونَه.

- آه كلب! هل قمتَ أنتَ بإحضارِه؟

- لقد تبِعَني إلى المنزل.

سادَ الصمتُ بضعَ لحظاتٍ ثم قالتْ أمُّه بحذَر:

- إنني أتفهّمُ دواعي حُزنِك، لكنّني أتفهّمُ، بالمقابلِ، ما فعلتهُ السيدة يعقوب.

- ماذا؟ يمكنكِ أن تتفهّمي ما فعلتْه!

- إنها ضيفةٌ في منزلنا - قالتِ الأمُّ موضحةً - وهي لا تستطيعُ أن تقبلَ وجودَ كلبٍ في منزلٍ لا يخصُّها.

صمتَ ليپَل.

- هل تسمعُني يا ليپَل؟ أما تزالُ على الهاتف؟ سألتهُ أمُّه.

- أجل. قال ليپَل باختصار.

- إنَّ السيدة يعقوب لم تفعلْ ذلك عن وقاحة.

صمتَ ليپَل. وكان يشعرُ بالإهانة. فها هي أمُّهُ تقفُ إلى جانبِ السيدة يعقوب وتقولُ إنها على حق.

كان ليپَل يذهبُ في مثلِ هذه الحالاتِ إلى المرحاض، ويغلقُ بابَه ويبقى فيه طويلاً، يفكِّرُ في الإهانةِ التي تعرَّضَ لها. لكنه آثر هذه المرةَ أن يُبديَ امتعاضَه عن طريقِ اللجوءِ إلى إجاباتٍ مختصرةٍ وحاسمة.

- ولكنْ هل أمورُكَ الأخرى تسيرُ على ما يرام؟ وهل لديكَ ما تحتاجُ إليه؟

- هِمْ.. أجاب ليپَل.

- هل سبقَ لكَ أنْ قمتَ بزيارةِ السيدةِ بشكي؟

- نعم.

- هل الأمورُ في مدرستِكَ تسيرُ على نحوٍ حسن؟

- هِمْ.

- هل تفتقدُنا قليلاً؟

- نعم.

- أرجوكَ يا ليپَل. لا تشعرْ بالإهانة.

- هِمْ.

- كيف الطقسُ عندَكم؟ هل ما يزالُ متقلباً، أم أنَّ الشمسَ مشرقةٌ كما هي عندنا؟

- كلا.

- ليپَل! إنَّ عندي فكرةً رائعة.

- ما هي؟

- انتظر قليلاً. فسوف أناقشُها مع أبيكَ بسرعة.

وهنا حلَّ الهدوءُ في الجانبِ الآخر.

- ألو.. أمي! قال ليپَل.

ولم يستمع إلى جواب.

- ماما، أما زلتِ على الهاتف؟ تساءلَ ليپَل بخوف.

- لقد عدتُ إليكَ ثانيةً. لقد وافقَ أبوكَ على الاقتراح. وهو يسلِّمُ عليكَ كثيراً.

- على ماذا وافقَ أبي يا ترى؟ وما هو المقترحُ الذي لديكما؟

- لن نجيءَ يومَ الاثنين. فسنسافرُ من هنا مساءَ السبتِ، ونكون عندكَ يومَ الأحد.

- رائع. وفي أيةِ ساعةٍ ستصلان؟

- أظن أننا سنكونُ عندكَ وقتَ تناولِ طعامِ الغداء.

- إذن ستأتيان مبكِّرين! هذا يُسعدُني تماماً. قال ليپَل سعيداً.

- لقد سعدنا نحنُ أيضاً بذلك! قالت أمُّه. ثم ودَّعتهُ، لتدعَ المجالَ لأبيه كي يتحدَّثَ معه بضعَ كلماتٍ على الهاتفِ ولتنتهيَ المكالمة.

ذهب ليپَل إلى المطبخِ حيثُ كانتِ السيدة يعقوب.

- أبلِّغُكِ تحياتِ والديَّ. قال ليپَل.

- شكراً.

- وماذا فعلتِ يا تُرى بموك؟ سألها بتأنيب.

- إنه الآنَ في بيتِ الكلابِ ووضعُهُ جيِّدٌ، تستطيعُ أن تطمئنَّ. ومن هناكَ يمكنُ لمالكيه أن يأخذوهُ، إذا كان له أصحاب.

- همْ.. أجاب ليپَل، ثم قال في أعماقه: إنَّ لديه كلباً آخرَ يستطيعُ أن يلعبَ معه!

ـ أليس لديكَ أصدقاءُ آخرون من الأطفالِ تلعبُ معهم؟

ـ بالطبع. لديَّ أصدقاء. وهنا أضاف ليپَل: هل تسمحينَ لي بأن أتناولَ طعامَ الغداءِ غداً عند زميلٍ من زملاءِ الصف؟ فقد دعاني للغداء.

نظر ليپَل إلى السيدة يعقوب، وبدا له للوهلةِ الأولى أنّها سترفضُ، وأنّ خلافاً سينشبُ بينهما في الحال. لكنها كانت قد قررت أمراً مختلفاً. فلعلّها شعرت بتأنيبِ الضميرِ بسببِ ما وقعَ للكلب، لهذا بدت مرنةً أكثرَ من المعتاد، فقالت:

ـ كما تشاء. وهذا يعني أنني سأتناولُ غداً طعامَ الغداءِ وحدي. ولكنْ لا تتأخرْ في الرجوعِ إلى المنزل! وإلاّ لن يتبقّى وقتٌ لأداءِ الواجباتِ المدرسيّة. هل قمتَ بأدائها اليوم؟

ونظراً لأنّ ليپَل لم يقُم بأدائها، فقد صعدَ في الحالِ إلى غرفته وأمضى ما تبقّى من عصرِ ذلك اليومِ في أداءِ واجباتِه المدرسية.

كان ليپَل ينتظرُ العشاءَ بفارغِ الصبر. فقد كان شديدَ الجوع، فهو لم يأكلْ أيَّ شيءٍ منذُ أن تناولَ شوكولاتة الكراكي في الاستراحة.

وعندما ناولتهُ السيدة يعقوب قطعةَ خبزٍ عند العشاء، أكلها أسرعَ بكثيرٍ مما اعتادَ أن يفعل. لهذا علّقتِ السيدةُ يعقوب قائلةً بفخر:

ـ لقد أعجبتكَ كما يبدو! ولو قُدِّرَ لكَ أن تبقى عندي مدةً زمنيةً أطول، فلن تظلَّ نحيفاً على هذه الشاكلة.

وعندما آوى ليپَل إلى فراشِه، كان الظلامُ قد حلّ. ومع ذلك فلم يتمكّن من النوم. ولعلَّ ذلك يعودُ إلى كثرةِ ما تناولَ من الطعام.

ظل ليپَل يتقلّبُ من جهةٍ إلى أخرى، ولا يدري ماذا يفعل. فيجلسُ تارةً، ويغطّي نفسَهُ تارةً أخرى حتى يصلَ الغطاءُ إلى ذقنِه، ثم يقومُ بسحبِ الغطاءِ ليصلَ إلى ركبتَيه. وقد كان يضعُ رأسَه على المخدّةِ،

ثم يضعُ المخدّةَ فوق رأسِه. لكنّ ذلك كلّه كان قليلَ الجدوى، ولم يستطع أن ينامَ إلاّ عند الساعةِ الحاديةَ عشرةَ ليلاً. فأخذ يواصلُ حُلمَهُ من جديد.



الحلم الرابع

كان الصَباحُ قد طلعَ في تلكَ الأثناء.

استمع ليبَل إلى صوتِ العصافير، القادمِ من سطحِ النُزلِ، وهي تشدو عند بُزوغِ الفجر.

وعندما ذهبتِ العتمةُ وبانَ الصبحُ، ازداد الضجيجُ واقتربَ أكثرَ فأكثر. كانَ أحدُ الرُعيانِ يسوقُ قطيعَ الأغنام ماراً بالنُزل. أصغى ليبَل أولاً إلى ثُغاء الماعز، ثمَ إلى صوتِ الراعي الذي يقودُ القطيع. بعد ذلك مرَّ رجلٌ يركبُ حمارَه. ويبدو أنَ الرجلَ معروفٌ عند ساكني الزُقاق، لأنَ التحياتِ كانت تنهالُ عليه بصوتٍ عالٍ ونغمةٍ مرحةٍ من كل حدبٍ وصوب. وكان الرجلُ يردُّ على التحياتِ بالأسلوبِ نفسه.

في المنزلِ المجاورِ كان ثمةَ من يستخدمُ المطرقة. وقد ارتفعَ صوتُ ذكوريٌ يشتمُ رجلاً يُدعى سعيداً، ويلعنُ آباءَهُ وأحفادَه. أخيراً استمعَ ليبَل إلى صوتِ صاحبةِ النُزلِ وهي تُغنّي في ساحةِ النُزلِ الداخلية، وتروحُ جيئةً وذهاباً ومعها أطباقُها المعدنيّة. كانت، على الأرجح، تُعدُّ طعامَ الإفطارِ للمُقيمينَ عندها.

فجأةً، شعر ليبَل أنَّ حميدةَ تتأمّله.

استدارَ نحوَها وحاولَ أن يبتسمَ، ثم قال لها مواسياً:

- سيعودُ أسلمُ بكلِّ تأكيد.

كان ليبَل يواجهُ صعوبةً في الوصولِ إلى مستوى شجاعةِ حميدة، فهو فتًى سريعُ الانفعال. لكنهما الآنَ يجلسانِ معاً في الغرفةِ وينتظرانِ والأسئلةُ تدورُ في ذهنِ كلٍّ منهما:

تُرى ما الذي حدثَ على وجهِ التحديد؟ أين اختفى كلٌّ من أسلمَ وموك؟

ماذا يتوجَّبُ عليهما أن يفعلا إذا لم يعُد أسلم. وهنا سألت حميدة:

- هل نقومُ بالبحثِ عنه؟

- هذا ما كنتُ أفكرُ فيه. لكنّني أخشى أن يعودَ إلى هنا أثناء بحثِنا عنه.

- أستطيعُ أن أذهبَ للبحثِ عنه، ويُمكنكَ البقاءُ هنا. فأنا بنتُ هذه المدينةِ وأعرفُها أفضلَ من معرفتكَ بها. قالت حميدةُ مقترحةً. لكنَّ ليبَل ردَّ قائلاً:

- أنا الذي سيذهب. فنحن لا ندري مكانَه، ولا نعرفُ أين سنبحثُ عنه. وفي حالةٍ كهذه تستوي المعرفةُ بالمدينةِ والجهلُ بها.

- أنتَ على صواب. وأسألُ اللّهَ أن يرعاك! كن حذراً وبخاصةٍ من الحرس!

عندما وطِئت قدما ليبَل أرضَ الساحةِ الداخليةِ للنُزل، كانت صاحبةُ النُزلِ تطبخُ التين. وقد شاهد ليبَل قِدراً ضخمةً فوق النار، وكانتِ المرأةُ تحرِّكُ ما في داخلِ القدرِ بالملعقةِ الضخمةِ التي تمسكُها بيدِها. صاحتِ المرأةُ عندما رأته:

- آه! لقد صحوتُم من النوم! هل صحا زميلاكَ الآخران؟ هل أعدُّ لكم الإفطار؟

لم يُجِبْ ليبَل عن أسئلتِها واكتفى بأن سألَها:

- هل رأيتِ أسلم؟

- الولدَ الأخرس؟ أليسَ معكُم؟

- كلا. لقد اختفى هو والكلب. ولا نعرفُ أين ذهب.

- هكذا! لم لمْ يُخبركم بالمكانِ الذي سيذهب... أرجو المعذرة. يا لها من ملاحظةٍ غبيّة. ما الذي يمكننا أن نفعله؟

- سأشرعُ بالبحثِ عنه. أكّد ليپّل.

كان الطقسُ ما يزالُ مُعتدلَ البرودةِ في الخارج.

وكان أصحابُ الحِرَفِ قد فرغوا من تناولِ إفطارِهم، وجلسوا أمامَ محلاّتِهم يباشرون أشغالَهم.

وكان ثمةَ أطفالٌ يلعبون لعبة «الرجل الأسود».

اتجهَ ليپّل نحوهم وسألهم:

- هل شاهدتُم فتًى غريباً يمرُّ من هنا؟ إنّه في مثلِ سنّي ومعه كلبٌ بنيُّ اللون.

نفى الأطفالُ رؤيتَهم للفتى وللكلب.

كان ليپّل حائراً أيَّ الطرقِ يسلك. ثم اتخذَ قرارَهُ، فصار يركضُ على امتدادِ الزُّقاق. بعدها صار يركضُ على امتدادِ أحدِ الأسوارِ العاليةِ التي تُحيطُ بإحدى الحدائق. وكان قريباً من بعضِ أشجارِ الفاكهةِ التي كانت أغصانُها تمتدُّ فوقَ الزُّقاق، عندما رأى أسلمَ قادماً في الاتجاهِ المقابل.

كان أسلمُ في أقصى درجاتِ سرعتهِ، ويركضُ بأقصى ما يستطيعُ من قوة.

كاد كلٌّ منهما يتجاوزُ الآخرَ، لكنهما توقفا فجأةً.

- ليپّل! صاحَ أسلمُ وهو يلهثُ ويتنفّسُ بصعوبة.

- أسلم، ها أنت تستطيعُ الحديث! صاح ليپّل مملوءاً بالدهشة ثم

أردف: لماذا صارَ من المسموحِ لكَ أنْ تتكلَم؟ ماذا جرى؟ تكلَم!

- توقف! واقفِزْ من فوقِ السُّور! هيّا! صاحَ أسلم.

وقد ألحَّ عليهِ لدرجةِ أن ليپّل فعلَ ما طلبَهُ منه دونَ مناقشة.

تسلّقَ ليپّل الجدارَ وقفزَ ليسقطَ في حديقةٍ غريبة. نزل ليپّل على مقربةٍ من حوضٍ من أحواضِ الزُّهور، في حين سقطَ أسلمُ فوق حوضِ الزهور.

- ما الأمر؟ همس ليپّل وهو يشعرُ بالقلق.

- ألا تسمع؟ همسَ أسلم. أصغى الاثنان، فهمس ليپّل:

- صوتُ حوافرِ الخَيل! ثم سأل: هل همُ الحراسُ الثلاثة؟

- بل اثنان. وهما يطاردانني.

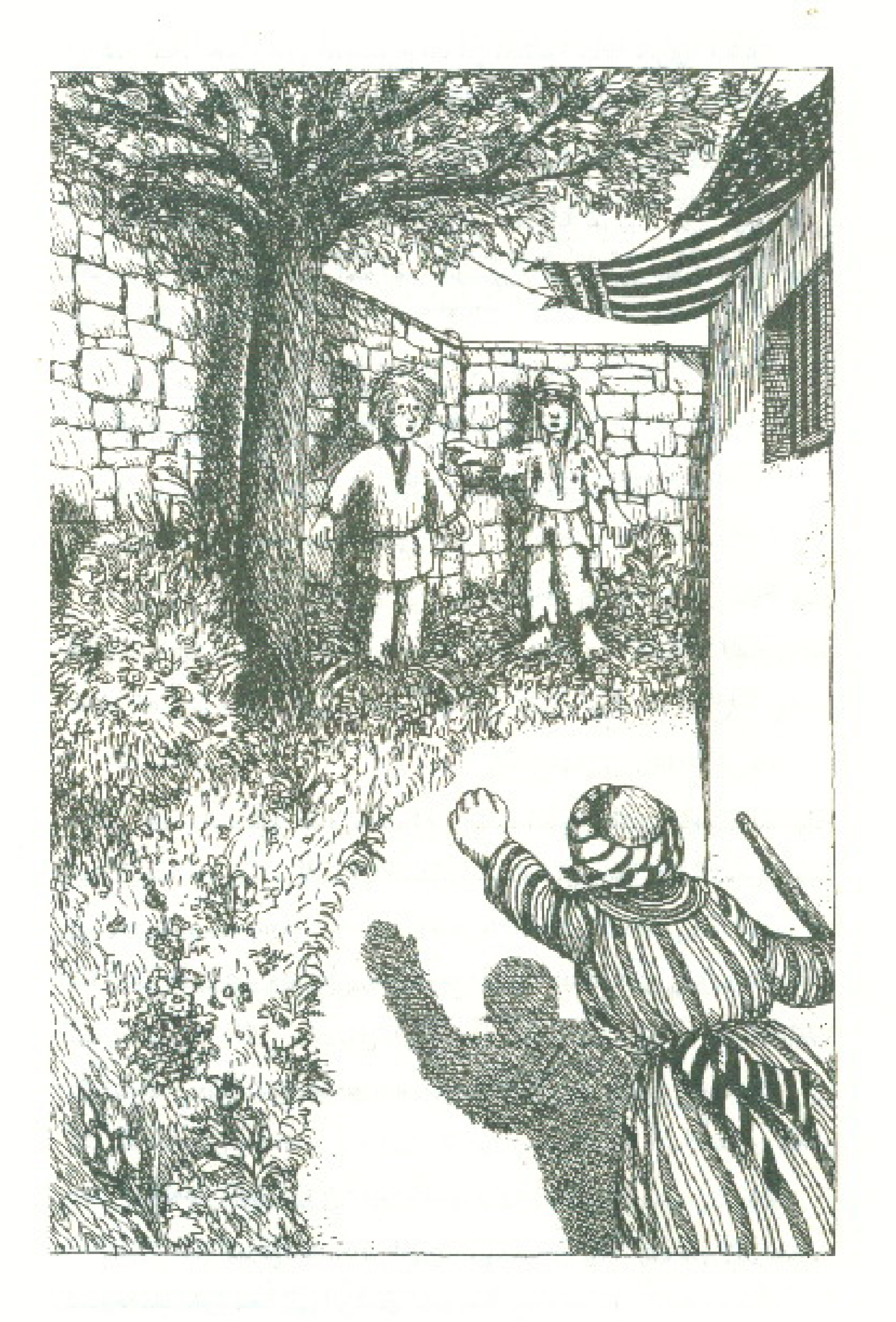
كان صوتُ حوافرِ الخَيلِ فوقَ حجارةِ الرصيفِ يزدادُ عُلوّاً. فقد كان ثمةَ فارسانِ يَعْدُوانِ بفرَسَيهما على الجهةِ المقابلةِ للسُّور، ثم صار الصوتُ يخفُتُ حتى لم يعُد يُسمع. فقال ليپّل بارتياح:

- لم يكتشفانا!

في هذه اللحظةِ دُفِعَ مصراعُ نافذةِ المنزلِ الذي تعودُ الحديقةُ إليه، واندفعَ من أحدِ الأبوابِ الخلفيةِ في الحال، رجلٌ غاضبٌ والسَّوطُ في يدهِ وهو يصيح:

- أخيراً أمسكتُ بكما أيها اللصّان! أنتما اللذان اعتدتُما على سرقةِ شجرةِ الرمّان! لكن ما دخلُ الورودِ ولماذا دستُما فوقَها؟ إنّ عليكما أن تذوقا، جزاءَ ذلك، طعمَ عصاي. كانَ الرجلُ يصرخُ ويحاولُ في تلك الأثناءِ أن يُمسكَ برداءِ ليپّل الذي أُصيبَ للحظةِ بالذُّهولِ، لكنه أسرعَ بالعَدْوِ نحو فروعِ أحدِ الأشجارِ وصعدَ فوقه.

كان أسلمُ أسرعَ، فقد قفزَ إلى أعلى السورِ، ومدَّ يدَهُ لليپّل وسحبَه نحوه، ثم قفزا معاً إلى الزُّقاق.



كان صاحبُ الحديقةِ يواصلُ شتمَ اللصّينِ، ويتحسّرُ على زهورِه التي تكسّرت وإن كانَ الهدوءُ قد أخذَ يعودُ إليه بالتدريج.

ـ دخلَ الرجلُ إلى منزلِه. قال أسلمُ ثم أضاف: إنّه لا يستطيعُ أن يتسلّقَ السُّورَ، لأنّ ذلك يكلّفُه الكثيرَ من الجهدِ والعناء.

ـ لقد كان على وشكِ الإمساكِ بي. قال ليبّل وهو يمسحُ عرقَه عن جبينه، ثم أضاف مخاطباً أسلم: والآنَ يتوجّبُ عليكَ أن تحكيَ لي عن كلِّ شيء. كيف استطعتَ أن تتحدثَ؟ وأين كنتَ؟

ردَّ أسلمُ خائفاً:

ـ ألا تسمعُ صوتَ الخيل؟

فأصغى ليبّل ثم صاح:

ـ إنّهما يعودان! ماذا نفعلُ الآنَ! ها هما يعودان!

ـ هيا اقفزْ عن السُّور! قال أسلمُ بلهجةٍ آمرة. مدَّ ليبّل يدَهُ وقفزَ الاثنانِ فوق حوضِ الزهور.

قال ليبّل يائساً:

ـ انظرْ صاحبَ الحديقة! إنه واقفٌ ومعهُ عصاه!

ـ ضرباتُه أخفُّ وطأةً من الحرس!

لم يتأخّرْ ظهورُ صاحبِ الحديقة، فقد سمع صوتَ القفزةِ بوضوح. نظر الرجلُ عبرَ البابِ وصاح:

ـ لقد عادَ هذانِ الوحشانِ، هذانِ الوغدان! عادت هذه العصابةُ إلى حوضِ الزُّهور، لن تُفلتا منّي هذه المرةَ وحقِّ رسولِ الله!

تطلّعَ ليبّل نحو أسلم، يسألُه النصيحة.

كانَ الحارسانِ يقودانِ فرسَيهما على الطرفِ المقابلِ للسُّور، وكان صاحبُ الحديقةِ يهددُهما ويطاردُهما بوصفِهما لصّين.

- اتبعني! صاحَ أسلمُ بصوتٍ نصفِ عالٍ وهو يركضُ على امتدادِ السُّورِ، في الجزءِ الأقصى من الحديقة.

كان صاحبُ الحديقةِ يلاحقُهما وأنفاسُه تكادُ تتقطّع.

وعندما ظنَّ الرجلُ أنه استطاعَ أن يحشرَهما في إحدى الزوايا، قاما فجأةً بتغييرِ اتجاهِهما واندفعا خلالَ بابِ المنزل.

- ماذا تصنع؟ إنّه منزلُ صاحبِ الحديقة! قال ليبّل لاهثاً، وهو لا يكفُّ عن الجَري خلفَ أسلم.

لم يردَّ أسلم، بل جرى في ممرِّ المنزل، وفتحَ أحدَ الأبوابِ ثم أغلقَها، فوجدا نفسَيهما في الغرفةِ الخاصةِ بالنساء، ولما خرجا منها وجدا بوابةَ المنزلِ، ففتحاها وخرجا ليجدا أنهما صارا في الشارعِ المقابلِ للحديقة.

وعندما وصل صاحبُ الحديقةِ إلى بوابةِ المنزلِ، كان أسلمُ وليبّل قدِ اختفيا وراءَ المنعطفِ وصارا في أمان. عندها قال أسلم:

- انتظر، حتى نصلَ إلى شقيقتي حميدة، وإلاّ صرتُ مضطراً لإعادةِ الحكايةِ مرّتين.

سارا بحذرٍ شديدٍ نحو النُّزلِ خوفاً من الحرسِ ووصلا إلى هناك سالمَيْن.

كانت حميدةُ في غايةِ السُّرورِ، فعانقت أخاها كما عانقت ليبّل وقالت:

- لم أكن أتوقّعُ أن يتمكّنَ ليبّل من العُثورِ عليك. إنّه حقّاً ساحر!

- أين كنت؟ وأين موك؟ سأل ليبّل وهو يتوقُ إلى معرفةِ ذلك.

- موك! لا أعرفُ تحديداً. لكنني أرجو ألاّ يكونَ قد مات. قال أسلمُ وهو يشعرُ بالأسى والمرارة. ثم أضاف: سأحكي لكما القصةَ بأكملِها:

لقد أمضيتُ ليلةَ أمسِ دون أن تغفو عيناي، وأنا أفكِّر.

لقد أخبرَني معلّمي سندباد أنّ عليَّ أن أصمتَ لمدةِ سبعةِ أيام. فاستلقيتُ على فراشي وأخذتُ بالعدِّ والحساب، إلاّ أنني لم أعرف إن كان ما مرَّ ستةُ أيامٍ أو سبعةُ أيام.

وكان سندبادُ هو الشخصُ الوحيدُ القادرُ على مساعدتي، وكان عليَّ أن أذهبَ إلى منزله! كان ذهابي مخاطرةً، لأنَّ منزلَهُ يقعُ إلى جانبِ القصرِ، وكنتُ معرضاً للاكتشافِ والاعتقالِ لو ذهبتُ إليه في وضحِ النهار. لذلك صمّمتُ أن أذهبَ إلى منزله ليلاً.

لقد كان كلاكُما يغطُّ في نومٍ عميقٍ، ولم أُردْ أن أوقظكما. كنتُ أعتقدُ أنني سأعودُ عند الصباح.

كان الكلبُ موك وحدَهُ يقظاً، فعندما قمتُ بالتسلّلِ من الغرفةِ تبعَني وسارَ خلفي.

قرعتُ بابَ منزلِ السندبادِ لأوقظَه، واستمعتُ إلى صوتِ خطواتِه في منزلِه وهو قادمٌ ليفتحَ بوّابةَ المنزل.

فصاحت حميدة:

- الحمدُ لله! إنّه رجلٌ طيّب. ولا بُدَّ أنه قد أدخلكَ حالاً إلى منزله.

- إنّه لم يفعلْ ذلك! فقد تأمّلني، وصاح وأغلقَ بابَ المنزلِ حالاً. وكنتُ واقفاً في الخـــارجِ والظلامُ يلفُّني ولا أعرفُ ماذا يتوجّبُ عليَّ أن أفعل. وأخذتُ أتساءلُ إن كان معلّمي العجوزُ قد خافَ من إدخالي إلى منزلِه لأنه صدرَ القرارُ بنفيي؟ فقد كنتُ أعدُّهُ دائماً صديقاً لي!

وبينما كنتُ أقفُ أمامَ المنزلِ وأتأملُ ما إذا كان يتوجّبُ عليَّ أن أقومَ بقرعِ بابِ المنزلِ ثانيةً، أو أمضيَ لسبيلي، إذا بالبابِ فجأةً يُفتح.

- هل أنت أسلم؟ سأل سندباد. فأطرقتُ وتساءلتُ إن كنتُ قد تغيّرتُ إلى درجةٍ لم يعُدْ فيها قادراً على التعرُّفِ عليَّ.

- هل أنت حيٌّ أم أنكَ مجردُ شبح؟

- كيف لي أن أُجيبَ عن هذا السؤال؟ فمن غيرِ المسموحِ لي أن أتحدَّث.

مددتُ يدي نحوَهُ للمصافحةِ، حتّى يتمكَّنَ من التعرُّفِ عليها، ويتأكّدَ من أنني لستُ مجرّدَ شبح.

أمسكَ الرجلُ بيدي وأدخلَني في الحالِ إلى منزله.

- هل أنتَ حيّ؟ سألني وهو ذاهل.

كنت أتمنّى أن أُجيب: كيف لا؟ هززتُ كتفيَّ وأشرتُ له بيديَّ أنّني أرغبُ في الكتابة.

أحضرَ لي سندبادُ لوحاً وأداةً للكتابة. فكتبتُ على اللوحِ أولاً السؤالَ الذي يُلحُّ عليَّ والذي جئتُ من أجلِهِ إلى منزله.

- متى أستطيعُ أن أتحدَّث؟

كان فوقَ طاولةِ العَمَلِ الخاصَّةِ به، مجموعةٌ كبيرةٌ من الأقلامِ الشمعية، والأوراقِ والألواحِ الصغيرة. بَحَثَ عن البُرجِ الخاصِّ بي فوجدَهُ ودرسَهُ طويلاً. وكنت أقفُ إلى جانبِه غيرَ قادرٍ على التحلّي بالصبر.

نطق السندباد أخيراً وقال:

- لقد مرَّ منتصفُ اللّيلِ، وانقضتِ الأيامُ السبعة. تستطيعُ أن تتكلَّمَ أخيراً!

بعدها سألتهُ لماذا استقبلَني بتلكَ الأسئلةِ الغريبةِ، فأعلمني أن الخبرَ قد شاعَ بأننا قد تُوفّينا.

- مُتنا! لماذا؟ سألت حميدة.

- عندما عاد الحرسُ إلى المدينةِ من الصحراءِ، قاموا بالإعلانِ عن

خبرِ وفاتِنا في القصرِ، ورووْا بأننا قد مُتنا نحن الثلاثة. وعلّلوا ذلك بأننا قُمنا بالهربِ أثناءَ العاصفةِ الرمليةِ، فلم يتمكّنوا من اللّحاقِ بنا. فقضتِ العاصفةُ علينا. وهنا سألتْ حميدة:

- لماذا فعلوا ذلك؟ مع أنهم يعلمون أننا لم نمُت! فأجاب ليبِّل:

- أستطيعُ أن أعرفَ السبب. إنّ الحراسَ يريدون الحصولَ على الكيسِ الثاني المملوءِ بالذهبِ من خالتكما. وهم لن يحصُلوا عليه إلاّ إذا قام الحراسُ بتصفيتِنا، لذا زعموا أننا قضَينا نحْبَنا في الصحراءِ، وبذلك حصلوا على المال.

- هذا ما حصل تماماً. أكّد أسلم وأضاف: عندما بلغ خبرُ موتِنا مسامعَ أبينا أُصيبَ باليأسِ تماماً. وهو الآن معتكفٌ في غرفته لا يتوقّفُ عن لعنِ نفسه، لأنه قام بنفي أبنائه. وقد أغلق بابَ غرفتِهِ على نفسه ولا يريدُ أن يغادرَها. ويقالُ إنه لم يعُد يرغبُ في المُلك.

- وهو ما سيملأُ قلبَ خالتِكما بالفرحِ، لأنّ ابنَها سيصبحُ هو الملك. قال ليبِّل.

أطرق أسلمُ وواصلَ الحديث.

- وعندما عرفتُ من سندباد مقدارَ ما يعانيه والدُنا من حزنٍ، صمّمتُ على الذهابِ إلى القصرِ كي أُسرّيَ عنه، وأقولَ له إننا ما زلنا على قيدِ الحياة.

أقنعني سندباد بالانتظارِ إلى الصّباح. وقد كانَ على حقّ، فقد كانَ التعبُ قد بلغَ مني مبلغَهُ، لدرجةِ أنني لم أعد أقوى على الوقوف. فنمتُ في منزله حتى طلعَ الصُّبحُ، فذهبتُ مع موك إلى القصرِ في الصباحِ الباكر.

- جميل! ماذا قال لك أبي؟ إنني لا أستطيعُ أن أتخيّلَ مقدارَ فرحتِه. ليتني كنتُ مَعَكَ في تلك اللحظات! قالتْ حميدة.

ـ لحُسنِ الحظِّ أنّكِ لم تكوني معي في تلك اللحظات. قال أسلمُ بمرارةٍ ثم أضاف: عندما أردتُ عبورَ ساحةِ القصرِ الأولى، الواقعةِ قبل الساحةِ الكبرى للقصرِ، هجمَ الحَرَسُ الثلاثةُ عليَّ. كانوا مختبئينَ يراقبونني، فلما رأوني سلّوا سيوفَهم وانطلقوا يركضون خلفي. ولم يكونوا راغبينَ في الإمساكِ بي، بل كانوا يُريدون قتلي!

ـ قتْلك! تساءلت حميدةُ في ذُهول.

ـ أجل، قتلي! أكد أسلمُ ذلك وكانت تعابيرُ وجهه مُتجهّمة. ثم قال: إنَّ خالتَنا ينبغي ألاّ تعرفَ أننا على قيدِ الحياةِ، وهذا ما يسري على والدِنا كذلك. وعندما نُقتلُ يطمئنُّ الحرسُ إلى أنَّ الحقيقةَ قد ماتت معنا. لذلك ظلوا يجوبونَ المدينةَ بحثاً عنّا طيلةَ ليلةِ أمس، وظلُّوا يجرُونَ خلفي، فقد توقّعوا قدومي إلى القصرِ. لذلك جابوا المدينةَ بحثاً عني وظلوا يفتّشونَ عنّي دون كللٍ أو مَلل..

ـ لكنّكَ لم تحدّثنا كيفَ استطعتَ أن تنجوَ من قبضتِهم ـ قال ليپَل ـ وبخاصةٍ عندما استلّوا سيوفَهم وهجَموا عليك.. فردّ أسلم:

ـ لو لم يكُنِ الكلبُ موك معي، لكنتُ غادرتُ الحياةَ ولما رأيتُموني بعد ذلك. فقد هاجمَهم، ونبحَ عليهم بشراسةٍ وحال بينهم وبينَ الوصولِ إليَّ. وبينما كانوا مشغولينَ بموك استطعتُ الإفلاتَ منهم. وعندما امتطوا صَهوةَ خُيولهم للحاقِ بي، كنتُ قدِ استطعتُ أن أتسلّقَ سُورَ المقبرةِ. وعندما دخلوا من خلالِ البابِ كنتُ قد تمكنتُ من القفزِ من على سورِ المقبرةِ الآخرِ، واختفيتُ في الزُقاقِ التالي، وهناك وجدتُ ليپَل. أما ما بقيَ من الحكايةِ فتعرفانِه.

أطرقَ ليپَل وهنا خطر بباله أن يتساءَل:

ـ لقد كان عددُ الفُرسانِ الذينَ يبحثونَ عنكَ اثنين. فأين الثالثُ يا تُرى؟

ـ ظلَّ في القصرِ لكي يضمنَ أن لا يصلَ واحدٌ منا حيّاً إلى القصرِ، بينما زميلاهُ يتجوّلانِ في المدينةِ بحثاً عنّا. أجاب أسلم.

فقالت حميدةُ غاضبةً: لكنَّ القصرَ مملوءٌ بالحرسِ، فأين كانوا؟ ولماذا لم يُدافعوا عنك؟

ـ إنّ بقيّةَ الحرس موجودونَ داخلَ القصرِ وفي ساحاتِه. وعندما يقومُ ثلاثةٌ منهم بالهجوم عليَّ في أقصى الساحةِ الخارجيةِ للقصرِ، فإنَّ الآخرين لن يلحظوا ذلك. وإذا لاحظوا فإنهم سيعتقدونَ أنَّ الحرسَ قد أمسكوا بطفلٍ من أطفالِ الشوارعِ، أو ألقوا القبضَ على أحدِ اللصوص.

وهنا تأمّلَ أسلمُ ملابسَه القذرةَ الممزقةَ وقال:

ـ إنَّ منظري ليسَ منظرَ أميرٍ على الإطلاق!

فقالت حميدة:

ـ ينبغي أن نعثرَ على إمكانيةِ الدخولِ إلى القصرِ أحياء. إننا لا نستطيعُ البقاءَ هنا إلى الأبد. إنني أريدُ العودةَ إلى أبي وأمي.

ـ اهدئي قليلاً. إنّ المخرجَ موجودٌ دائماً، وعلينا أن نجدَه. قال ليپَل مهدّئاً من رَوعِ حميدة.

ـ وكيفَ يا تُرى؟ تساءلتْ حميدةُ وقد فرغَ صبرُها.

ـ من خلالِ التفكير. قال ليپَل.

جلس الثلاثةُ إلى جوارِ بعضهم بعضاً فوق إحدى الفرشاتِ المملوءةِ بالقشِّ، وقد وضعَ كلٌّ منهم ذقنَه على راحةِ يده وبدأوا بالتفكير.

أحسَّ ليپَل أنه عثر على مخرج. فقد كانت لديه فكرةٌ، لكنَّ تصوُّرَه لم يكنْ قدِ اكتمل. لهذا لم يكُن قادراً على التعبيرِ عنها.

كيف يتمُّ ذلك؟ أخذ ليپَل يتأمّلُ بعُمق.

أخذ مخطَطُهُ يتّضحُ بالتدريج، وبدا له أنه وصلَ إلى المخرجِ الصحيحِ للخروجِ من هذا المأزق ـ لو لم تقُمِ السيّدة يعقوب بمناداتِه قائلةً:

ـ انهضْ يا فيليب. إنَّ عليكَ أن تنهض. إنّها السابعةُ إلاَّ رُبعاً!

ما الذي يستطيعُ ليهَل أن يفعلَهُ: لقد خلَّفَ حميدةَ وأسلمَ وراءَهُ يفكرانِ بالمخرجِ المناسبِ، واستيقظَ للذهابِ إلى المدرسة.

الجُمعــة

عائلة غوني

ارتدى ليپَل معطفَهُ المطريَّ هذه المرَّةَ عندما انتهى من إفطارِه، واتجهَ صوبَ المدرسة. فلم يكُن راغباً في أن يبتلَّ كما جرى له يومَ أمس.

وما إن صار في منتصفِ الطريقِ حتى ندمَ على ارتدائه المعطفَ. فمع أنَّ الصَّباحَ ما زال في أوّلِه، إلاّ أنَّ الشمسَ كانت تبعثُ الدفءَ في الأجواءِ على نحوٍ واضحٍ، وكانتِ السماءُ خاليةً من الغيوم، وكلُّ الدلائلِ تشيرُ إلى أننا سنكونُ أمامَ يومٍ حارٍ! فكّرَ ليپَل أنَّ من الأفضلِ أن يعودَ إلى منزلِه ويضعَ معطفَهُ المطريَّ هناك، لكنَّ ذلك يعني أن يتأخَرَ عن المدرسة. لهذا صمَّمَ أن يتعمَّدَ نسيانَ معطفِه في المدرسة. ولمّا جاءتهُ هذه الفكرةُ ارتاحَ وتحسَّنَ مزاجُه، ورأى في ذلك حلاً عملياً. فالمعطفُ سيكونُ معلّقاً على المشجبِ الموجودِ أمامَ غرفةِ الصفِّ، فإذا تساقطَ المطرُ ذاتَ يومٍ بعد انتهاءِ الدوامِ المدرسيِّ، فسيكونُ معطفُه هناك ليحميَه من البلل. وقد تحسَّنَ مزاجُه أكثرَ عندما انحرفَ ليذهبَ باتجاهِ شارعِ هيردر، فوجدَ حميدةَ وأرسلانَ يسيرانِ أمامَه. غذَّ ليپَل خُطاهُ ليلحقَ بهما، ثمَّ ساروا جميعاً معاً.

توجهت حميدةُ إليه بالسؤال:

- هل ستجيءُ اليومَ لتناولِ طعامِ الغداءِ عندنا؟

أطرقَ ليپَل وقال:

- سأذهبُ معكما بعد انتهاءِ الدوامِ المدرسي.

- جميل. قالت حميدة.

- هذا أمرٌ جيِّد. قال أرسلان.

لكن ليپَل سألهما:

- ماذا سنأكلُ عندكم اليومَ يا تُرى؟

- لا أدري. ردَّ أرسلانُ وهو يهزُّ كتفيه.

أما حميدةُ فقالت:

- أنا الأخرى لا أعرفُ ماذا سيقدَّمُ على المائدة، لكنني أعرفُ تماماً ما لن يوجدَ على المائدة!

- ما الطعامُ الذي لن يكون موجوداً؟ سأل ليپَل.

- البندورة. قالت حميدةُ ضاحكةً ثم أضافت: إنَّ الطعامَ لن يكونَ جاهزاً عند وصولنا. فأمي تعملُ في محلٍّ لبيعِ الزهورِ حتى الساعةِ الثانيةَ عشرة، وهي ستقومُ بإعدادِ الغداءِ بسرعة.

- إنني قادرٌ على الانتظار. ردَّ ليپَل بنبرةٍ تأكيدية، وأضاف: فأنا لم أتناول طعامَ الغداءِ يومَ أمسٍ إلاّ عندَ المساء!

- لن تنتظرَ حتى المساءِ عندَنا. لأنَّ هذا يعني المجاعة! قالت حميدة.

انتهت فترةٌ ما قبلَ الظهرِ سريعاً.

كانت هناك حصّتانِ للّغةِ الألمانية، قامتِ السيدة غلوبي فيهما بإرجاعِ دفاترِ الإملاء. كان ثمةَ خطأٌ واحدٌ عند ليپَل، وأربعةَ عشرَ خطأً عند حميدة، وثلاثةٌ وسبعونَ عند أرسلان.

بعد الاستراحةِ كان هناك حصتانِ للتربيةِ الرياضية. في البدايةِ أدى الطلبةُ بعضَ التمريناتِ الرياضية ثم قاموا بمسابقةٍ للجَري. جاء أرسلانُ في المقدّمة، واحتلت حميدةُ المرتبةَ الحاديةَ عشرةَ، أما ليپَل فقد كان في المرتبةِ التاسعةَ عشرة. بعدها عادوا إلى غرفةِ الصفِّ من أجل حصةِ العلوم الاجتماعية.

بعد انتهاءِ الحصةِ رافق ليپَل كلاًّ من حميدةَ وأرسلانَ إلى منزلهما.



شعر ليبِّل بمشاعرَ غريبةٍ عندما ظلَّ يواصلُ المشيَ في شارعِ فريدريش روكرت، دون أن ينحرفَ إلى شارعِ هيردر، وظلَّ يواصل المشيَ معهما حتى وصلوا إلى شارع محطةِ السكةِ الحديدية. حاول ليبِّل أن يقرأ الاسمَ المثبَّتَ على بابِ الشقة (كان شيءٌ من الظلامِ يسودُ في بيتِ الدرج).

كان الاسمُ المثبَّتُ هو «غوتي»، ولم يكن ليبِّل حتى تلكَ اللحظةِ يعرفُ اسمَ عائلةِ زميليه. قرع أرسلانُ الجرسَ، ففتحتِ البابَ امرأةٌ شابّةٌ ممتلئةُ القوام.

ـ هذه والدتي. قال أرسلان.

ـ غولي غولي. حيّاها ليبِّل بلطف.

ضحكتِ المرأةُ بصوتٍ عالٍ، وضحكَ معها أرسلانُ وحميدة.

احمرَّ وجهُ ليبِّل وقالَ بحَيرة:

ـ ما الذي جرى؟ هل أخطأت؟ أليسَ ما قلتهُ تحيّةً باللغةِ التركية.

فوضَّحت له حميدة:

ـ صحيح. إنَّ ما قلتَهُ هو تحيّةٌ تركيّة، لكنَّ المرءَ لا يقولُها وهو قادمٌ، بل يقولُها عند الوداع، كما نقولُ «مع السلامة». أفهمت؟ فإذا وصل أحدُهم إلى منزلٍ وقال لأصحابهِ أوّلَ ما يراهُم «مع السلامة»، فلا بُدَّ أن نضحك.

ضحك ليبِّل وقال:

ـ هكذا إذن! لكنّني غيرُ راغبٍ في الانصراف.

تبع الثلاثةُ السيّدة غوتي إلى غرفةِ المعيشةِ، حيثُ كانت مائدةُ الطعامِ مغطّاةً بالصحون، وقدِ اصطفَّ إلى جوانبِها أربعةُ كراسٍ.

تطلَّعَ ليبِّل بفضولٍ في أرجاءِ الغرفةِ، فوجدها شبيهةً بغرفةِ المعيشةِ في شقّةِ السيدة يشكي. ولم يكن ثمّةَ ما يمنحُ الغرفةَ طابَعها التركيَّ سوى الموسيقى. فقد كان ثمّةَ مُسجِّلٌ تصدحُ منه أنغامُ أغنيةٍ تركية. كما وُجدت بعضُ الصورِ والمناظرِ معلقةً إلى جانبِ سجّادةِ الحائطِ وراء الكنبةِ الطويلة، وهي الأخرى تركيّةُ الطابع.

رأى ليبِّل صورةً لإحدى المدن. ورأى قلعةً تعلو فوقَ إحدى الصخور.

ـ هذه مدينةُ أنقره. قال أرسلان. لقد وَلِدتُ هناك.

ـ لقد وُلِدتَ هناك. قال ليبِّل مصحّحاً. ثم تساءل: وهل أنقره مدينةٌ كبيرة؟ ضحكَ أرسلانُ وقال فخوراً:

ـ إنها أكبرُ من مدينتِنا هنا بما يوازي عشرَ مرات. كلُّ شيءٍ فيها كبير، وليس كما الحالُ هنا. فهنا كلُّ شيءٍ صغير، والمدينةُ صغيرةٌ كذلك.

- أتجدُها كذلكَ حقاً؟ سأله ليبَل.

- وهذان هما جدّي وجدتي. لقد كنتُ أعيشُ معهما. قال أرسلان.

- ها أنتَ تتكلّمُ الألمانيةَ جيّداً. ولا أعرفُ، تحديداً، لماذا لا تتكلم؟ قال ليبَل مادحاً أرسلان.

وفي هذه اللحظةِ جاءتِ السيدة غوني ومعها الطعام.

أدرك ليبَل أنّ الطعامَ الموجودَ على المائدةِ يختلفُ عن الطعام الألمانيّ على نحوٍ واضحٍ تماماً. فالخبزُ مسطّحٌ وسميكٌ يشبهُ الكعكةَ المحلاّةَ، وكان اللبنُ موجوداً، لكنه لم يكن لبناً خلواً بل كان مخلوطاً بالخيارِ والثوم، شبيهاً بالمنكّهاتِ الخاصةِ بالسلطةِ، لكنّها تخلو من السلطةِ هذه المرّة.

وكان على المائدةِ الفلفلُ الأخضرُ الذي فُرّغتْ بذورُه وَحُشِي باللحم والأرزّ.

وقد شربتْ عائلةُ غوني الكثيرَ من الماءِ في باديْ الأمر. وكانتِ السيدة غوني توضّحُ لليبَل اسمَ الطعام المقدّم باللغةِ التركيّةِ، لهذا لم يحفظ ليبَل أسماءَ تلكَ الأطعمة. كانتِ السيدةَ غوني تتحدّثُ الألمانيةَ أفضلَ بكثيرٍ مما يستطيعُ أرسلانُ أن يتحدّثَ بها. وكانت لغتُها تقاربُ لغةَ حميدةَ في الجَوْدةِ، ويعود ذلك لأنها تعملُ في محلٍّ لبيعِ الزهور. لكنّها كانت تلفظُ بعضَ الكلماتِ على نحوِ غريبٍ، لدرجةِ أن ليبَل كان يبذلُ جُهداً كبيراً كي يستطيعَ استيعابَها.

بعد الفراغِ من الطعام، قُدّمَ له طبقٌ يُدعى «حلوى»، وهو لذيذُ الطعمِ وشديدُ الحلاوة.

بعد الفراغِ من الطعامِ تجرّأ ليبَل وسألهم عن نقاطِ التجميعِ الموجودةِ على علبِ اللبن. بدأ يُفتّش بمساعدةِ أرسلانَ وحميدةَ في سلةِ المهملاتِ عن أغطيةِ اللبن. وعندما عثر عليها تبيّنَ له لسوءِ الحظ

أنها تخلو من العلاماتِ الخاصةِ بنقاطِ التجميع، لأنّ السيدة غوني تشتري نوعاً مغايراً من الألبان، لا تعتني بالنقاط. لكنّها وعدتْه أن تأخذَ ذلك بعينِ الاعتبارِ عند التسوُّقِ اللاحق (وهو وعدٌ وجده ليبَل دالاًّ على اللطف). وبعد أن لعبَ مع حميدةَ، ثم مع أرسلانَ لعبةَ المطحنةِ، بدأ يستعدُّ للعودةِ إلى منزله.

ودّع ليبَل السيدة غوني وسألَها إن كانت توافقُ على مجيءِ أرسلانَ وحميدةَ إلى منزلِه غداً لتناولِ طعامِ الغداء.

أرادت السيدة غوني أن تعرفَ إن كانَ والداه يسمحانِ له باستضافةِ حميدةَ وأرسلان. فقال:

- إنهما يسمحان بكلِّ تأكيد. لكنّهما ليسا هُنا في الوقتِ الحاضرِ، أمّا السيدة يعقوب فهي التي ستقومُ بالطبخِ لنا، ولن يُضيرَها أن تطبخَ طعاماً إضافياً لطفلَيْن.

لم تمانعِ السيدة غوني، وكان أرسلانُ وحميدةُ موافقَين. وقد رافقاهُ مسافةً قصيرةً حتى وصلوا إلى شارعِ فريدريش روكرت.

السيدة يشكي تقدّم الحلّ

استقبلتهُ السيدة يعقوب بالأسئلة:

- حسناً، هل أكلتَ جيداً؟ هل مذاقُ الطعامِ عندي أفضلُ أم في منزلِ أصدقائك؟

- إنّ للطعامِ هناك مذاقاً مختلفاً.

ونظراً لأنّ الحديثَ كان يدورُ حول الطعامِ فقد سألها ليبَل:

- هل تسمحينَ لي بأن أُحضرَ أصدقائي إلى هنا يوم غدٍ لنتناولَ طعامَ الغداء؟

ـ أصدقاؤك؟ كم عددُهم يا تُرى؟ سألتِ السيدة يعقوب.

ـ اثنان، وهما اللذان تناولتُ عندهما طعامَ الغداءِ هذا اليوم. إنهما شقيقٌ وشقيقتُه.

ـ اثنان. لا بأس. إذن سأطبخُ غداً لأربعةِ أشخاص قالتِ السيدة يعقوب ثم تساءلت: ما اسمُ عائلةِ صديقَيكَ هذين؟ فلعلّي أعرفُ أبويهما.

ـ اسمُ العائلةِ غوني.

ـ غوني. يا له من اسمٍ غريب! أتسكنُ هذه العائلةُ هنا منذ زمنٍ طويل؟ وما هي الأسماءُ الأولى لصديقَيك؟ توالت أسئلةُ السيدة يعقوب.



ـ اسمُ الفتى أرسلانُ واسمُ الفتاةِ حميدة. أجاب ليبِّل.

ـ أليسا من الأجانب؟ سألتِ السيدة يعقوب.

ـ بلى، إنهما تركيّان.

ـ تركيّان! لن أسمحَ لهما بالدخولِ إلى هذا المنزلِ على الإطلاق. كيف تجرؤُ على فِعْلِ هذا؟ قالتِ السيدة يعقوب غاضبة.

ـ لماذا؟ وماذا فعلا؟ ولماذا لن تسمحي لهما بالدخولِ إلى المنزل؟ تساءل ليبِّل وهو يشعرُ بالذُّهول.

ـ كيف تجرؤُ على أنْ تسأل؟ وماذا سيقولُ والداكَ عندما يعلمانِ أنك دعوتَ اثنينِ من الأتراكِ للغداء؟ سألتِ السيدة يعقوب وهي تشعرُ بالغضبِ الشديد. ثم أضافت بلهجةٍ ساخرة: كأنَّ هذا هو ما ينقصُنا!

ـ لكنني قد دعوتُهما ولا أستطيعُ أنْ أقومَ بإلغاءِ الدعوة. قال ليبِّل يائساً، ثم أضاف: إنني أعلمُ تماماً أنّ والديَّ لن يُعارضا ذلك. أعرفُ ذلك تماماً.

ـ هذا أمر لا يهمُّني، وما يهمُّني أنّ هؤلاءِ الأجانبَ لن يدخُلا إلى المنزلِ الذي أتولّى مسؤوليةَ رعايتِه. فقد يحدثُ ما لا تُحمدُ عقباه، وسيقومُ والداكَ عندئذٍ بتحميلي المسؤولية.

ـ هل تريدينَ أن تقولي إنّ أرسلانَ وحميدةَ سيقومانِ بالسرقة؟ صاح ليبِّل منفعلاً، ثم أضاف: لقد كنتُ عندهما اليومَ لتناولِ طعامِ الغداء وأريدُ أن أدعوَهُما غداً إلى هنا.

ـ هل تأمرُني؟ هذا سيكونُ أكثرَ جمالاً! صاحتِ السيدة يعقوب ثم أضافت: لا داعي لمزيدٍ من النِّقاشِ حولَ هذا الأمر. فهما لن يدخلا ها هنا. انتهَينا!

ذهب ليبِّل إلى غرفته.

كان عليه أن يبدأ بحلّ واجباته المدرسيّة، لكنّهُ لم يستطعْ أن يتوقّفَ عن التفكيرِ في أرسلانَ وحميدةَ ودعوتِه لهما للغداء. فماذا يتوجَّبُ عليه أن يفعل؟ ومن يستطيعُ أن يقدّمَ له النصيحة؟ إنّها السيدة يشكي. نعم إنّها هي. لذا قرر أن يزورَ السيدة يشكي ويطلبَ نصيحتَها. فضلاً عن أنه لم يحدّثْها بما وقعَ له مع الكلب موك.

قرّر ليبِل تأجيلَ القيام بحلِّ واجباتِه المدرسيّةِ، فتسلّلَ من المنزلِ، حتى لا تشعرَ السيدة يعقوب بخروجِه، وسار إلى منزلِ السيدة يشكي.

فرحتْ السيدة يشكي بزيارته لها، واستقبلتْهُ بالتّحيةِ والترحابِ وسألته:

- هل أنتَ سيّئُ المزاجِ هذا النهار؟ إنّ وجهَكَ عابس! ما الذي يؤرّقُك ويثقلُ على فؤادِك؟

- هناك الكثير! إنّها السيدة يعقوب. لقد طردتِ الكلبَ من المنزلِ، ولن تسمحَ لحميدةَ وأرسلانَ بدخولِ المنزل.

ثم حكى لها كلَّ شيء.

هزّت السيدةُ يشكي رأسها وقالت:

- إنني أستطيعُ أن أستوعبَ ما حدثَ مع الكلب، وإن كنتُ أجدهُ أمراً مؤسفاً، فقد كنتُ استمتعُ بإطعامِه..

- وأنا أيضاً. قال ليبِل من الأعماق. ثم أضافتْ:

- لكنّني لا أستطيعُ استيعابَ ما جرى بخصوصِ أصدقائك! فماذا سنفعل؟ فأنتَ لا تستطيعُ أن تقولَ لهما غداً: يؤسفُني أنكما لا تستطيعانِ أن تجيئا إلى منزلي غداً لأنكما تركيّان!

- بالتأكيد. فهذا أمرٌ كريهٌ، لأنهما لن يكلّماني بعد ذلك على الإطلاق. ولكنْ يبدو أنه لا مفرَّ من إلغاءِ الدعوة. فماذا أقولُ لهما؟

- لا تقلْ لهما شيئاً! أتعرف: تعالَوْا أنتمُ الثلاثةُ إلى هنا لتناولِ طعامِ الغداء. وليس ثمةَ فرقٌ أن تأكلوا في منزلي أو في منزلكم.

- أتفعلين ذلكَ حقاً؟ سألها ليبِل وهو يشعرُ بالفرح.

ابتسمت السيدة يشكي وقالت:

- إذا ما سألكَ صديقاك، فلا تخبرْهما أنك تسكنُ هاهنا، فلا يجوزُ لنا أن نكذبَ عليهما. لكنّكَ لستَ مضطراً كي تحكيَ لهما عن السيدة يعقوب وكلماتِها الغبيّة. ويمكنك أن تقول لهما إنّ أباكَ وأمّكَ ليسا هنا، وإنّنا سنتناولُ الطعامَ في منزلِ السيّدة يشكي.

- هذا صحيح. قال ليبِل ورجع إلى منزلِه مُنشرحَ الصدر.

عند العشاءِ سألتهُ السيدة يعقوب:

- هلِ اقتنعتَ بعدمِ مجيءِ صديقَيك التركيّيْنِ إلى هنا للغداء؟

- نعم، نعم. ردّ ليبِل بفرحٍ غامرٍ وأضاف: أنا لن أتناولَ الغداءَ هُنا. سنتغدى نحن الثلاثةُ عند السيدة يشكي.

- ماذا؟ في منزلِ السيدة يشكي! صرختِ السيدة يعقوب وقد كادتِ الشوكةُ تسقطُ من يدِها.

أطرقَ ليبِل. فقالتِ السيدة يعقوب بحزم:

- لا أظنُّكَ ستفعلُ ذلك!

- ماذا؟

- ستتناولُ طعامَ الغداءِ عندي غداً!

- سأتناولُ الغداءَ مع حميدةَ وأرسلان. فإذا سمحتِ لهما بالقدومِ إلى هنا، فسنأكلُ جميعاً عندك.

- هل تريدُ أن تبتزّني؟ بل ستجيءُ إلى هنا بمفردِك وتتناولُ الطعامَ معي.

- لا. قال ليپل.

فقالتِ السيدة يعقوب بلهجةٍ مملوءةٍ بالوعيد:

- سترى، ستتناولُ الطعامَ هنا!

- لا.

- أنت صبيٌّ وقح! اذهبْ إلى سريرِك في الحال. هذه عقوبةٌ لك، أتفهم؟ وفي سريرِك تستطيعُ أن تفكرَ أين ستتناولُ طعامَ الغداء.

- كما تريدين. ردَّ ليپل.

ذهب ليپل إلى غرفتِه، خلع ملابسَه واستلقى على سريرِه. كان يفكرُ في أرسلانَ وحميدةَ على نحوٍ مستمر.

لكنّ هذا التفكيرَ ينبغي أن يتوقّفَ في الحال. وعليه أن يُواصلَ الحلمَ بالحكايةِ ليصلَ إلى نهايتها. لهذا حاول أن يؤجّلَ التفكيرَ بصديقيه، وأن يدعَ المجالَ للتصوُّراتِ الشرقيةِ لتحلَّ بدلاً منها. فبدأ ليپل يتخيّلُ العاصمةَ، والأزقّةَ والنُزُلَ وردهاتِ القصر. وعندما وصل بتخيُّلاته إلى الغرفةِ الموجودةِ في النُزُلِ نامَ، وأخذ يحلُم.



الحلم الخامس



سأل ليپل كُلاً من أسلمَ وحميدة:

- هل وقع لكما شيءٌ في المدّةِ التي لم نلتقِ فيها؟

- على الإطلاق. قال أسلمُ وهو يهزُّ رأسَه نافياً.

- وأنا الآخرُ لم يقعْ ليَ شيء. ردَّ ليپل وأضاف: كانت لديَّ فكرةٌ لكنّني نسيتُها.

قُرِعَ بابُ الغرفةِ، فهرعَ أسلمُ صوبَ البابِ وأصغى ثم سأل بصوتٍ خفيض:

- من بالباب؟

- أنا صاحبةُ النُزُل. قالتِ المرأةُ وهي تجولُ بعينيها في أرجاءِ الغرفةِ، ثم أردفت قائلة: إننا عند الظُهرِ تقريباً، ولم تتناولوا طعاماً قطُّ إلى الآن. فماذا جرى لكم؟

- إننا مشغولونَ بالتفكير. قال أسلم.

فصاحتِ المرأة:

- إنك قادرٌ على الكلام! فلماذا إذن تجلسونَ على هذا النحوِ الحزين، وقد ردَّ اللهُ على أسلم نعمةَ الكلامِ بعد أن كان أخرس؟ أنا لا أستطيعُ استيعابَ ذلك!

فقال ليپل:

- دعونا نخبرُها عن الأمر. فهي لن تبوحَ بسرِّنا للحرس.

- ماذا ستقولون؟ قالت المرأة.

- أنا الأميرُ أسلم، ابنُ الملكِ الوحيد، ووليُّ عهده. وهذه هي الأميرةُ حميدةُ شقيقتي الصغرى. قال أسلمُ ذلك بنبرةِ احترام.

- أأنتَ أمير؟ ضحكت صاحبةُ النُّزلِ بصوتٍ عالٍ وقالت: طفلانِ يرتديانِ ملابسَ ممزقةً وباليةً ويريدانِ أن يكونا أميرَين!

خلعتْ حميدةُ سوارَها الذهبيَّ وناولتهُ لصاحبةِ النُّزلِ وقالت:

- اقرئي ما هو مكتوبٌ على السّوارِ من الداخل!

نظرتْ صاحبةُ النُّزلِ إلى أسلمَ وحميدةَ غيرَ مصدِّقةٍ وبدأت تتأملُ السّوار. عندها صاحتِ المرأةُ مذعورةً وانحنت وقالت:

- إنّهُ الشّعارُ الملكيّ!

لكنّها أعادتِ التأمُّلَ في حميدةَ وأسلمَ وقالت لهما:

- هل قمتما بسرقةِ هذا السّوار؟

ثم أعادتِ النظرَ إلى وجهيهما وقالت:

- لا أدري، على وجهِ التحديد، ما الذي يتوجَّبُ عليّ أن أصدِّقَه!

- تستطيعينَ أن تصدِّقيني، أيتُها المرأةُ المحترمة. قالت حميدة، ثم أضافت: إنه سواري، وأنا الأميرة حميدة.

-إذن ما الذي أتى بكم إلى هذا النُّزل؟ ولماذا ترتدون هذه الملابس؟ وما معنى هذا كلِّه؟ تساءلتِ المرأةُ وهي تشعرُ بالحيرة. ثم قالت لهما: هل يعلمُ أبوكما أنكما هنا في هذا النُّزل؟

- إنّ علينا أن نشرحَ لها ذلك. قال ليبَل. وبعد ذلك شرع الثلاثةُ يحكون لها الحكايةَ من أولها.

علّقتِ المرأةُ على الحكايةِ بعد أن استمعتْ إليها بقولها:

- يا لكم من أطفالٍ مساكين. ثم استدركت قائلة: لك اللّهُ يا صاحبَ الجلالة! ما الذي أستطيعُ أن أقومَ به؟ هل أذهبُ إلى القصرِ وأقولُ للملكِ إنكم تُقيمونَ عندي في النُّزل!

- هذا غيرُ ممكن. ردَّ أسلمُ حائراً. فأنتِ لا تستطيعينَ الوصولَ

ببساطةٍ إلى والدي، إضافةً إلى أنّه قد أغلقَ البابَ على نفسه وهو لا يُريدُ أن يرى أحداً.

فقالتْ صاحبةُ النُّزل:

-إذن علينا أن نعملَ لإبعادِ الحرسِ عن القصر، وأن نصرفَ أنظارَهم إلى مكانٍ آخر. عندها سيكونُ في مقدورِكم أن تتسلّلوا بسرعةٍ إلى داخلِ القصر، فإذا صرتُم داخلَه فلن يجرؤَ أحدٌ على التعرُّضِ لكم.

فردَّ أسلم:

- هذا أمرٌ معروفٌ لدينا. لكن السؤال هو: كيف يمكنُ أن نقومَ بإبعادِ الحرسِ عن القصر؟

تدخَّلَ ليبَل وقال:

- لقد خطرت لي فكرة. إنني أستطيعُ أن أُشاغلَ الحرسَ وأقومَ بإبعادِهم عن القصر، ويكفي أن تدخلا أنتما إلى داخلِه.

فردّت حميدة: ولكن كيف يمكننا أن نمشيَ داخلَ المدينةِ حتى نصلَ إلى القصر؟ لا بُدَّ أن يقومَ الحارسانِ باكتشافِنا في هذه الحالة.

فقالتِ المرأة:

-لقد خطرتْ لي أنا الأُخرى خاطرة. إنَّ لدينا حديقةً تقعُ قبلَ سُورِ القصرِ الخارجيِّ البعيد، ونحن نذهبُ إليها في كثيرٍ من الأحيان، بالعربةِ التي يجرُّها الحمارُ ونعملُ فيها أنا وزوجي. إنني أستطيعُ أن أخبِّئَكم في العربةِ، وأغطّيكم بأكياسٍ فارغةٍ وهو ما لن يلحظَهُ أحد. والمسافةُ بين سورِ القصرِ والقصرِ ليست بعيدة.

نظر الثلاثةُ إلى بعضِهم بعضاً: هذا هو المخرجُ الوحيد! لكنَّ السؤالَ الذي أخذَ يتجلّى بوضوحٍ هو: كيف سيتمكّنُ ليبَل من مُشاغلةِ الحرسِ وصرفِ أنظارِهم، دون أن يتعرّضَ للخطر؟ فقالتِ المرأة:

- عليه أن يصعدَ فوقَ السُّورِ ويُناديَ بصوتٍ عالٍ، وسترونَ كيف سيأتي الحرسُ إليه مُسرعين.

- وهل السُّورُ مرتفع؟ تساءلَ ليبَل بخوف.

ـ إنّه عريضٌ بما يكفي، لهذا فلن تقعَ من فوقه.

كان لدى أسلمَ قلقٌ آخر. لذا سأل:

ـ وماذا لو قامَ الحارسُ بإلقاء القبضِ على ليبِّل، كأن يتسلقَ السُّورَ ويُمسكَ به ويقومَ بإنزاله؟!

قالت صاحبةُ النُّزلِ بعد أن نبّهتهُم إلى ضرورةِ اتّباعِ الدَّورِ في الحديثِ، وأن يتحدّثَ الواحدُ منهم تلوَ الآخر:

ـ إنّ سورَ القصرِ ليس بالغَ الارتفاعِ، فهو في طولِ الرجُل، وهو جدُّ عريض لدرجة أنه يمكنُ للمرءِ أن يُدحرجَ برميلاً فوقَه. فإذا كان ليبِّل يتحلّى بقدرٍ كبيرٍ من الشجاعةِ ويستطيعُ أن يقفزَ من فوق السُّورِ، فأنا أعرفُ ما الذي سنفعلُه.

ـ ماذا ستفعلين؟ قال ليبِّل.

ـ سيدعُ ليبِّل الحارسَ يقتربُ منه، ثم يقومُ بالقفزِ سريعاً إلى الأسفلِ، أعني على الجهةِ المقابلة. وهنا سيقومُ الحارسُ بملاحقتِه مما يستدعي أن يقفزَ فوقَ السُّورِ ومن ثمَّ على الأرض، عندها أكونُ قد قمتُ بتخبئةِ ليبِّل تحتَ الأكياس. وعندما يسألُني الحارسُ عنه، سأخبرهُ أن الفتى هربَ إلى الزُّقاقِ وأشيرُ إلى المكانِ الذي اختبأ فيه هُناك ـ كيف تجدونَ هذه الخُطّة؟

ـ خُطّةٌ جيدةٌ جداً. قال الثلاثة.

وقد سار الأمرُ على هذهِ الشاكلةِ تماماً.

تمدّد كلٌّ من أسلمَ وحميدةَ وليبِّل في العربةِ وقامت صاحبةُ النُّزلِ بتغطيتهم بالأكياسِ وقادتِ العربةَ في طمأنينةٍ إلى حديقتِها التي تقعُ قبل سُورِ القصرِ. وهناك أوقفتِ العربةَ وتفقّدت ما حولَها بنظراتِها.

ـ لا أثرَ للفُرسانِ على الإطلاقِ، يمكنكُم أن تظهروا!

نزلَ الثلاثةُ من العربةِ بحذرٍ وقاموا بإلقاءِ نظرةٍ حَذِرةٍ على السور. كان ثمةَ مكانٌ فارغٌ في الجهةِ المقابلةِ وخلفَهُ سورٌ عالٍ ذو بوّابةٍ ضخمة.

كان الحارسُ يقفُ إلى جانبِ البوابةِ ويراقبُ الشارعَ الرئيسيَّ وهو يتكئُ على أحدِ الأعمدة.

مشى كلٌّ من أسلمَ وحميدةَ مسافةً بمحاذاةِ السور حتى استطاعوا أن يعثروا على ثغرةٍ يستطيعون النفاذَ من خلالها، وسرعان ما تسلّلوا من خلالها واستطاعوا أن يمرّوا بعيداً عن البوّابةِ والحارس.

وهنا يجيءُ المشهدُ الكبيرُ الخاصُّ بليبِّل.

تسلّقَ ليبِّل فوق السورِ وسار على امتداده. وعندما صارت بوابّةُ السورِ في الجهةِ المقابلةِ له توقّف. وكان ليبِّل قد نظمَ أنشودةً أثناء السفرِ، وهو مُستلقٍ تحت الأكياس، فأخذ نفساً عميقاً وصاح يُنشِد:

أنـا واقفٌ كالليثِ فوق الـسـورِ

والليثُ ليـسَ زئيـرهُ كزئيـري

وهناك يقبعُ حارسٌ متربـصٌ

هُوَ عاجزٌ عن أن يسيرَ مَسيري

حدّقَ الحارسُ فيه وهو فاغرٌ فاه، غيرَ قادرٍ على أن يصدّقَ ما يراه. بعدها سار ليبِّل بُبطءٍ بضعَ خطواتٍ إلى الأمامِ ثم قال مُنشِداً:

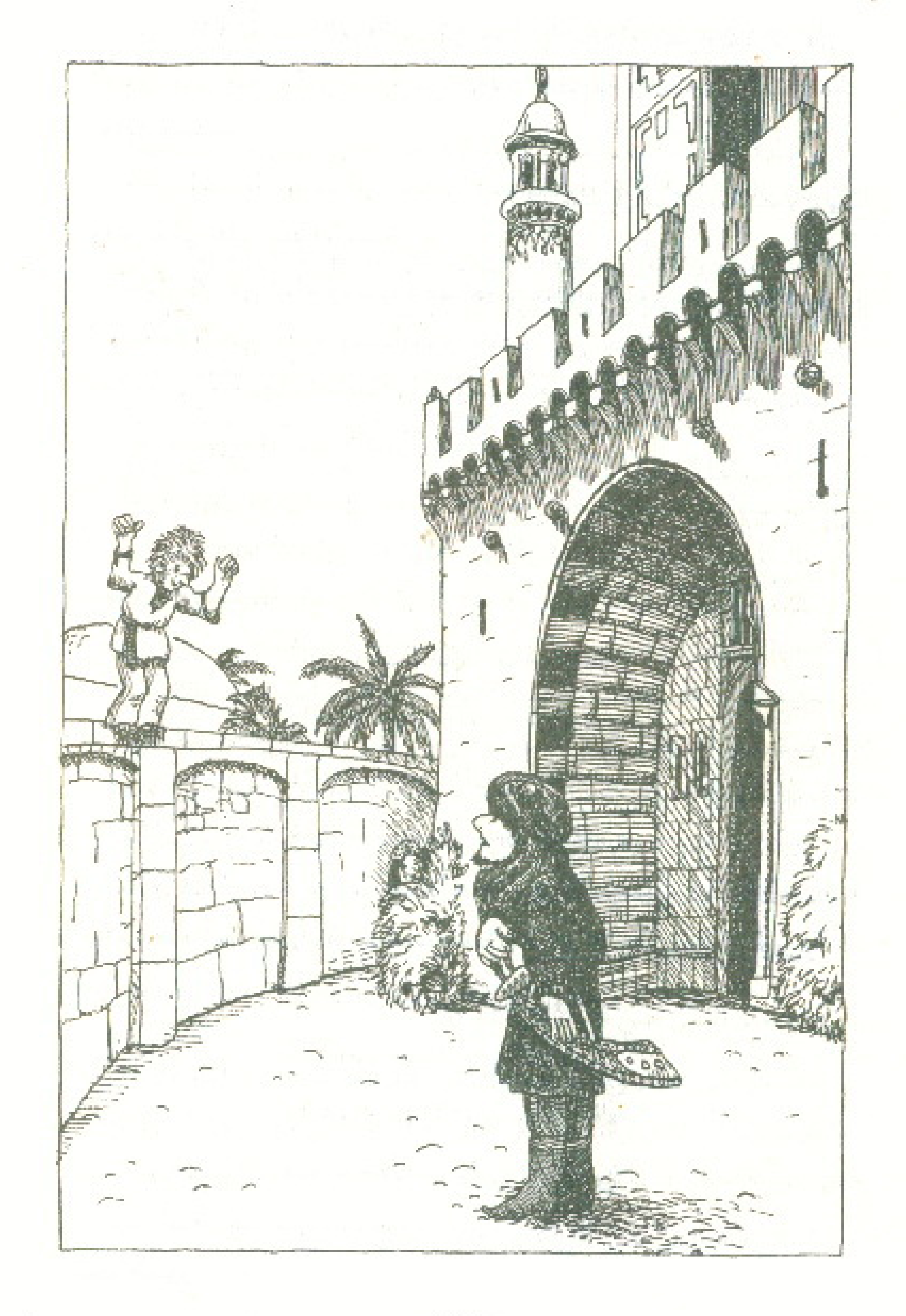
أنـا فـوقَ سـورِ القصـرِ واقفْ

كـالطيرِ يصدحُ بـالأغـانـي

والحـارسُ الأعـمـى هـنـاك

فـهـو الغـبـيُّ ولـن يـرانـي

وقد أشعلَ هذا النشيدُ غضبَ الحارسِ تماماً! فجاء يُهرولُ سريعاً نحو السورِ!



وهنا استطاعَ كلٌّ من أسلمَ وحميدةَ أن يتسلّلا عبر بوّابةِ القصرِ دونَ أن يتمكّنَ أحدٌ من رؤيتِهما.

هنا صاحتِ المرأةُ من وراءِ السورِ:

ـ كن حذراً يا ليپّل!

فضحك ليپّل وقال بشجاعة:

ـ لن يتمكّنَ من الإمساكِ بي. إنّه بعيدٌ عني.

ثم ارتجل ليپّل بيتَينِ من الشِّعرِ وقال:

الآن أجري إلى الزُّقـــاقِ
وفيه مَنْ فيه مِنْ رفاقي

فصاحت صاحبةُ النُّزلِ به ثانيةً:

ـ كن حَذِراً يا ليپّل!

وهنا تساءلَ ليپّل:

ـ ماذا جرى لها؟ إنَّ الحارسَ ليس قريباً منّي إلى هذا الحد.

صمّم ليپّل أن يُهدّئ من روعِ المرأةِ، ورأى أنّ من الأفضلِ أن لا يتأخرَ في القفزِ وأن يقفزَ مبكّراً. وما إن استدارَ إلى الخلفِ حتى كاد قلبُه يتوقّفُ من الخوف. فقد كان ثمةَ حارسانِ يقفانِ وراءَهُ إلى جانبِ السورِ. وقد شاهداه وهما في المدينة، فحثّا الخُطى سريعاً نحو السورِ واقتربا منه وهو واقفٌ يُنشِدُ أشعارَه.

حاول أحدُ الحرّاسِ أن يُمسكَ بقدمِ ليپّل ليقومَ بجرِّهِ من على السورِ. عندها صاح ليپّل:

ـ النجدة! النجدة! واندفعَ يركضُ على امتدادِ السورِ.

وكان الحرّاسُ يلاحقُونَهُ، واحدٌ من الداخلِ واثنانِ من الخارجِ. توقّفَ واحدٌ من الحارسينِ، واستدار إلى الوراءِ وأخذَ يركض. استطاع ليپّل أن يُدركَ ماذا يُريدُ الحارس: كان الحارسُ يريدُ أن يركبَ فرسَهُ،

لأنه إذا ركب فرسَهُ، يستطيعُ أن يلحقَ بليبّل، وأن يُمسِكَ به.

صاح ليبّل مجدّداً:

ـ النجدة! واستدار يركضُ فوق السُّورِ مجدداً، وهو يطلبُ النجدة.

فُتحتْ بعضُ النوافذِ في طوابقِ القصرِ العُليا، وشرعَ الحرّاسُ ينظرون إلى هذا الفتى الذي يصرخُ طلباً للنجدة، وجاء بعضُهم إلى بوابةِ السُّورِ بدافعِ الفضولِ وحبِّ الاستطلاع.

فخاطَبهم ليبّل:

ـ النجدة! ساعدوني!

لكنَّهم اقتربوا من السُّورِ بخُطىً وئيدةٍ وهم يتأملون بفُضولٍ هذا المشهدَ التمثيليَّ المُمتع.

فقفز ليبّل من فوقِ السُّورِ إلى الساحةِ الكبرى، وحاولَ أن يتجنَّبَ الحارسَ، لكنَّ الحارسَ كان أسرعَ منه، فاستطاع أن يُمسِكَ بذراعِ ليبّل بخشونةٍ وألقى القبضَ عليه، ومدَّ يدَهُ إلى سيفِه، فارتجفَ ليبّل وحاول أن يُدافعَ عن نفسِه كالوحش.

وصل في تلك الأثناءِ عددٌ من الحراسِ وخدمِ القصرِ، فقال واحدٌ منهم للحارسِ الذي يُمسكُ بليبّل:

ـ لا داعي لأن تسحبَ السيفَ في وجهِ هذا الفتى!

وصاح آخرُ بدهشة:

ـ انظر جيّداً. إنه الفتى الغريبُ الذي نُفيَ مع الأميرِ والأميرة! فكيف استطاعَ الوصولَ إلى هنا؟

وفي تلك الأثناءِ استطاعوا أن يُحكموا الوثاقَ حولَ يديْ ليبّل، فارتفعتِ الأصواتُ تقول:

ـ سنأخذُه إلى الملك! فهو الوحيدُ القادرُ على أن يقرِّرَ ما الذي

ينبغي أن نفعلَ به. ولعلَّهُ يعلمُ شيئاً عن وفاةِ الأمير.

ـ هيا! تعال معنا إلى القصرِ وإياكَ أن تُحاولَ الهرب! صاح أحدُهم بصوتٍ جاف. فردَّ ليبّل بارتياح:

ـ لا تخشَ ذلك على الإطلاق! فأنا لن أهرب! أرجوكم خُذوني إلى الملكِ في الحال!

اجتازَ الحارسُ ساحةَ القصرِ الأولى، ثم قطعَ ساحةَ القصرِ الثانية ووقف أمامَ البابِ الذي يقودُ إلى المقرِّ الملكي.

فُتحَ الباب.

فصاح ليبّل: لا! ليسَ الآنَ رجاءً!

لكنَّ السيدة يعقوب أدخلت رأسَها عبرَ البابِ وقالت:

ـ هيا! انهض يا فيليب! إنها السادسةُ وسبعٌ وأربعونَ دقيقة.

فاستيقظ ليبّل.

السبت

إفطار قصير وغداء طويل

سألتِ السيدة يعقوب أثناءَ تناولِ طعامِ الإفطار:

ـ حسناً! هل فكّرتَ جيّداً؟

ـ حول أيِّ موضوعٍ؟

ـ بخصوصِ طعامِ الغداءِ. فأنت تعرفُ ذلك!

هزَّ ليبِّل كتفيهِ، ثم صمتَ وواصلَ تناولَ اللّبن.

رأتِ السيدة يعقوب أنّ عليها أن تقولَ ما تريدُ بوضوحٍ فقالت:

ـ عليكَ أن تأتيَ هذا اليومَ إلى الغداءِ، وعليكَ ألاّ تأكلَ في منزلِ السيدة يشكي هذه! هل فهمت؟

ـ سأتناولُ الغداءَ في منزلِ السيدة يشكي. ردَّ ليبِّل بتصميم.

فقالتِ السيدة يعقوب بغضب:

ـ إذا فعلتَ ذلك، فلا تَعُدْ إلى المنزل! ثمّ...

ـ ثمّ ماذا؟ تساءل ليبِّل بحذر.

ـ سترى ذلك بنفسك. إنّني أحذّرك! قالتِ السيدة يعقوب، ثم نهضت وأردفتْ قائلةً وهي تغادرُ المطبخ:

ـ تستطيعُ أن تكملَ إفطارَك وحدَك! لقد سددتَ نفسي عن الطعام.

ولم تكن لدى ليبِّل رغبةٌ في أن يتناولَ الطعامَ وحدَه، لهذا تناول حقيبتَهُ المدرسية ومشى نحوَ المدرسة.

بعد انتهاءِ الدوامِ المدرسيِّ اتجهَ مع أرسلانَ وحميدةَ صوبَ منزلِ السيدة يشكي. وقد ظلَّ ليبِّل يمشي على الجانبِ المقابل، حتى لا يمرّا بالقربِ من السيدة يعقوب، فقد كان يخشى أن تندفعَ في هذه اللحظةِ خارجَ المنزلِ عندما تراهما وأن تنتزعَه من بينهما.

ـ ها هو منزلي. وهنا أعيش. أوضح ليبِّل لكلٍّ من أرسلانَ وحميدة.

ـ أنتَ تسكنُ هناك؟ فإلى أين تذهبُ إذن؟ سألت حميدة.

ـ ألسنا ذاهبينَ إلى منزلِك؟ سأل أرسلانُ وهو يقف.

ـ كلا. كلا. قال ليبِّل بسرعة وهو يجرّهُ معه. ثم أضاف: إنّ أبي وأمي ليسا هنا، لهذا سنتغدّى عند صديقتي السيدة يشكي.

فاحت رائحةُ الطعامِ عندما فتحتِ السيدة يشكي بابَ المنزل. قام ليبِّل بتقديمِ صديقَيه. حيّتهُ السيدة يشكي بترحيبٍ واضحٍ، وبدأ ليبِّل وحميدةُ يساعدانها في ترتيبِ المائدة.

قدمتِ السيدة يشكي الحساءَ بالمعكرونةِ التي تأخذُ شكلَ الحروفِ الهجائية. وقد سعى كلُّ واحدٍ منهم ليلتقطَ المعكرونةَ التي تشكّلُ الحرفَ الأوّلَ من اسمه. ثم أحضرتِ السيدة يشكي بعد ذلك قطعةً من لحمِ البقرِ المحمّرِ مع فطائرِ البطاطا المهروسة. ولم يسبقْ لحميدةَ وأرسلانَ أن تناولا فطائرَ البطاطا وقد شاركا للمرةِ الأولى آخرينَ في تذوُّقها. لم يكن أرسلانُ معجباً بها، فاستأذنَ أن يتناولَ قطعةَ خبزٍ من المطبخ. أما حميدةُ فقد تذوّقتها وأكلت فطيرتَين منها بسرعة.

أما الأفضلُ فقد كان الكرزَ المحفوظ.

اقترح ليبِّل أن تظلَّ السيدة يشكي جالسةً، وأن يتولّى الثلاثةُ تنظيفَ أدواتِ الطعام.

وفي النهايةِ بدأوا يلعبون، وظلّوا يلعبونَ ألعاباً شتّى، حتى الرابعةِ إلاّ رُبعاً. وشاركتهم السيدة يشكي بعضَ هذه الألعابِ، لأنّ الأربعةَ يستمتعونَ باللعبِ أكثرَ مما يستمتعُ الثلاثة.

في الرابعةِ كان على حميدةَ وأرسلانَ العودةُ إلى المنزل. فودّعوا السيدة يشكي وشكروها ثانيةً ومضوا.

رافقهم ليهَل إلى زاويةِ شارعِ هيردر، ثم افترقوا هناك.

ـ إلى اللقاءِ يومَ الاثنين! إلى اللقاءِ في المدرسة. قال ليهَل.

ـ إلى اللقاءِ في المدرسة! قال أرسلان.

ـ وماذا سنفعلُ عصرَ الاثنين؟ سأل ليهَل.

ـ سنلعبُ معاً. اقترحت حميدة.

ـ فكرةٌ جيِّدة. قال ليهَل.

ـ إذن إلى اللقاءِ يومَ الاثنين. قالت حميدةُ وهي تسيرُ مع أرسلانَ إلى المنزل.



السيدة يشكي تقرِّر التدخُّل

بعد فترةٍ قصيرةٍ قرع ليهَل بابَ منزلِ السيدة يشكي.

ـ ليهَل؟ أهو أنت؟ سألتْ وهي مندهشة. ثم أضافت: ألا تريدُ الذهابَ إلى المنزل؟

ـ بالتأكيد... ثم تردَّدَ وهو يُجيب.

ـ لماذا لا تذهبُ إذن؟ ماذا جرى؟

ـ إنني لا أجرؤُ على الذهابِ إلى هناك. أقرَّ ليهَل.

نظرت إليه السيدة بحَيرةٍ شديدةٍ وقالت:

ـ لا تجرؤُ على الذهابِ إلى المنزل؟ لماذا؟

ـ أظنُّ أنَّ السيدة يعقوب ستضربُني عندما أعود. قال ذلك بصوتٍ خفيضٍ وأضاف: لقد قالت لي اليومَ إنَّها تحذِّرني إذا لم أتناولِ الطعامَ في المنزلِ، وإنه سيحصلُ ما لا تحمدُ عُقباه، إن فعلت. هكذا قالت..

ـ هذه هي ذُروةُ الأشياء! إنَّ هذا أمرٌ غيرُ ممكن! صاحتِ السيدة يشكي بغضب. ثم قالت: لا تخَفْ! سآتي معك ولن أسمحَ لها بضربك. كن واثقاً من ذلك!

خلعتِ السيدة يشكي حذاءها المنزليَّ الذي تضعُه في قدميها طيلة النهارِ ووضعت حذاءً أسودَ اللونِ وقالت:

ـ انتظر لحظةً فسأرتدي بلوزتي الجديدة. سآتي بعد خمسِ دقائق.

سارا معاً نحوَ المنزلِ وقرعا الجرسَ (مع أنَّ مفتاحَ المنزلِ كان في جيبِ ليهَل) فتحتِ السيدة يعقوب بابَ المنزلِ وقالت تخاطبُ ليهَل بلهجةٍ تُنذرُ بالشرّ:

ـ لقد عدتَ أخيراً! هيا ادخلْ إلى المنزل!

نظرت إلى السيدة يشكي وكأنَّها مجرَّدُ غُبارٍ، وكانت ترغبُ في ألاَّ تفتحَ لها بابَ المنزلِ، لولا أنها دخلت مع ليهَل.

- مساءُ الخيرِ. قالت السيدة يشكي بأدبٍ وهي تقفُ في ممرِّ المنزل، ثم أضافت: أنا أدعى السيدة يشكي.

- هذا ما توقّعتُه! هل تريدينَ أن تزورينا؟ سألتها السيدة يعقوب.

- لقد جئتُ مع ليبّل لأن... بدأتِ السيدة يشكي تحكي.

- مع مَن؟ سألتِ السيدة يعقوب.

- معي. قال ليبّل.

- آه. مع فيليب. قالتِ السيدة يعقوب ثم أضافت: هذا أمرٌ واضح. لقد جئتِ حقاً مع فيليب.

ظلّتِ السيدة يشكي محافظةً على هدوئها وقالت:

- لقد جئتُ مع ليبّل لأنّه يخشى أن تقومي بضربه... لأنّهُ تناولَ وجبةَ الغداءِ في منزلي.

- أنا أضربُه! هذا كلامٌ فارغ! ثم ضحكتِ السيدة يعقوب بحدّةٍ وقالت: إنها أوهامُ هذا الفتى النمطيّة! إنني لا أستخدمُ الضربَ على الإطلاق. لكنه سينالُ عقوبةَ الحبسِ في غرفته. فردّتِ السيدة يشكي:

- لا يحقُّ لكِ أن تحبسيهِ في غرفتهِ لأنه تناولَ الطعامَ عندي. فهذا لا يجوز!

- يجبُ عليك، وأرجو منكِ المعذرة، أن تُغادري وأن تدعيني مع الفتى، فأنا المسؤولةُ عنه، في النهاية، ولستِ أنتِ!

- كلا! لن أدعَ الأمرَ لك! قالتِ السيدة يشكي وقدِ ارتفعَ صوتُها تماماً: لقد دعوتُ الفتى إلى تناولِ الطعامِ عندي!

- هذا ذنْبُكِ وليسَ ذنْبي! قالتِ السيدة يعقوب.

وهنا اتجهتِ السيدة يشكي صوبَ السيدة يعقوب وربّتت بإصبَعِها على كتفِها وقالت لها:

- بالمناسبة، تستطيعينَ الذهاب!

- الذهاب! ماذا تقصدين؟

- بإمكانكِ أن تُغادري هذا المنزلَ قبلَ انتهاءِ موعدِك بيوم، وسأتولّى أنا العنايةَ بهذا الفتى طيلةَ اليوم المتبقّي.

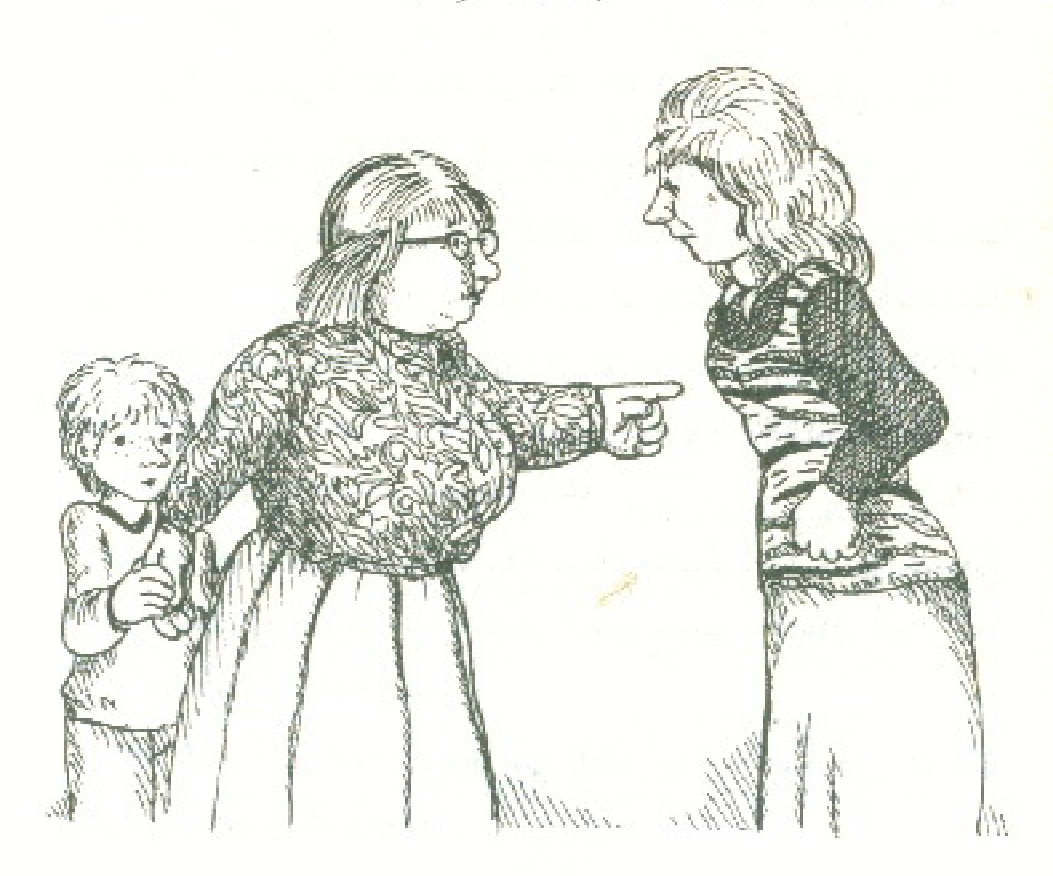
- هذا غيرُ ممكنٍ! لقد أخذتُ أُجرتي كاملةً عن المدةِ كاملة. أنا لا أعرفُ كيف تفكّرين. قالتِ السيدة يعقوب رافضةً.

- إذا كان الأمرُ يتعلقُ بالجانبِ الماليّ، فيمكنُ حلُّ هذا الإشكال. سأتحدّثُ هاتفياً مع السيِّد ماتنهايم، وأظنُّ أن رقمَ هاتفِه لديك.

- كلا. ليس لديَّ رقمُ هاتفه.

فقال ليبّل:

- إنّهُ موجودٌ على قُصاصةٍ إلى جانبِ الهاتف.



فأخذتِ السيدة يشكي تطلبُ الرقمَ بعنايةٍ وحذر.

وقفتِ السيدة يعقوب إلى جوارِ السيدة يشكي وملامحُ وجهها تشيرُ إلى أنّها تودُّ لو تقومُ بتحطيمِ جهازِ الهاتف على رأسِ السيدة يشكي.

ـ مساءُ الخير. هل يمكنُ أن أتحدّث مع السيد ماتنهايم. سألتِ السيدة يشكي وانتظرت، ثم قالت: مرحباً! هل أنتَ السيّد ماتّنهايم. الحمدُ لله أنك موجودٌ في الفندق. أنا يشكي، السيدة يشكي، جارتُكم التي تسكنُ في الجهةِ المقابلةِ لمنزلكم...

أجل لدينا مشكلة. إنّني أودُّ أن أُمضيَ هذه الليلةَ ونصفَ اليوم القادمِ في منزلكم لرعايةِ ليپَل. وأظنُّ أنّ ليپَل يرحّبُ بذلك ويرغبُ فيه.

فصاح ليپَل:

ـ إنني أرغبُ في ذلك تماماً. إنّ ذلكَ أفضلُ لي مئةَ مرّةٍ يا أبي!

صمتتِ السيدة يشكي على الهاتف ثم قالت:

ـ أجل. أجل. ثم قالت: لا. لا. ثم قالت: صحيح. هكذا سارتِ الأمور. أنتَ على صواب. ثم قالت بوضوح: إذن، أنتَ لا تمانعُ يا سيّد ماتنهايم أن تغادرَ السيدة يعقوب المنزل، وأن تأخذ أُجرتَها عن المدةِ كلِّها. إذنْ لا مشكلة. ثم ناولتْ سماعةَ الهاتفِ للسيدة يعقوب وقالت لها: السيد ماتنهايم يرغبُ في الحديثِ معك.

تناولتِ السيدة يعقوب السماعةَ بوجهٍ متحجِّر. كان ليپَل يُصغي بفُضول، لكنه لم يستمعْ إلاّ لإجاباتٍ قصيرةٍ وسريعةٍ مثل: أجل، كما تريد. ثم أغلقت سماعةَ الهاتف.

ـ لقد كنتُ أريدُ الحديثَ مع أبي. قال ليپَل شاكياً. لكنّ السيدة يعقوب تجاهلت ذلك وقالت:

ـ لم يعدْ هذا أمراً مهماً. فأنتَ تستطيعُ أن تتحدثَ معهُ لاحقاً. إنّ علينا أن نوضّحَ بعضَ الأمور.

ثم قالتِ السيدة يعقوب بلهجةٍ غاضبة:

ـ إنّ ما وقعَ لي لم يسمعْ أحدٌ به من قبل. إنَّهُ وقاحةٌ حقيقية. كيف يقومونَ بطردي من منزلهم بكلِّ بساطة؟ لكنَّ هذا أمرٌ متوقَّعٌ عند عائلةٍ كهذه!

ـ لم يطرُدْكِ أحدٌ على الإطلاق. لقد سمحوا لكِ بالرُّجوعِ إلى منزلكِ قبلَ انتهاءِ المدةِ المقرَّرةِ بيوم واحد. ردّتِ السيدة يشكي.

ـ وكيف سأعودُ إلى منزلي؟ هل يتوجّبُ عليَّ أن أسيرَ على أقدامي وأقطعَ مسافةً طويلةً وأنا أحملُ حقيبتي؟

أخذ ليپَل يتصفّحُ دليلَ الهاتف، وكان يبحثُ عن رقمٍ معيّنٍ ثم قام بالحديثِ مع صاحب هذا الرقم. فسألتهُ السيدة يعقوب:

ـ مع من تريدُ الحديث؟

ـ إنّني أطلبُ سيّارةَ تاكسي لكِ. ثم واصلَ حديثَهُ قائلاً: هل مكتبُ التكسياتِ المركزيُّ هنا؟ هل يمكنُ أن ترسلوا سيّارةَ تاكسي إلى شارع فريدريش روكرت رقم 49، منزل ماتنهايم؟ سيصلُ خلالَ عشر دقائق؟ شكراً جزيلاً. فقالت السيدة يعقوب:

ـ وهل سأدفعُ أجرةَ التاكسي؟

ـ كلا. بالطبع لا. قال ليپَل.

ـ ومن أينَ لكَ المال؟ سألتهُ السيدة يعقوب.

ـ إنّ معي بعضَ المالِ في الصندوقِ الخشبيِّ الصغير، وقد وضعَهُ أبي هناك للحالاتِ الطارئة.

ـ وهذه الحالةُ من الحالاتِ الطارئة. قالتِ السيدة يعقوب.

غادرتِ السيدة يعقوب المنزلَ بعد رُبعِ ساعةٍ، دون تحيةِ الوداعِ، فمرّت من غرفةِ المعيشةِ، ثم غادرت من خلالِ البوّابةِ الرئيسيةِ للمنزل.

كان ليپل والسيدة يشكي يراقبانِ المشهدَ من خلالِ زجاجِ النافذةِ وظلاّ واقفينِ حتى ركبتِ السيدة يعقوب في السيارةِ وغادرت. عندها قالت السيدة يشكي:

- لقد اختفتِ السيارة، فعلينا أن نهيّئ أنفسَنا لقضاءِ أُمسيةٍ هادئة.

ذهب ليپل إلى سريره، على غيرِ ما اعتادَ، متأخّراً. وكانتِ السيدة يشكي قد عادت إلى منزلها وأحضرت من هناكَ بعضَ الملابسِ الخاصةِ بالنوم.

تناولا العشاءَ معاً، وقاما معاً بتنظيفِ الصُّحونِ والأدواتِ المستخدمةِ، ثم لعبا بعضَ الألعابِ وشاهدا بعضَ البرامجِ التلفزيونية.

استلقى ليپل على سريره، وتثاءبَ بصوتٍ مرتفعٍ ثم تمدّدَ وسرعان ما غطَّ في نومٍ عميق.



الأحـــد

كتاب ليپّل

عندما مرّتِ السيدة يشكي بغرفة ليپّل وهي تترنَّمُ بإحدى الأغنياتِ بعد أن استحمت في الصباحِ، وكانت في طريقها إلى المطبخ لإعدادِ الإفطارِ، جاء ليپّل من غرفته. كان يبدو ضجِراً ونعِساً وشعرُهُ ينتصبُ فوقَ رأسه.

ـ صباحُ الخير يا ليپّل! قالتِ السيدة يشكي بمرحٍ، فقد كانت تتمتعُ على الدوامِ بمزاجٍ صباحيٍّ مَرِح.

ـ صباحُ الخير. ردّ ليپّل بشكلٍ فَظّ.

ـ ماذا جرى لك؟ هل أنت غاضب؟ هل أيقظتُكَ وأنا أدندنُ بأغنيتي؟ سألتهُ السيدة يشكي. فردَّ سريعاً:

ـ لا. لا. لستُ غاضباً منك. إنّني غاضبٌ من نفسي، لأنّني لم أحلمْ ليلةَ أمسِ على الإطلاق!

ـ على الإطلاق! هل هذا ممكن؟ سألتِ السيدة يشكي مُندهشة.

ـ لقد حلمتُ بالمدرسةِ وبأرسلانَ وحميدة وبكِ في ما أظن. لكنّي لم أستطعْ مواصلةَ حُلمي، لهذا فأنا لا أعرفُ كيف انتهتِ الحكاية! قال ليپّل وهو يشعرُ بالحسرة.

ـ هذا أمرٌ مؤسف. ردتِ السيدة يشكي.

لكنَّ ليپّل ردَّ بحزمٍ وتصميم:

ـ سأواصلُ الحلمَ بالحكايةِ وصولاً إلى نهايتها في الليلةِ القادمة.

ـ لكنّني أخشى ألاّ تتمكنَ من هذا. قالتِ السيدة يشكي، ثم أضافت: عندما تنقطعُ استمراريةُ الحلم، فإنَّ الإنسانَ يعجزُ عن مواصلةِ هذا الحلمِ من اللحظةِ التي سبقَ له أن توقّفَ عندها.

ـ وماذا أفعل؟ تساءل ليپّل وهو يشعرُ بالألم، ثم أضاف: إنّ ما ينقصُ الحكايةَ هو خاتمتُها. إنّ عليَّ أن أعرفَ كيف انتهت تلك الحكاية.

تأمّلتِ السيدة يشكي وقالت:

ـ ألم يسبقْ لك أن حدثتني عن الكتابِ الذي أخذتهُ السيدة يعقوب منك؟ ألا يحوي هذا الكتابُ الحكايةَ كاملةً؟

ـ بالتأكيد! أجل! لكنّها أخفتِ الكتاب، ولن نتمكّن من العثورِ عليه.



- انتظر! قالتِ السيدة يشكي وذهبت إلى غُرفةِ النوم الخاصةِ بوالدَي ليبِّل، ثم عادت بسرعة وهي تحملُ الكتابَ بيدِها.

- ها هو! أين عثرتِ عليه؟

- رغبتُ ليلةَ أمس في أن أقرأ شيئاً قبلَ النَّوم، فشاهدتُ كتاباً موضوعاً فوق الرَّفِّ الموجود إلى جانبِ السرير. وكان هو الكتابَ الذي تفتشُ عنه. إنَّ فيه حكاياتٍ ممتعةً وساحرةً حقيقةً. هل قرأتَ شيئاً من حكايةِ ملكةِ الأفاعي؟

- كلاّ! إنّها لا تهمُّني على الإطلاق. إنّني أُريدُ أن أرى قصةَ الملكِ مع ولدِه.

استلقى ليبِّل فوق السريرِ وأخذَ الكتاب، وبدأ يقلِّبُ صفحاته بأصابعَ ترتعش، وعثرَ على الحكايةِ وشرعَ بقراءتِها في الحال.

لكنه سرعانَ ما نزلَ إلى المطبخِ وجلسَ إلى مائدةِ الإفطارِ وهو يشعرُ بالاكتئاب.

- ما الذي جرى لكَ ثانيةً؟ إنّ ملامحَ وجهكَ تشيرُ وكأنَّ أحداً قد أخذَ الكتابَ منكَ ثانيةً. قالتِ السيدة يشكي مستطلعةً.

- إن الحكايةَ ليست صحيحة! ردّ ليبِّل بغضبٍ ثم أضاف: إنّ ما هو موجودٌ في الكتابِ مختلفٌ تماماً. إنّ بدايتَها صحيحةٌ أما ما سوى ذلكَ فغيرُ صحيح؛ فلا يوجدُ في الكتابِ ذكرٌ للخالة. أما المرأةُ الشريرة في الحكايةِ فهي الجارية. ولا أعرفُ على وجهِ التحديدِ ما معنى هذه الكلمة.

- وأنا لا أعرفُ كذلك معناها. أليسَ لدى والديكَ مُعْجَم؟

- بلى. إنّه موجودٌ في غرفةِ المكتبِ عند أبي.

- إذن دعنا نفتّشْ فيه عن دلالةِ هذه الكلمة. ثم بدأ الاثنانِ يفتشانِ عن دلالةِ الكلمةِ في المعجمِ حتى وجدا المعنى:

- الجارية: امرأةٌ من الرَّقيقِ الأبيض. قرأ ليبِّل ثم قال غاضباً: لكنَّ الخالةَ ليست من الجواري! وكيف يُمكنُ أن يكون بحَوزةِ الجاريةِ قِطعٌ ذهبيةٌ كثيرة؟ ينبغي أن تكونَ هذه المرأةُ أرملةَ شقيقِ الملك!

فقاطعتهُ السيدة يشكي قائلةً:

- لا ينبغي لكَ أن تقومَ بلعنِ كتابكَ ولا المعجم، لأنّه لا ذنْبَ لهما. لقد قُمتَ أنتَ بمواصلةِ الحُلم في هذه الحكاية. لقدِ اخترعتَها في الحلم، وهو أمرٌ رائعٌ، عندما يتمكنُ الإنسانُ من إنجازه.

- حسناً. ولكن كيفَ لي أن أعرفَ نهايةَ هذه الحكاية؟ سأل ليبِّل حانقاً.

- قم بتخيُّلِ نهايتِها وحدَك. إن عليكَ أن تتصوَّرَ وحدَك كيف جرتِ الحكايةُ إلى نهايتِها! قالتِ السيدة يشكي.

- لا. هذا غيرُ ممكن. قال ليبِّل وهو يهزُّ رأسَهُ غاضباً ثم أضاف: إنّ هذا يعني أنّني لن أعرفَ على الإطلاق، إذا كانتِ الخاتمةُ صحيحةً أم مُخترعة.

قالتِ السيدة يشكي وهي تضعُ يدَها على كتفِ ليبِّل وتعودُ معه إلى المطبخ: أتعلمُ يا ليبِّل؟ عليكَ أن تنسى الحكايةَ الآن! فلعلّكَ تحلمُ بها من جديد، وقد لا تحلمُ بها. فكّر بما سيحدثُ اليوم. سيأتي أبوكَ وأمُّك. فما رأيُكَ لو أعددنا لهما غداءً جميلاً؟

اعترف ليبِّل بأهميّةِ هذا الاقتراح. لهذا كان عليهما أن يتناولا طعامَ الإفطارِ، وينظِّفا أدواتِ الطعامِ ويشرعا بالطَّهي.

كانتِ السيدة يشكي معجبةً بأدواتِ المطبخِ الآليةِ التي اشتراها والدُه. لهذا قامت في البدايةِ بإعدادِ عصيرَي البرتقالِ والجزرِ لها ولليبِّل، ثم قامت بإعدادِ عصيرِ التفّاحِ في النهاية. وقد زعمت أنّها

تفعلُ ذلكَ للحُصولِ على الڤيتامينات. لكنَّ ليهَل أدرك أنها تفعلُ ذلك لتستخدمَ الآلاتِ الكهربائية.

انتهيا من إعدادِ الطعام، وقاما بتهيئةِ المائدة. وقامتِ السيدة يشكي بالذهابِ سريعاً إلى منزلها لتُحضرَ شيئاً من الإجاص (الكُمَّثرى) المحفوظ لديها ليكونَ بمثابةِ الحلوى التي ستقدَّمُ بعد الطعام، وبذلك تكونُ المائدةُ قد اكتملت.

العـــودة

رنَّ جرسُ المنزلِ في تمامِ الساعةِ الثانيةَ عشرةَ ظُهراً.

اندفعَ ليهَل نحوَ البابِ وفتحَه. كانَ أبوهُ وأمُّهُ واقفينِ بالباب. وضعت أمُّهُ حقيبتَها جانباً وعانقت ليهَل بقوّةٍ وهي تقول:

ـ ليهَل! ولدي! لقد افتقدتُكَ صدقاً.

ـ وأنا سعيدٌ بعودتكما. قال ليهَل.

فسألتهُ أمُّه:

ـ قُل لي: كيف مرَّ الأسبوع؟ وكيف حالُك؟ هل افتقدتَنا؟ هل واجهتَ صعوباتٍ مع السيدة يعقوب؟ وماذا حصلَ تحديداً؟ ولماذا تدخّلت السيدة يشكي؟

كانَ أبوهُ يقفُ غيرَ قادرٍ على الصبرِ، وقد قال لابنه:

ـ قبل أن تُجيبَ عن أسئلةِ أمِّك، سأقومُ أولاً باحتضانك؟

قام ليهَل بمعانقةِ أبيه.

وفي هذه اللحظةِ قدِمتِ السيدة يشكي من المطبخ، فرحَّبَ بها والدا ليهَل ترحيباً صادقاً.

ذهب الأربعةُ إلى غرفةِ الطعامِ، وجلسوا إلى مائدةِ طعامٍ عامرة.

قالتِ السيدة يشكي:

ـ إنَّ ليهَل سيتناولُ الطعامَ نفسَهُ الذي تناولَهُ يومَ أمس لسوءِ الحظ. فقد كان عليَّ أن أقومَ بطبخِ ما اشترتهُ السيدة يعقوب. وقد اشترت قطعةً من لحمِ البقرِ مُعدَّةً للشَّيِّ في الفرن.

ـ لكنّني أكلتُ فطائرَ البطاطا يومَ أمس. واليومَ هناكَ معكرونة، قال ليهَل ثم أضاف: ومع ذلك فإنَّ طعامَكِ لذيذٌ، يأكلُه الإنسانُ كلَّ يومٍ دونَ أن يملَّه.



- هل أعدّتِ السيدة يشكي الطعامَ هنا يومَ أمس؟، سأل أبوهُ وهو يشعرُ بالدهشةِ ثم تابع: كنتُ أظنُّ أنَّ السيدة يعقوب كانت هُنا أمس.

فردَّ ليپّل:

- لقد كانتِ السيدة يعقوب هُنا يومَ أمس، لكنّني تناولتُ الطعامَ مع أرسلانَ وحميدةَ في منزلِ السيدة يشكي. أوضح ليپّل.

- مع من؟

- إنَّ لديه دائماً الكثيرَ من الأسرار. قالتِ الأم.

ضحكَ ليپّل وقال: إنهما صديقايَ الجديدان.

- صديقان. هذا أمرٌ حسن. كيف تعرَّفتَ إليهما؟ سألتهُ أمُّهُ، ثم أضافت: ولماذا تناولتُم الطعامَ عند السيدة يشكي؟ ثم قالت: إنَّ من الأفضلِ أن تحكيَ لنا كلَّ ما وقعَ لكَ في الأسبوعِ المنصرمِ بالتسلسل.

تحدّثَ ليپّل عمّا وقعَ له، فتحدّثَ عن السيدة يعقوب، وعن المدرسة، وعن الكلبِ موك وعن عائلةِ غوني.

كانَ الأبُ والأمُّ يستمعانِ إلى الحكاياتِ بتوتُّر. وبعد أن أنهى ليپّل كلامَهُ قالتِ الأمُّ وهي توجِّهُ حديثَها إلى السيدة يشكي:

- ينبغي أن أشكرَكِ ثلاثَ مرّاتٍ: لأنّكِ دعوتِ أصدقاءَ ليپّل إلى الغداء، ولأنّكِ أجبرتِ السيدة يعقوب على مغادرةِ المنزل، ولهذا الطعامِ الممتازِ هذا اليوم. فأضافَ الأبُ وهو يتناولُ الإجاصَ (الكُمَّثرى) المحفوظَ للمرةِ الثالثة:

- ومن أجلِ الحلوى أيضاً.

كانت السيدة يشكي تشعرُ بالارتباكِ وقدِ اكتفت بالقول:

- لم أفعلْ شيئاً له قيمة. وما قمتُ به هو أمرٌ طبيعي.

وبعد أن تناولوا الحلوى سألَ الأبُ ليپّل عن عددِ النقاطِ التي

جمعَها وإن كانت هذه النقاطُ قد وصلت إلى المئة. فقال ليپّل:

- لو لم تقُم السيدة يعقوب برمي الكثيرِ من هذه النقاط، لتمكّنتُ من الحصولِ على الصورة. إن لديَّ على وجهِ التحديد ثمانٍ وتسعينَ نقطةً، بما فيها النقاطُ على عُلبِ اللبنِ الموجودةِ في ثلاجةِ المطبخ.

ضحكَ الأبُ وقال للأمِّ:

- هيّا افتحي إذن حقيبتَكِ اليدوية!

مدّتِ الأمُّ يدَها إلى الحقيبةِ واستخرجَت أربعَ نقاطٍ من نقاطِ التجميع.

فصاح ليپّل وهو يشعرُ بالمفاجأة:

- كيف حصلتُما عليها؟ هل يوجدُ في ڤيينّا لبنٌ وعليه نقاطُ تجميع؟

- كلا. كلا. لكننا تناولنا بعضَ عُلبِ اللبنِ في القطار.

فرح ليپّل وقال بحماسة:

- رائع. إنَّ لديَ الآنَ ما يتجاوزُ المئةَ نقطة. أستطيعُ أن أطلبَ الصورة.

فقال الأب:

- لكنَّ هذه لم تكُنِ الشيءَ الوحيدَ الذي أحضرناهُ لكَ من ڤيينّا. ثمَّ قامَ الأبُ باستخراجِ كتابٍ ملوّنٍ من الحقيبةِ ووضعَهُ في يدِ ليپّل.

فقال ليپّل سعيداً:

- إنه مملوءٌ بالقصصِ المصوَّرة، وكلُّها ملوَّنة.

- إنها حكايةُ ولدٍ يُدعى نيمو، وهو ولدٌ اعتادَ أن يحلُمَ كلَّ ليلة. والحكاياتُ تبيِّنُ ما انطوت عليهِ أحلامُهُ من مغامرات.

كانَ من الأفضلِ أن لا يقومَ أبوهُ بذكرِ هذا الأمر، فإنَّهُ بذلكَ ذكّرَ ليپّل بأحلامِهِ المتواصلة، مثلما ذكّرهُ بالنهايةِ التي يفتقدُها ويبحثُ عنها.

وضع ليبَل الكتابَ جانباً، فلم يعُدِ الكتابُ ممتعاً، لهذا جلسَ على الكنبةِ وبدأ يُحدِّقُ بالجميعِ على نحوٍ مملوءٍ بالحُزن.

- ما الذي جرى؟ هل أخطأنا؟ هل تشعرُ بالإهانة. سألتِ الأمُّ وهي تشعرُ بالحيْرة.

- ماذا جرى لكَ فجأةً؟ سأل الأب.

- أستطيعُ أن أتخيَّلَ ما جرى له. لقد ذكَّرهُ هذا الكتابُ بحُلمهِ المتواصل. أليسَ كذلكَ ليبَل؟ قالتِ السيدة يشكي.

أطرق ليبَل.

- الحلمُ المتواصل! ما معنى هذا؟ قُل لي! قالتِ الأم.

بعدها شرعَ ليبَل يحكي عن الكتابِ الذي أهدتهُ أمُّهُ له، عن بدايةِ الحكاية، وكيفَ صار يحلُمُ بها، وعنِ الأميرِ أسلَم والأميرةِ حميدة، وعن المدينةِ الشرقيةِ، حتى وصلَ إلى نهايةِ الحُلمِ الأخير. ثمّ قال وهو يشعرُ بالمرارة:

- والآنَ لا أعرفُ كيف تسيرُ الحكايةُ، وتنقُصُني خاتمتُها. كان ينبغي أن يتمَّ إحضاري إلى الملك. لا أعني أنا، لكني أعني ليبَل الموجودَ في الحلم. هل تفهمونَ ما أعني؟

- أجل. أجل. ردتِ الأمُّ وهي تفكّر. ثم قالت: إنني أظنُّ أنني أعرفُ خاتمةَ الحكاية.

- من أينَ تعرفينَ ذلك؟ هل سبقَ لكِ أن سمعتِ بها، أو قرأتِ عنها؟ سأل ليبَل أمَّهُ وهو يشعرُ بالإثارة.

- ليس مهماً ذلك. المهمُ أنني أعرفُ كيفَ انتهت. قالتِ الأم.

- هذا صحيح. قال ليبَل.

ثم بدأتِ الأمُّ تحكي.

نهاية الحكاية



تمَّ إحضارُ السجينِ ليبَل إلى القصر، حيثُ سلَّمهُ الحرسُ الذينَ سبقَ لهم أن أمسكوهُ وقيَّدوهُ، إلى حرسِ البلاطِ الملكيّ، لأنَّ من غيرِ المسموحِ لأولئكَ الحرسِ الدخولَ إلى المقرِّ الملكي. ثم قامَ حرسُ البلاطِ بتسليمِ ليبَل إلى القائدِ الأعلى للحرس، الذي سلّمهُ بدورهِ إلى الحرسِ الخاصِّ للملك.

سألهُ قائدُ الحرسِ الخاصِّ بقسوة:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- اسمي ليبَل. وأنا أعجبُ كيفَ تسألُني عن طلباتي. لقد أحضرتُموني إلى هنا بالقُوّة. لكنّني أسمحُ لكَ بأن تأخذني إلى الملك!

- هكذا! تسمحُ لي بأنْ آخذكَ إلى الملك. أتظنُّ أنّ مقابلةَ الملكِ أمرٌ سهلٌ؟ إنّكَ ستنسى نكاتِكَ كلَّها عندما تقابلُه.

كانَ الملكُ قد غادرَ مقرَّهُ وجلسَ في قاعةِ العرشِ عندما تمَّ اقتيادُ ليبَل إلى هناك.

كانت دهشةُ الحرسِ الشخصيِّ غيرَ عاديةٍ عندما أمرهُمُ الملك:

- فكّوا قيودَهُ حالاً! وأحضروا له كُرسيّاً مريحاً ليجلسَ فوقَه، وكأساً من عصيرِ التينِ، وصحناً مملوءاً بالفواكه.

- شكراً جزيلاً. لكنني أرجو أن تأمرهم بأن يُحضروا لي اللّبَنَ بدلاً من عصيرِ التين.

- هل سمعتم؟ صاحَ الملكُ بالخدمِ ثم أضاف: أحضروا له أجودَ أنواعِ اللبنِ من الثلاّجةِ الملكية.

ثم التفتَ إلى ليهَل وطلبَ منه أن يحكيَ له كلَّ شيء.

حكى له ليهَل عن لُؤمِ الخالةِ، وعن هربِهِ في العاصفةِ الصحراويةِ وعنِ الحُرّاسِ الثلاثةِ وعنِ الاختباءِ في النُّزُلِ، وعن صاحبةِ النزلِ السمينةِ وعن اعتقالِ الحرسِ له.

كان الملكُ يستمعُ ويَحني رأسَه بعضَ الأحيانِ. وكان يبدو وكأنّه يريدُ أن يتأكّدَ مما كان يعرفُهُ من قبل. وقد عجزَ الحرسُ الخاصُّ والخدمُ الذين كانوا يُصغونَ إلى الحكاياتِ عن التحكُّمِ بغضبِهِم.

صاحَ قائدُ الحرسِ الخاص:

- اسمح لي يا مَليكي أن أقومَ باعتقالِ الحراسِ الثلاثةِ الخائنينَ على الفورِ وإلاّ فإنهم سيهربون.

- قُم باعتقالِ هؤلاءِ الثلاثةِ وأدخِلْهُم فوراً إلى السِّجنِ. أمر الملكُ ثم أضاف: أحضروا فوراً صاحبةَ النُّزُلِ إلى هنا، وأخبروا أرملةَ أخي بالحضورِ إلى قاعةِ العَرش. وإيّاكم أن تبوحوا بما سمعتُم!

استغرقَ تنفيذُ ذلك بعضَ الوقتِ، وكان الخدمُ قد أحضروا اللّبَنَ لليهَل. لم يكنِ اللّبنُ رديءَ المذاقِ، لكنَّ ليهَل رأى أنّ من الإسرافِ أن يجريَ تقديمُ اللبنِ في أوعيةٍ مذهّبةٍ، فقد كان يكفيهِ أن يُقدَّمَ له لبنٌ ومعه النقاطُ التجميعيّةُ.

تمَّ إدخالُ صاحبةِ النُّزُلِ السمينةِ إلى القاعةِ. كانت خائفةً ومذعورةً، لكنّها ارتاحت عندما رأت ليهَل وهو يقومُ بالسُّخريةِ من أحدِ الحُرّاسِ، وذهبَ الخوفُ عنها قليلاً عندما شاهدت ليهَل يجلس

حُرّاً وسعيداً إلى جوارِ الملك.

ناداها الملكُ وقال لها:

- أنتِ طيّبةُ القلبِ أيّتُها المرأةُ المحترمة؛ فقد أنقذتِ أبنائي، وهو أمرٌ لن أنساهُ لكِ أبداً، وسأُجازيكِ عمّا فعلتِ خيرَ الجزاء. أرجو أن تجلسي هناكَ على المخدّةِ وتري بعينيكِ كيف تسيرُ العدالةُ وتأخذُ مجراها.

ثم دخلتِ الخالةُ إلى القاعة، وقد اصفرَّ وجهُها وكادت تنهارُ عندما رأت ليهَل جالساً، فقد كانت تظنُّ أنّه ماتَ مثل أسلمَ وحميدة! لكنها سرعانَ ما تماسكتْ، ودخلت وهي تحاولُ أن لا يُلاحظَ الملكُ اضطرابَها. وقالت وهي تنحني:

- لقد قُمتم باستدعائي أيُّها الملكُ العظيمُ، ويا شقيقَ زوجي العزيز. ما الذي أستطيعُ أن أقدّمَهُ لجلالتِكم؟

أشار الملكُ إلى ليهَل وقال:

- هذا الفتى الجالسُ هنا يُدعى ليهَل، وقد تحدّثَ لي أنكِ قُمتِ بالتخطيطِ لقتلِ الأميرِ أسلمَ والأميرةِ حميدة. وقد أعطيتِ للحراسِ الثلاثةِ صُرّةً مملوءةً بالذهبِ، حتى يقوموا بقتلِهما.

فردّتِ الخالةُ بصَلَف:

- إنَّ ليهَل هذا كذّابٌ وقح. إنّه أجنبيٌّ، وغريب! إنه ليس من بلادنا! وينبغي أن يُقطعَ رأسُهُ، لكذبِهِ على الملكِ عياناً.

- هل تُنكرينَ إذن كلَّ ما قاله؟ صاح الملك.

- لا داعيَ لأنْ أُنكرَ ما قال، يا جلالةَ الملك، إنني لا أستطيعُ أن أمسَّ أولادَكم بسوءٍ على الإطلاق! قالتِ الخالةُ كاذبةً. إنَّ خبرَ وفاةِ أسلمَ وحميدةَ قد صدّعَ قلبي، وملأهُ بالحزنِ والألمِ العميقين. فماذا سيقعُ لو بقيا على قيدِ الحياة؟

ـ وماذا كُنتِ ستقدّمينَ كي يعودا إلى الحياة؟ أأنتِ على استعدادٍ لتقدّمي رأسَك؟

ـ ما الذي تقصِدُه يا صاحبَ الجلالة؟

صمتَ الملكُ، ونهضَ وسحبَ إحدى الستائرِ جانباً. كان خلفَ الستارةِ أسلمُ وحميدة. وكان الكلبُ موك يُقعي إلى جوارِهما.

كان منظرُ الكلبِ مُؤلماً: فقد كانت قدمُهُ الأماميةُ اليُسرى جريحة، وكانت إحدى أُذنيهِ قدِ انتُزعت، لكنهُ كانَ ما يزالُ على قيدِ الحياة.

صاح الملك:

ـ يا للبُؤس! أتريدينَ أن تقتُلي أبنائي؟ إنّ عليكِ أن تعاقبي بالعُقوبةِ التي كنتِ تريدينَ أن تحلَّ بالفتى ليبَل.

ـ الرحمة، الرحمة! صاحتِ الخالةُ وهي تنحني على رُكبتَيها.

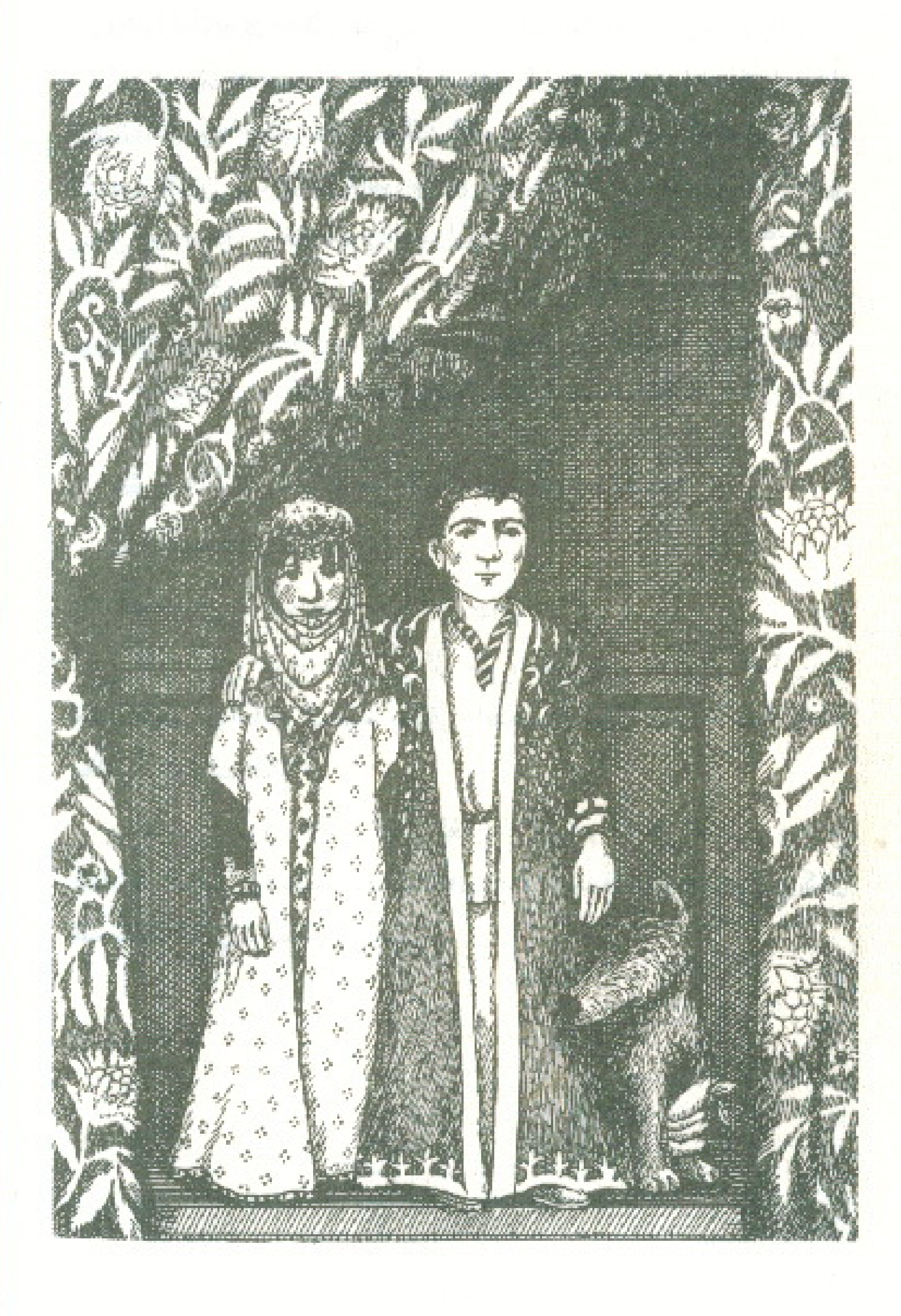
ـ اقطعوا رأسَها، فهي لم تطلبِ الرحمةَ لليبَل. قال الملك.

وهنا تقدّمَ أسلمُ قليلاً وبيّنَ أن الحكمةَ التي سبق أن تعلّمَها عند السندباد لم تذهبْ أدراجَ الرياح. فقال يخاطبُ أباه:

ـ أبي. ها أنتَ تُصدرُ ثانيةً قراراً قاسياً شبيهاً بالقرار الذي أصدرتَهُ عندما قرّرتَ أن تنفيَني. وقد آلمَكُم هذا القرارُ، يا صاحبَ الجلالة، وأخشى أن تندَموا بسببِه، حيثُ لا ينفعُ الندم. لهذا أرجو أن تتكرّموا بتخفيفِ العقوبة.

ـ ماذا عليَّ أن أفعل؟ وماذا تقترحُ يا بُنيّ؟

ـ إنَّ عليها أن تتلقّى العُقوبةَ نفسَها التي تلقّيناها. يجبُ أن تُنفى من البلادِ طيلةَ حياتِها.



وهذا ما جرى فعلاً.

أما المرأةُ السمينةُ صاحبةُ النُّزلِ، التي ساعدتِ الأولادَ طَوعاً، فعُيِّنَت مشرفةً عليا على فواكهِ القصرِ، وسُمِحَ لها بتحضيرِ التّينِ المحفوظِ من بساتينِ القصرِ، وعُيِّنَ لزوجِها مُرتَّبٌ سنويٌّ يبلغُ اثني عشرَ ألفَ دينارٍ، معفاةً من الضرائبِ.

الخاتمة

نظرتِ الأمُّ إلى المستمعينَ الثلاثةِ بترقُّبٍ وسألتهم:

- هل أعجبتكُم حكايتي؟

- تقصدينَ خاتمةَ حكايتي! قال ليپَل.

- رائع. إنني أعرفُ الآنَ أنَّ كلَّ شيءٍ سارَ على ما يُرام. هذا رائع. قالَ الأب، ووافقتهُ السيدةُ يشكي. اضطجعَ ليپَل فوقَ الكنبةِ وأخذَ يقلِّبُ صفحاتِ الكتابِ.

يا له من يوم رائع! فكر ليپَل: لقد عادَ أبوهُ وأمُّهُ إلى المنزلِ، وجمعَ النقاطَ المئة، وسيقومُ غداً باللعبِ مع صديقَيه الجديدين. وكان للحكايةِ الشرقيةِ نهايةٌ جميلة.

پاول مار: من مواليد عام 1937 في شڤاينفورت / ألمانيا. أنهى دراسة الرسم وتاريخ الفن، ويعد من أشهر وأهم الكتّاب في مجال كتابة أدب الأطفال والناشئة. كتب العديد من الروايات والأشعار والسيناريوهات والمسرحيات، ويعمل بالإضافة إلى ذلك رسّاماً ومترجماً. ابتدع شخصية زامس الشهيرة وكتب قصصها التي صورت كأفلام وحققت نجاحاً باهراً. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب جرى تحويله إلى فيلم وعرض في مهرجان السينما العالمي ببرلين عام 2009. حصدت أعمال پاول مار الكثير من الجوائز.

من هو موك؟ أهو الكلب الضَّال الذي كان يجري وراء ليپَل، أم هو الكلب القادم من القصر الملكي؟ ومن هما أسلم وحميدة: أهما الأمير والأميرة اللذان ضلَّ ليپَل معهما الطريق في أثناء العاصفة الرملية، أم هما زميلاه في غرفة الصف؟ إنها مغامرة مثيرة، هذه التي يراها ليپَل في المنام، ويشارك في أحداثها. أم تراها لم تكن حلماً؟




ISBN 978-9948-01-546-8
9 789948 015468





المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة